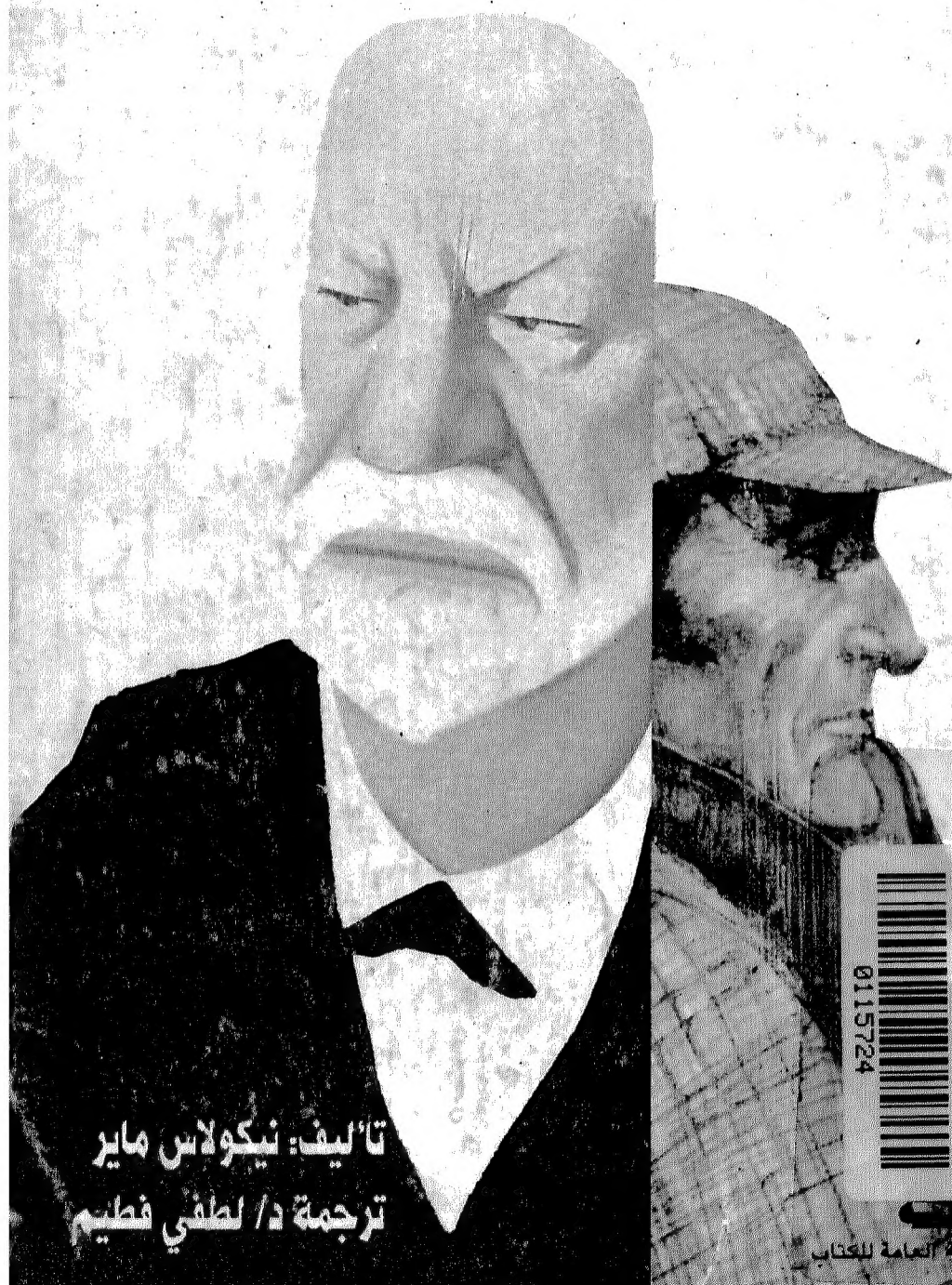


الكتاب
الشاق

٢٣٨

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد



تأليف: نيكولاس ماير
ترجمة د/ لطفي فطيم



8

المكتبة العامة للكتاب

شرکت هولمز ینقال سپیند فرید

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

لمياء محرم

شركوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

تأليف
نيكولاس ماير
ترجمة
د. لطفي فطيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

*The Seven-Per-cent Solution : Being a reprint
from the reminiscences of John H. Watson M.D.*

By

Nicholas-Meyer

القهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	
هل كان شرلوك هولمز شخصية حقيقية ؟	٧
تمهيد	١٧
تقديم	٢٣
الفصل الأول	
البروفيسور موريارتى	٣١
الفصل الثانى	
سيرة الحياة	٤٧
الفصل الثالث	
الوصول الى قرار	٦٣
الفصل الرابع	
مقابلة فى « بال مال »	٧٣
الفصل الخامس	
رحلة فى الضباب	٨٥
الفصل السادس	
توبى يتفوق على نفسه	٩٧
الفصل السابع	
تجربتان	١١٩
الفصل الثامن	
اجازة فى الجحيم	١٣١
الفصل التاسع	
الكان ولعبة التنس	١٤٩

الصفحة	الموضوع
	الفصل العاشر
١٦٣	دراسة في الهستيريا
	الفصل الحادي عشر
١٧٥	زيارة الى الأوبرا
	الفصل الثاني عشر
١٩٣	كشف السر
	الفصل الثالث عشر
٢١١	نظريات شرلوك هولمز
	الفصل الرابع عشر
٢٢١	الجنائز
	الفصل الخامس عشر
٢٣٥	المطاردة
	الفصل السادس عشر
٢٤٥	ما حدث بعد ذلك
	الفصل السابع عشر
٢٥٧	المشكلة الأخيرة

مقدمة المترجم

هل كان شرلوك هولمز شخصية حقيقية ؟

كان الحافز الاكبر لاعجابى بهذه الرواية واقدامى على ترجمتها هو فكرتها اللامحة فى الجمع بين شخصية روائية هى « شرلوك هولمز » ، وشخصية حقيقية هى العالم النفسى النمساوى الأشهر « سيجموند فرويد » . والحافز الثانى هو اعتقادى أنها كانت ستلقى استحسانا من أستاذنا الراحل الدكتور مصطفى زيور (١٩٠٧ - ١٩٩٠) رائد التحليل النفسى فى العالم العربى والذى تلقينا ذلك العلم على يديه ابان الصبا .

وأغلب ظنى أن شخصية « شرلوك هولمز » التى ابتدعتها قريحة الكاتب الانجليزى الكبير « السير آرثر كونان دويل » (وكان بالمناسبة طبيب عيون) ستظل الى نهاية الدهر المرجع الأول فى كل ما يتعلق بفن الرواية البوليسية . فهذه الشخصية الأسطورية ، شخصية المخبر السرى العبقري ، الذى يستخدم العقل والمنطق ببراعة يحسدها عليه أعظم العلماء والفلاسفة ليكشف غوامض جرائم يعجز عن الاتيان بها أعظم عباقرة الاجرام ، لا شك أن هذا كله سيبطل دوما المرجع الذى يغذى كل من له اهتمام بهذا النوع من الفنون الانسانية .

وفى تقديرى أن كافة نماذج شخصية البوليس السرى التى تزدهم بها الروايات المعاصرة أمثال « بوارو » « شارلى شان » و « ماجنوم » و « الفهد القرمزى » وما الى ذلك ، انما تقتبس كلها من ذلك العبقري « شرلوك هولمز » .

وقد بلغ صيت هذا المخبر السرى مبلغا جعل السينما تنتج عددا كبيرا من رواياته ، بل ان هذه الرواية التي نقدمها اليوم أخرجتها السينما فى فيلم معروف فى السبعينيات . ولسوء الحظ لم تف السينما هذه الروايات حقها وهى معذورة فى ذلك ، فبراعة شرلوك هولمز تتجلى فى استخدام العقل والمنطق أقل مما تتجلى فى الأحداث المثيرة والعنف ، وهذا أمر من الصعب على السينما أن تفهيه حقه ، ولذلك فقد تبدو هذه الأفلام التى يقوم ببطولتها شرلوك هولمز اما مملة وبطيئة الايقاع واما سريعة الحركة لا يكاد المشاهد أن يلتقط يدقة خيوط فكرتها . وقد يرجع ذلك أيضا الى براعة الممثل الذى يقوم بدور هولمز .

ومن حيث علاقة شرلوك هولمز بعالم الأدب والكتابة فقد نشأت فى العالم فى ثلاثينيات القرن العشرين جماعات أدبية متعددة تنتسب الى شرلوك هولمز تتدارس فيما بينها تلك الروايات ، وتتمق فى فهم خفايا النفس البشرية على الطريقة « الشرلوكية » . وفى عالم الكتابة ظهر مالا يقل عن ثلاثين رواية تتناول كلها شخصية هولمز أو شخصية «موريارتى» عدوه اللدود أو تقدم مغامرات جديدة منسوبة الى البطل المعروف . وفى عام ١٩٩٤ نال الدكتور كيث أوتلى ، أستاذ علم النفس التطبيقي فى جامعة أونتاريو بكندا جائزة الكومنولث البريطانى (مقدارها ٣٠٠٠ جنيه استرلينى) عن أول رواية كتبها بعنوان « قضية اميلي » . ومن المدهش أن أحداث تلك الرواية تدور حول لقاء آخر بين شرلوك هولمز وسيجموند فرويد ، اذ يكشف الاثنان أنهما يبحثان قضية واحدة ، وذلك عندما لجأت السيدة اميلي فنسنت الى فرويد فى فيينا لعرض حالتها النفسية عليه وأخفت عنه أنها قتلت زوج أمها وهو يحاول الاعتداء عليها ، وهى الجريمة التى كان شرلوك هولمز يعمل على حل ألغازها (١) . من الواضح اذن أن تلك العلاقة لا تزال مصدرا لوحى والهام

كثير من المفكرين • والرواية الحالية من تأليف روائي ليست له شهرة كبيرة اسمه « نيكولاس ماير » ونشرت لأول مرة في انجلترا عام ١٩٧٥ •

والاسم الأصلي للرواية هو :

The seven-per-cent Solution : Being a reprint from the reminiscences of John H. Watson M. Das edited by Nicholas Meyer.

وترجمتها الحرفية ، « المحلول الذى تبلغ درجة تركيبه ٧٪ من ذكريات د • جون واطسون كما حررها نيكولاس ماير » • وكما ترون فانه اسم طويل ليس له جرس موسيقى لذلك فضلت اختيار اسم مستمد مباشرة من موضوع القصة • ويورد المؤلف فى « اعترافه بالفضل لذويه » ان الافكار التى بنى عليها روايته قد استقاها من مئات الكتب التى تناولت شرلوك هولمز ، وأن فى عنقه دينا لعدد كبير من الكتاب لعل أهمهم ويليام بارينج - جولد مؤلف « شرلوك هولمز ساكن شارع بيكر » والذى استعار منه فكرة أن البروفسور موريارتى كان مدرس الرياضيات لشرلوك هولمز فى صغره • كما استعار من كتاب تريفور هوارد « شرلوك هولمز : عشر دراسات أدبية » فكرة العلاقة الآثمة التى نشأت بين والدة هولمز ومدرس الرياضيات ثم قتلها على يد أبيه ، وكذلك تاريخ أسرة هولمز الذى يفسر الكثير من جوانب شخصية المخبر السرى الشهير •

ومن مقال الطبيب النفسى المعروف دافيد مستو الذى نشره فى « مجلة اتحاد الأطباء الأمريكين » استقى فكرة الربط بين هولمز وفرويد من خلال الكوكايين ، كما استقاها أيضا من كتيب ايرفينج جافى « مسألة بديهية يا عزيزى واطسون » •

وهو مدين أيضا لكتابى مايكل هاريسون : « فى خطى شرلوك هولمز » و « لندن فى زمن شرلوك هولمز » بالمعلومات

الوفيرة عن عصر الملكة فيكتوريا وأحوال العالم أيام شرلوك هولمز . أما الفضل الأول والأخير فيرجع طبعاً الى العبقري مبتكر شخصية هولمز آرثر كونان دويل . وعلى أية حال لقد تمكن الكاتب من أن يصور لنا ببراعة جانباً من حياة فرويد وطريقته العلاجية من خلال مغامرة شقيقة من مغامرات شرلوك هولمز .

ويبلغ هوس الانجليز ببطلهم هذا حداً كبيراً ، بل لقد توحدوا به الى درجة أن حولوه من شخصية روائية الى شخصية حقيقية عاشت في شارع بيكر في لندن . فيتناول الدسرون ممن بحثوا ودرسوا شخصية شرلوك هولمز الامر على أساس أنه شخص حقيقي ، فكان موضوعاً لأفلام سينمائية بلغت الثلاثمائة بالاضافة الى أفلام الأطفال (الكارتون) ، كما كانت سيرته موضوعاً لباليه ؟ فضلاً عن عدد كبير من الكتب بما في ذلك ثمانى سير طويلة ، ولا يزال مكتب بريد لندن يتلقى سنوياً مئات الرسائل الموجهة الى هولمز .

أما فرويد - وهذا هو الأمر الغريب - فما يزال المؤلفون يكتبون سيرة حياته وآخرها كتاب بيترجاى : « فرويد : حياة من عصرنا » الذى صدر عام ١٩٨٨ . ومنذ وفاته عام ١٩٣٩ حتى الآن صدر ما لا يقل عن ثلاثين سيرة لحياته بمعدل سيرة جديدة كل سنة تقريباً .

ونشرت مجلة علم النفس البريطانية عام ١٩٨٨ بحثاً حاول فيه مؤلفه اثبات أن أشهر من بحث السلوك فى القرن التاسع عشر لم يكن عالماً سيكولوجياً وإنما كان مخبراً خاصاً ، هو شرلوك هولمز . واستند فى ذلك الى استعراض لحياته وأعماله التى تتطابق - كما يقول - مع علوم النفس البازغة فى ذلك الحين خاصة التحليل النفسى .

وقد عقدت مقارنات كثيرة بين هولمز وفرويد ، فقد ولد فرويد عام ١٨٥٦ بينما ولد هولمز - كما تجمع المصادر

— عام ١٨٥٤ • وابتكر كلاهما مهنة جديدة : المحلل النفسى والمخبر الخاص • وحصل كلاهما على الشهرة بعد ان نبذته مؤسسته المهنية فى بادئ الأمر • وكان الاثنان من كبار المدخنين ، السيجار لفرويد والغليون لهولمز • وقد ظهرت مباحث شرلوك هولمز لأول مرة فى الصحف البريطانية فى نوفمبر ١٨٨٧ بينما افتتح سيجموند فرويد عيادته فى فيينا يوم الأحد ٢٥ أبريل ١٨٨٦ •

ولا شك أن فرويد كان يعلم بوجود هولمز ، فقد أشار اليه فى خطاب الى يونج ، كما أن مريضه المشهور المسمى « بالرجل الذئب » أشار الى محادثة دارت بينه وبين فرويد بشأن هولمز • ولنا أن نتساءل ما اذا كان هذان الرجلان العظيمان قد تقابلا يوما من الأيام ، ان هذا التساؤل هو موضوع القصة التى نقدمها اليوم ولو أن هناك من يستبعد حدوثها •

وكان بكل من هولمز وفرويد حرص شديد على قيام الدليل والبرهان ، فى حالة هولمز كان يعنيه صدور هذا الدليل عن فاعل رئيسى فى شكل اعتراف يتلوه فى بعض الحالات صدور ادانة من المحكمة ، وفى حالة فرويد فبول المريض للتفسير • وقد انتقى الاثنان من أعمالهما ما يريدان عرضه على الناس ، فالكم الهائل من كتابات فرويد لا يحتوى الا «دسته» من الحالات التى عرضت بكاملها بينما أشار الى حوالى ١٣٠ حالة أخرى • أما ما هو عدد الحالات بالضبط التى باشرها خلال حياته المهنية التى امتدت الى حوالى أربعين عاما فلا نعلمه • وبالنسبة لهولمز فلدينا ستون حالة معترف بها وإشارة الى ما يزيد على ثمانى حالات وذلك من مجموع يزيد على ١٥٠٠ قضية غالبا • كما كان الاثنان على دراية واسعة باللغات والاداب • وبالإضافة الى كل تلك التشابهات هناك تطابق واضح فى المفهومات ، فالصراع الأساسى فى نظرية التحليل النفسى هو الصراع الأوديبى الذى يشمل صراع الطفل

ضد الأب الذى يعتبره مسيطرا مستبدا ويمثل خطرا داهما عليه ، وكذلك تخيل تدمير هذا الأب أو دمار الطفل على يديه • ويظهر مثل هذا الأب بوضوح فى ٢٣ حالة من حالات هولز •

هولز وأصحاب علم النفس غير فرويد :

بدأ هولز حياته المهنية فى عام ١٨٧٧ أى قبل سنتين من التاريخ المتعارف عليه لقيام أول مختبر لعلم النفس ، وهو معمل « فونت » فى لايبزيج بألمانيا • ولكن لم يستقر به الحال الا عام ١٨٨١ عندما استأجر هو والدكتور واطسون المسكن الشهير فى ٢٢١ ب شارع بيكر فى لندن • فى أى حد عرف هولز الاتجاه العلمى فى تناول السلوك ؟

لقد كان بالتأكيد عارفا بداروين - انظر رواية « دراسة فى اللون الأحمر » - (وقد ظهرت فى السينما بنفس الاسم) • كما كان ذا اهتمام شديد بالوراثة ، وعلى دراية بقوانينها - انظر رواية « الوجه الأصفر » ١٨٨٦ • وكان يعتقد فى وراثة « السمات الشخصية » فنجد فى رواية « أشجار الزان النحاسية » يستدل على الشخصية الكريهة لكل من مستر ومسز كاسل مما شاهده من استمتاع طفلهما بقتل الحشرات بحدائه • وزعم هولز أن قدراته هو نفسه كانت موروثه • ونجده أيضا فى رواية « المنزل الخالى » يدعم نظرية أن تطور الفرد يلخص تطور النوع كله ، وهو أمر لا يبعد كثيرا عن نظرية داروين •

ويدعو كل ما سبق الى نوع من المقارنة بأفكار السير فرانسيس جالتون ، ولا نعلم أن أحدا أشار الى أن هولز قد قابل جالتون، ولكن يمكننا أن نقارن غرام جالتون بالأرقام بما قاله هولز من أنه من أنصار قانون المتوسطات • وكان هولز خبيرا فى استقرار الشخصية من الخط «علامة الأربعة» • مثلما كان جالتون يعتبر الخط اختبارا دقيقا للاختلاف فى تنظيم الشخصية وأوصى باستخدامه فى التشخيص النفسى •

وكان هولز يعتبر نفسه ، بالتأكيد ، عالما حيث يقول :
 « الاستقراء علم مضبوط ، أو يجب أن يكون كذلك ، ان
 الصفات المطلوبة في المخبر المثالي هي : الملاحظة والاستقراء
 والمعرفة » . ومع أن ثقافته كانت واسعة الا أنها كانت
 منتقاة . ولقد سبق هولز ويليام جيمس في تفسير الذاكرة
 فشبهها بحجرة فارغة يملؤها العامل الماهر بالأدوات التي
 تساعد في عمله فقط ولديه منها تشكيلة كبيرة متنوعة في
 حالة جيدة وصالحة للاستعمال « دراسة في اللون الأحمر » .
 بينما يصفها جيمس بأنها « الطريقة التي يفكر بها المخبر في
 خبراته وينسج منها شبكة من العلاقات ، بينما قد يلاحظ
 وقائع كثيرة عديمة الفائدة ولكنه سرعان ما ينساها » . كما
 تجلت لدى هولز ما أسماه جيمس بالذاكرة الاستطردائية ،
 وهي القدرة على تذكر كميات كبيرة من المواد التي يبدو أن
 لا قيمة لها .

ويرى هولز بوضوح أن الملاحظة ليست هي الادراك
 فيقول لواطسون : « أنت ترى ولكنك لا تلاحظ » ، كما كان
 يؤكد باستمرار أولوية الوقائع على النظرية « فمن أكبر
 الأخطاء أن تضع نظرية قبل أن تكتمل لديك الوقائع » وقال
 أيضا : « ان الميل الى وضع النظريات الفجة وفقا لوقائع غير
 مكتملة هي آفة مهنتنا » . ولعله كان يتحدث بلسان أصحاب
 علم النفس حين قال : « استبعد المستحيل ، وما يبقى بعد
 ذلك ، مهما بدا غير محتمل يجب أن يكون الحقيقة » .

كان علم النفس - عموما - في أيام هولز يحاول أن
 يصبح موضوعيا . كان يادئا في التجريب ، ولكنه كان
 لا يزال شديد الاعتماد على الطريقة التاريخية أو ما يسمى
 « اعادة بناء الأحداث » لفهم الأسباب . وكان شرلوك هولز
 في شتى مسالكة يشكل نوعا من التوازي مع باحثي علم
 النفس المعاصرين له خاصة فرويد . وكان مثلهم يستلقت
 انتباه الرأي العام ويلهب خياله ، وبشكل أكثر درامية

بالتأكيد ، وكان كل ما يفعله هولز يصبح « موضة » على
التو . وقد ارتدى الناس السواد عندما أعلن عن موته خطأ
عام ١٨٩٣ . ولعل بافلوف كان الوحيد من بين أصحاب
علم النفس الذى نال مثل هذا التكريم .

ولعله من المعقول أن نفترض أن مغامرات شرلوك هولز
تضرب لنا مثلا مقبولا فى كيفية النظر الى السلوك الانسانى :
دراسته وتفسيره ، وأن طريقته مشابهة للطرق التى اتبعها
أصحاب علم النفس الأكاديمى ، ولكنها أقرب للأفكار الشهيرة
والمثيرة للجدل للتحليل النفسى . وكانت تلك الأفكار
— ولا تزال — بالنسبة للكثيرين النموذج أو النمط الأوحده
لنظرية فى السلوك وأسلوب دراسته . ولا تتطابق حالات
هولز من نواح كثيرة مع التحليل النفسى فحسب بل لقد
كانت أيضا بشيرا به .

أما الى أى حد أثر نموذج هولز بالفعل على دارسى السلوك
الانسانى ، وإلى أى مدى يعكس ذلك تغيرات عامة فى طرق
التفكير ، فهذه مسألة أكبر شأنا ، وربما تذكرنا حالاته بأن
طرق تفكير أصحاب علم النفس فى السلوك فى لحظة معينة
ليست نهائية أو نسيج وحدها . وعلى أية حال فقد كانت له
كلمة ماثورة يرددها دائما :

« الانسان . . ذلك اللفز الغريب » وهو قول لا يمكننا
معارضته .

د . لطفى محمد فطيم
أستاذ علم النفس
زميل الجمعية النفسية البريطانية

٢٣ مايو ١٩٩٤ .

مصادر مقدمة المترجم

1. Dakin, D.M. (1972). A Sherlock Holmes Commentary. Newton Abbot : David and Charles.
2. Doyle, A.C. (1981). The Penguin Complete Sherlock Holmes. — Harmondsworth : Penguin Books.
3. Freud, S. (1925) : an autobiographical Study. (Trans. 1935). London : Hogarth Press.
4. Freud, S. (1974) : Letter to C.G. Jung in W. McGuire (ed.) The Freud-Jung Letters. London : Hogarth Press.
5. Hall, T.H. (1978). Sherlock Holmes and His Creator. London Duckworth.
6. Marcus, S. (1984). Sigmund Freud and the Culture of Psychoanalysis. London : George Allen and Unwin.
7. Musto, D. F. (1960). Sherlock Holmes and heredity. Journal of the American Medical Association(196 (I), 165-169.
8. Musto, D.F. (1967). A study in cocaine. Journal of American Medical Association, 204. (1) 125-130.
9. Pankeyev, S. K. (1972). My recollections of Sigmund Freud. London : Hogarth Press.
10. Rosenberg, S. (1975). Naked is the Best Disguise. London Arlington Books.
11. Shepherd, M. (1985). Sherlock Holmes and the Case of Dr. Freud. London : Tavistock.
12. Peter Gay (1988) Freud, A life for our time, Papermac 1993, reprint) London.

تمهيد

لقد كان اكتشاف مخطوطة لم تنشر من قبل لجون واطسون ، مثيرا لقدر كبير من الدهشة بل والشك فى عالم الكتابة والأدب ، ولعل تصور اكتشاف مخطوطة أخرى من مخطوطات البحر الميت أقرب الى الذهن من تصور مخطوطة أخرى من يد ذلك الكاتب المترجم الذى لم يمل قط

ولقد أتخمننا أخيرا بعدد من الوثائق المزورة - لا مفر من الاعتراف بأن بعضها متقن وبعضها الآخر مجرد ادعاء - بحيث ان مجرد ظهور وثيقة تاريخية أصلية أخرى قد يثير بشكل أوتوماتيكي نوبة من العداء المشوب بالملل فى صدور الدارسين الجادين للشرائع ، من أين أتت تلك الوثيقة ولماذا لم تظهر قبل الآن ؟ هذه هى الأسئلة المحتومة التى سيضطر الدارسون الى القائها المرة تلو المرة قبل الانصراف الى تصنيف وتعدد التناقضات الكثيرة جدا فى الأسلوب والمحتوى والتى ستصم الوثيقة بأنها « زائفة » .

وبالنسبة للمخطوطة الحالية ، فليس من المهم أن أعتقد فى صحتها أم لا ، وبالنسبة لقيمتها فلنقل اننى أعتقد فيها ، أما كيف وصلت الى يدي ، فذلك بصراحة بسبب المحاباة كما يتضح من خطاب عمى ، الذى أورده بنصه فيما يلى

لندن فى ٧ مارس ١٩٧٠

عزيزى نيك

أعلم أننا - أنا وأنت - تفترسنا مشاغل كثيرة ، ولذلك فسأتجه مباشرة الى لب الموضوع « ولا تقلق من الحزمة

شرلوك هولمز - ١٧

المرفقة ، فهي لا تمثل محاولة منى لظهار أن حياة سمسار
الاوراق المالية هي حياة رائعة أو سهلة » •

اشترينا - أنا وفينى - منذ ثلاثة شهور منزلا فى
هامبشير من أرمل يدعى سوينجلين(١) « تصور الاسم ! »
وكانت زوجة الرجل المسكين قد توفيت لتوها - كانت فى
منتصفه الخمسينات كما أتصور - وكان الرجل محطما ،
يريد ترك المسكن بأسرع ما يمكن ، وقد عاشا فيه منذ الحرب
وكانت مسألة تنظيف « الصندرة » أو السقيفة مسألة ثقيلة
على نفسه ، وكانت كل متعلقاته وأوراقه « يا لهذا الكم
الهائل من الأوراق التى يجمعها المرء فى حياته! » التى يحتاج
اليها موجودة فى المنزل وقال لنا يمكنكما تنظيف « الصندرة »
إذا أردتما ، وأى شئ تجدونه فيها تستطيعون الاحتفاظ به •

وليس من المعتاد أن « ينكش » المرء فى مخلفات شخص
آخر ويأخذ ما يريد ، وأصدقك القول أننى كلما فكرت فى
الأمر قل حماسى للقيام به ، كان المكان مزدحما بالأثاث ،
والكراكيب ، والمصاييح ، وأشياء غطتها الأتربة ، بل
وصندوق ضخمة من ذلك النوع الذى يحمل فيه المسافرون
بالبحر حاجياتهم ! الا أننى كنت مستاء من التنقيب فى
مضى المسكين سوينجلين - حتى ولو كان ذلك باذنه •

ومع أن فينى كانت تحس بنفس شعورى ولكنها ، خلال
تأثيرها للمنزل ، دار بذهنها أنه قد يوجد فى ذلك المخزن
شئ ينفع ، خاصة أن أسعار الأثاث أصبحت كما تعلم ، كما
كان لديها فى نفس الوقت أشياء تريد تخزينها وإزاحتها
من الطريق ، وهكذا صعدت الى المخزن ونزلت تكاد تختنق
بالتراب ملطخة الوجه حتى بدت كمنظفى المداخل •

(١) وتعنى بالانجليزية « محتال » •

لن أطيل عليك ، فقد وجدنا رزمة من الأوراق هي التي نرفق لك صورة منها • ومن الواضح أن المسز سوينجلين كانت طباعة على الآلة الكاتبة « وكان اسمها قبل الزواج بولسون » تعمل في ايلزورث هاوس وهو شبه مصحة لكبار السن انتقلت ملكيته أخيرا الى هيئة الصحة القومية • وخلال عملها - وكان يشمل مساعدة المرضى في كتابة الخطابات لذويهم - كتبت على الآلة الكاتبة « وهي بالمناسبة توجد أيضا في المخزن بعالتها » الرزمة المرفقة وأملأها عليها طبيب يدعى جون • ه • واطسون !

وقد استغرقت قراءة تلك الأوراق وقتا • ولكنى لم أمض فيها أكثر من ثلاث او اربع صفحات فيما سمى المؤلف بالمدمه ، حتى اكتشفت حقيقتها ، وخطر ببالي بالطبع انها قد تكون عمليه تزييف كبرى ، لم تر النور ودفنت في ذلك المخزن ، ولذلك فقد تمنعت في الامر ، فوجدت أولا ان مستر سوينجلين لا يدري عنها شيئا ، فقد سألته سؤالا عابرا فلم يتدخر شيئا ، بل ولم يبد أى اهتمام • ثم ذهبت الى ايلزورث هاوس وطلبت منهم مراجعة الملفات وكان هناك بعض الشك فيما اذا كانت ملفاتهم لا تزال قائمة حتى ذلك التاريخ - فقد قلبت الحرب كل شيء - ولكن لازمنى حسن الحظ • ووجدت انه فى عام ١٩٣٢ أدخل الى المصحة من يدعى دكتور جون • ه • واطسون « التهاب مفاصل روماتزمى شديدا » وذكر فى ملفه أنه يتبع فرقة نورثمبر لاند الخامسة للبنادق ! ولم يعد هناك مجال لأى شك على الأقل فيما يتعلق بى ، وكنت أتحرق شوقا لمعرفة تفاصيل الملف « ألا تشتاق لمعرفة حقيقة أين أصيب واطسون » ولكن كبيرة الممرضات لم تتح لى الفرصة فلم يكن لديها وقت لتنتظرنى كما أن الملف سرى « أه أيتها البيروقراطية • ماذا تفعل هيئة الصحة القومية بدونك ! » •

على أية حال كان ذلك برهانا قويا على صدق المرفقات ،

التي أرسلها اليك لتستخدمها أفضل استخدام تراه فأنت
« الشيرلوكي » الوحيد في العائلة وستعرف كيف تتصرف
فيها ، وإذا كانت فيها فائدة « نقسمها بالنص » .

أفضل تحياتي اليك

هنري

ملحوظة : تقول فيشى ان لها نصيبا هي الأخرى فهي
التي وجدتتها *

ملحوظة أخرى : نحن نحفظ بالأصل وسنرى ان كانت
صالحة سوثنبي تحب أن تعرضها في المراتد وسواء كانت
المخطوطة أصيية أم لا ، فإنها تحتاج الى اعادة صياغة ، وربما
كان تحقيق طبعه لبلوتارك أسهل من مواجهة المساكل التي
تخلقها مخطوطة عثر عليها حديثا لواطسون * ولقد بادت
مراسلات كثيرة مع « أنصار شرلوك هولمز » وعددهم يمسوق
الحصر بحيث لا يمكن ذكر أسمائهم هنا ، وكانت لهم جميعا
ملاحظات قيمة ، ولم يتوانوا في تقديم النصائح والتعليقات
والأفكار الالامعة فيما يتعلق بذلك الاكتشاف الجديد *
ولعل أعظم اعتراف بالفضل لهم هو صدور هذا الكتاب في
حد ذاته ، فلقد تمكنت بفضل مساعداتهم من الاحتفاظ
بأسلوب د * واطسون في السرد بما يجعل القصة متسقة *

ولم يتمكن واطسون قط ، لأسباب غير معروفة تحديدا -
في حدود ما نعلم - أن يعيد صياغة وتحريير هذه المخطوطة
ولعل موته ، أو ربما ظروف الحرب ، هي التي منعتة ، ولذلك
حرصت عند تجهيز الكتاب للنشر أن أعمل ما اعتقدت أنه كان
سيفعله هو نفسه ، فاستبعدت التكرارات ، فكبار السن
لديهم ميل لتكرار أنفسهم ، ورغم أن ذاكرة واطسون فيما
يتعلق بالوقائع يبدو أنها ظلت سليمة فإنه كان أميل الى تكرار
التفاصيل المهمة ، كما استبعدت بعض « الشطحات » التي كان

يقوم بها من حين لآخر ، عندما كان يبدو أن عقله يسرح من القصة الأصلية وينطلق بلا قيد فى السنوات التى تفصل بين الحوادث « وهذه الذكريات لها قيمة فى حد ذاتها ولا شك أننى سأسردها فى شكل ملاحق فى الطبقات التالية » وأنا أدرى الناس أن الهوامش تشتت الانتباه خلال سرد القصة ولذلك فقد تعمدت أن أبقئها فى أدنى حد ممكن ، وذكرت فقط تلك التى لا بد منها ، بشكل غير ملحوظ قدر الامكان .

وبالنسبة لباقي المخطوطة فقد تركتها على حالها ، فالدكتور واطسون بارع فى سرد القصص ولا يحتاج الى أى تدخل منى ، وإذا تركنا جانباً الاغراء الذى كان ينتابنى أحيانا بأن اختزل أو «أصنفر» عبارة هنا أو هناك - فلا شك عندى أن الدكتور كان سيفعل الشئ نفسه عند المراجعة وفيما عدا ذلك فقد ظل كل شئ كما خطه المخلص الأمين الدكتور واطسون .

نيكولاس ماير - لوس أنجلوس ، ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣ .

تقديم

ظللت لسنوات عدة - لحسن حظي - شاهدا ومؤرخا ، وأحيانا ، مساعدا لصديقي مستر شربوك هولمز في عدد من القضايا التي عهد بها اليه بصفته التي انفرد بها الا وهي « المخبر السري الاستشاري » ، والحقيقة أنه في عام ١٨٨١ عندما أودعت الورق محتوى أول قضية قمنا بها معا ، كان مستر هولمز ، كما قال ، المخبر السري الاستشاري الوحيد في العالم ، وشهدت السنوات التالية تحسن هذا الموقف بدرجة كبيرة حتى اننا نرى اليوم - في عام ١٩٣٩ - انتشار المخبرين السريين الاستشاريين - وان لم يحملوا هذا الاسم - في كافة بلاد العالم المسمى بالمتمددين . ويستخدم الكثيرون منهم - لشدة سروري - الأساليب والطرق التي أنشأها صديقي المتميز من زمن بعيد ولو أن الكثيرين منهم لا يعترفون بالفضل لتلك العبقريّة بالدرجة التي تستحقها .

وكان هولمز ، كما حاولت أن أصفه دائما ، فردا يحب الخصوصية بدرجة شديدة ، وكان في بعض النواحي معتزلا لدرجة الغرابة والشذوذ ، وكان مغرما بأن يبدو ساكنا حازما عابسا متباعدا كما لو كان « ماكينة مفكرة » ليس لها اتصال مباشر أو تواصل مع ما يعتبره الواقع المادي الدنيء . والحقيقة أن ما اشتهر به من برود كان فعلا مقصودا ومتعمدا من صنعه هو نفسه ، ولم يكن يسعى بذلك الى اقناع أصدقائه - وهم قلة - أو كاتب سيرته بذلك الجانب من طبعه انما كان يريد أن يقنع نفسه .

ولقد مكنتني السنوات العشر التي انقضت منذ موته من التأمل والتفكير في مسألة شخصية هولمز ، ووصلت الى ادراك حقيقة كنت أعرفها بالتأكيد - ولكنني لم أعرف أنني كنت أعرف - ألا وهي أن هولمز كان شخصا عميق العواطف ، وكان استعدادة للانفعال عنصرا من عناصر شخصيته يحاول أن يقمعه ولو بجسده ، لقد كان هولمز يعتبر انفعالاته نوعا من التشبث ، بل عبثا ، وكان مقتنعا بأن ترك العنان للمشاعر سيؤثر على الدقة المطلوبة لعمله ، وأن هذا أمر لا يمكن السماح به ، لقد تنزه عن العاطفية ، أما تلك اللحظات في حياته التي أرغمتها فيها الظروف على التخلي عن تحفظه فقد كانت نادرة تماما ، ولكنها كانت دائما رائعة يكاد يحس الملاحظ لها أنه شاهد شهابا لامعا يبرق في سماء مظلمة *

ولم يكن هولمز يحب تلك اللحظات ، والتي كانت تحدث فجأة بحيث تفقده اتزانه ، بل واذن أي شاهد ولذلك فقد كان يمتلك ترسانة حقيقية من التصرفات التي يلجأ لها والتي كان هدفها الحقيقي - سواء اعترف بذلك أم لا - هو التنفيس عن الضغوط عندما يكون ذلك التنفيس أمرا لا بد منه . ولما كانت ارادته الحديدية قد سدت الطريق أمام الأساليب التقليدية للتعبير ، فقد كان يلجأ الى القيام ببعض التجارب الكيميائية - الغامضة - والتي كانت تبعث غالبا رائحة كريهة ، أو يرتجل على الكمان ألحانا لساعات طويلة (ولقد ذكرت في أماكن أخرى مدى إعجابي بملكاته الموسيقية) ، أو يزين حوائط مسكننا في شارع بيكر بآثار الطلقات النارية يرسم بها عادة الحروف الأولى من اسم صاحبة الجلالة الملكة ، أو اسم غيرها من المشاهير الذين يلفتون انتباه عقله ، ذلك العقل الذي لا يقر له قرار *

كما كان يتعاطى الكوكايين !! *

وقد يندهش البعض ، من هذه الطريقة الملتوية التي اتبعتها فى سرد قصة أخرى من انجازات صديقى الالامعة ، ولكن الأغرب من ذلك أن أبدأ فى سرد قصة من قصصه فى هذا التاريخ المتأخر * وكل ما أمل فيه ، بعد أن أبدأ قصتى وأبين مصدرها أن أفسر السبب فى تأخرى فى عرضها على الناس *

ان مصادر هذه المخطوطة تختلف اختلافا نسبيا عن المصادر التى استندت اليها فى الحالات التى سبق لى تسجيلها ففى تلك الحالات كنت أرجع الى المذكرات التى دونتها فى وقتها ولكن لم توجد مثل هذه المذكرات خلال الفترة التى حدثت فيها الواقعة الحالية *

وهناك سببان لما يبدو اهمالا منى ، أولا أن هذه الواقعة بدأت بطريقة غريبة بحيث انها سارت فى طريقها دون أن أنتبه الى أنها قضية فعلية * وثانيا ، ما أن أدركت ما يحدث حتى تيقنت أنها مغامرة لا يجب أن ترى النور قط * ولقد أخطأت فى ذلك التقدير ، ولعل المخطوطة الماثلة بين أيديكم ، خير دليل على ذلك ، ولحسن الحظ أنه رغم اقتناعى - أخلاقيا - أنه لن تنشأ قط الظروف التى تسمح لى بتدوينها ، فان تلك القصة من الحالات التى أتذكرها بكافة تفاصيلها ولى كل الحق فى ذلك ، ويمكننى القول ان ركائز تلك القصة محفورة فى ذاكرتى وستبقى هناك حتى مماتى وربما بعد ذلك *

الا أن الأسباب التى دعتنى الى التأخر فى عرض تلك القصة على الرأى العام كثيرة ومتراكبة * وقد سبق لى أن قلت ان هولمز كان شخصا يحب الانفراد ، وهذه قصة لا يمكن وصفها دون استكشاف بعض نواحي شخصيته ، وهو استكشاف لم يكن ليستسيغه فى حياته وأرجو ألا يعتقد أحد

أن وجوده حيا كان هو المشكلة الوحيدة ، فلو كان ذلك صحيحا ، لم يكن هناك ما يمنعنى من كتابتها منذ عشرة أعوام عندما لفظ أنفاسه الأخيرة فى تلال سوسكس التى كان يكن لها أكبر اعزاز • كما اننى لم أكن لاشعر بحرج للكتابة عن القضية « على جثته » كما يقولون •

فقد كان هولز ملحدا لا تعنيه سمعته فى العالم الآخر كما كان شديد اللامبالاة بانعكاس ذلك على شخصيه فى الحياة الدنيا ، أو متى ما رحل الى ذلك العالم المجهول الذى لا يؤوب منه راحل •

كلا ، لم يكن هناك شئ من ذلك ولكن السبب فى التأخير هو انه كان هناك طرف ثالث فى القضية ودان الاحرام والتوقير لتلك الشخصية هو الذى جعله يكبلنى بأشد المواتيق والعهود ، حتى لا أفشى هذه المسألة الا بعد ان تكون تلك الشخصية قد رحلت عن عالمنا ، أما اذا رحلت أنا قبلها فتلك مشيئة الله • وقد شاء القدر أن يعالج تلك المسألة بما يخدم مصلحة الأجيال التالية ، فلقد توفى الشخص المعنى منذ أربع وعشرين ساعة ، وبينما انشغل العالم فى دبح قصائد المدح والثناء « وانشغل البعض بتشجيعه باللعنات » واستعيدت سيرته واستعرضت مآثره فى طبعات صدرت على عجل ، بدأت أنا الآخر وأنا مازلت متمتعا بصفاء الذهن وثبات اليد - ولقد بلغت السابعة والثمانين أى الشيخوخة - أقول سارعت الى تدوين ما لا يعرفه أحد وأعرفه أنا فقط •

ولا ريب أن ما سأميط عنه اللثام سيثير جدلا فى عدد من الدوائر ، خاصة أنه سيشمل ما سبق أن أعلنته من أن حالتين من قضايا هولز التى كتبتها كانتا من وحي الخيال • فقد أشار الدارسون المتتبعون لكتاباتى أنه توجد فيهما أوجه تناقض وطريقة واحدة فى تزييف اسم أو تاريخ مما أثبت لجميع المهتمين أن من كتب هاتين الحالتين اما أحقق سخيف أو

على الأقل أخرج شارد الذهن • بينما رأى بعض الباحثين المدققين - أو الطيبين - أن ما يبدو من إخطاء هي في الحقيقة تحريفات مقصودة ، بالاضافة أو الحذف ، ارمى بها الى حماية أو اخفاء بعض الحقائق أما لأسباب واضحة او لأسباب لا يعرفها أحد غيرى ، على أننى لا أنوى هنا أن أدخل فى عمليات طويلة من التصحيح والتعديل للمعلومات وادبلوا اعتذارى عن ذلك •

وتفسيرى البسيط هو اننى عند كتابتى للحالات غالبا ما كان يتم ذلك فى عجلة فائقه وكثيرا ما ارجا الى ما بدا لى ايسر وسيلة للخروج من مازق الحاجة الى التغطية او اللياقة ، وعندما استعيد هذه الأمور يبدو لى الآن ان ذلك الأسلوب كان أكثر صعوبة من سرد الحقيقة كما هي ، الا أننى كنت أفتقر الى الشجاعة أو فى بعض الحالات الى التدقيق •

الا أن نفس هؤلاء الباحثين الجادين الذين سبقت الاشارة اليهم لم يصفوا قط بالزيف الحاليتين اللتين اقتطعتهما من النسيج العام وعزلتهما عن بقية الروايات ولا أقصد هنا تلك الروايات الزائفة التى كتبها أيد أخرى غير يدي والتى شملت قصصا تافهة من أمثال « عرف الأسد » و « جوهرة مازالين » و « الرجل الزاحف » و « الحوائط الثلاث » • وانما أشير الى « المشكلة الأخيرة » التى حكيت فيها عن المبارزة القاتلة بين هولمز وأعدى أعدائه ذلك الشيطان المسمى البروفيسور موريارتى والى مغامرة « المنزل الخالى » التى صاحبته • وفى هذه الرواية الأخيرة حكيت عن عودة هولمز للظهور بطريقة درامية وقدمت عرضا مختصرا للسنوات الثلاث التى قضاها فى التجوال فيما بين وسط أوروبا وأفريقيا والهند هاربا من صنائع وأتباع عدوه الذى رحل • وقد أعدت لتوى قراءة هاتين الحالتين وتعجبت ، والحق يقال ، لقله دهائى • فكيف فات على قرائى النابهين الحاحى الزائد على صدق ، ما زعمته ؟ وما القول فى كل

تلك التعبيرات المسرحية النثرية والتي هي أقرب الى ذوق هولمز من ذوقى أنا؟! (فقد كان ، رغم حبه الواضح للمنطق الصارم ، فى قرارة نفسه كاتباً مسرحياً من النوع الرومانسى الميلودرامى الذى لم تنله يد التهذيب) .

وكما عبر لى شرلوك هولمز فى أكثر من مناسبة فان الأدلة التى يبدو أنها تشير بلا جدال الى اتجاه معين قد تتحول ، اذا نظرنا اليها من منظور مختلف قليلا الى التعبير عن تفسير مضاد تماماً . وهكذا فقد يصح الأمر أيضا فى الكتابة اذا ربما كان الحاحى المتكرر فى « المشكلة الأخيرة » ، على صدقها الصافى ، قد أثار بعض الشك لدى قرائى وجعلهم يتوخون الحذر .

وربما لم يحدث شئ من ذلك الا أن السرية ، كما سوف نرى ، كانت أمراً لازماً فى ذلك الوقت وقد آن الأوان اليوم للكشف عن القصة الحقيقية بعد أن تحققت الشروط التى وضعها هولمز .

ولقد أشرت فيما سبق الى أننى قد بلغت السابعة والثمانين ، ومع اننى أدرك جيداً أننى قرب حافة الموت الا أننى من الناحية الانفعالية أستطيع مقاومة النسيان مثلما يستطيعه رجل يبلغ من العمر نصف ما بلغته أو ربعه ومع ذلك فاذا لم تحمل القصة التى سأحكيها فيما يلى من الصفحات أحياناً بصمات أسلوبى المعتاد ، فلا بد أن ذلك يرجع جزئياً الى السن بالاضافة الى حقيقة أنه قد انقضت سنوات عدة منذ أن كتبت لأخر مرة ، ولا شك أن الحكاية التى أكتبها اليوم والتى لا تستند الى المذكرات الدقيقة التى تعودت كتابتها تختلف بشكل ملحوظ عن أعمالى السابقة مهما بلغت دقة ذاكرتى .

وهناك سبب آخر لما قد يبدو من اختلاف وهو أنني لم أعد أكتب بيدي فلقد حال التهاب المفاصل الروماتيزمي بيني وبين القيام بتلك المهمة ولذلك، فأنا أملى هذه الذكريات على آنسة لطيفة تكتبها على الآلة الكاتبة « مس دوبسون » وهي تكتبها بطريقة الاختزال وستنقلها فيما بعد الى اللغة الانجليزية كما وعدت .

وأخيرا فقد يبدو أسلوبى مخالفا لكتاباتى السابقة ، وذلك لأن هذه المغامرة من مغامرات شرلوك هولمز تختلف كلية عن أية مغامرة كتبتها من قبل ولن أكرر خطئى السابق وأحاول التغلب على شك القارئ بأن أذكر له بأن ما أسرده هو الصدق بعينه .

جون . ه . واطسون

دكتور فى الطب

محلة الزورث — هامبشير ١٩٣٩

الفصل الأول

البروفيسور موريارتى

كما سبق لى القول فى مقدمتى لحالة « المشكلة الأخيرة » أدى زواجى وما تبعه من افتتاح عيادة خاصة بى الى تغير خفى ولكنه محدد فى نمط صداقتى مع شرلوك هولمز ، ففى البداية كان يزورنى فى منزلى الجديد بشكل منتظم وكنت أرد له هذه الزيارات وأقيم معه لفترة قصيرة فى مقرنا بشارع بيكر حيث كنا نجلس أمام المدفأة ندخن الغليون ويخبرنى هولمز بأحدث اكتشافاته .

الا أن هذه الترتيبات سرعان ما طرأت عليها بعض التغيرات فأصبحت زيارات هولمز متباعدة وانكشفت فتراتهما ومع ازدياد ضغط العمل أصبح من الصعب على أن أرتب زياراتى له .

وخلال شتاء ١٨٩٠ - ١٨٩١ لم أره إطلاقا بل وعلمت من الصحف بوجوده فى فرنسا ولم اتلق منه سوى مذكرتين كانتا هما كل المعلومات التى أدلى بها الى عن الموضوع وكأنتا شديدتى الایجاز وتوضحان أنه كان مطلوباً فى مكان آخر . وكان الربيع مطيراً مما زاد من العمل فى عيادتى الخاصة ومضى الوقت حتى شهر أبريل دون كلمة من هولمز خلال تلك الشهور وفى يوم ٢٤ على وجه التحديد وكنت على وشك تشطيب بقايا اليوم فى غرفة الاستشارة - فلم أكن فى وضع يسمح لى بأن أستأجر سكرتيرة - عندما دخل صديقى .

ولقد دهشت لمراه - ليس بسبب الساعة المتأخرة التي حضر فيها ، فقد كنت معتادا على حضوره وانصرافه في اوقات شاذة - ولكن بسبب التغير الذي طرأ عليه فلقد بدا اشد نحافة وشحوبا عن المعتاد مع أن مظهره المعتاد كان أميل الى النحافة والشحوب ، وبدا لون جلده مريضا كما فقدت عيناه بريقهما المعتاد . وكانتا تدوران في محجريهما بلا استقرار تتجولان بلا هدف في أرجاء الغرفة - كما بدا لي - ومع ذلك لا تستقران على شيء .

- هل لديك مانع من اسدال '« شيش » الثنافذة ؟

كانت هذه أول كلمات ينطق بها ، وقبل أن أستطيع الرد تحرك بسرعة بجانب الحائط وبحركة سريعة أسدل الشيش وأغلق المتراس باحكام ولحسن الحظ كان هناك مصباح يضيء الغرفة وعلى ضوءه رأيت حبات العرق تنساب على خديه ، فسألته :

- « ما الأمر ؟ »

- « البنادق الهوائية

وأخرج سيجارة ويدين مرتعشتين أخذ يفتش في جيوبه عن عود ثقاب . ولم أراه قط من قبل في مثل تلك الحالة .

- تفضل ، وأشعلت له السيجارة ونظر الى يتمعن للحظة من خلال الثقاب المشتعل حيث أدرك بلا شك مدى دهشتي لسلوكه

- « لا بد لي من الاعتذار لحضوري في هذا الوقت المتأخر » ، وأخذ نفسا عميقا بارتياح وهو يلقي برأسه الى الخلف .

— « هل مسز واطسون موجودة ؟ » *

واستمر فى حديثه حتى قبل أن أستوعب اعتذاره
وأخذ يذرع الغرفة الصغيرة متجاهلا حملقتى فيه *

— « لقد خرجت فى زيارة » *

— « صحيح * أنت وحدك اذن » *

— « نعم » *

وتوقف فجأة عن الحركة ونظر الى ولانت تعبيرات
وجهه استجابة لما بدا على وجهى :

— « يا صديقى العزيز لابد أن أفسر لك الأمر فلا شك
انك تجد تصرفاتى غريبة جدا » *

واعترفت بذلك واقترحت عليه أن ننتقل ونجلس بجانب
المدفأة ونتناول بعض البراندى اذا لم يكن لديه مانع *
وأخذ يتدبر الاقتراح وقد بدا عليه التركيز الشديد وهو
أمر يبدو مضحكا لولا أننى أعلم عن هولز أنه شخص لا تزعجه
التفاهات * ووافق فى نهاية الأمر مشروطا أن يجلس على
الأرض وظهره الى المدفأة *

وانتقلنا الى غرفة الجلوس حيث أضفت مزيدا من
الوقود الى المدفأة وأعددت الشراب وجلست فى مقعدى بينما
جلس هولز على الأرض بجانب اللهب وانتظرت أن يبدأ
بالحديث ليشبع فضولى ، فسأل :

— « هل سمعت قط عن البروفيسور موريارتى ؟ » *

منطلقا بذلك الى صلب الموضوع بعد أن تناول رشفة
أو رشفتين من الشراب *

وكنت فى الواقع قد سمعت بالاسم ولكننى لم أخبره ،
لقد كان اسم موريارتى هو النداء الذى كنت أسمعه أحيانا

يغمغم به عندما يكون غارقا فى نشوة الكوكايين ، وعندما يتلاشى أثر المخدر لم يكن يشير قط الى هذا الشخص . وقد فكرت مرارا فى أن أسأله عن ذلك الاسم ودلالته بالنسبة اليه ، الا أنه كان فى طبع هولمز ما يمنعنى عادة من هذا الاستفسار ، وكان يعرف تماما كيف أننى كنت آكره من صميم قلبى تلك العادة القبيحة « تناول الكوكايين » ولذلك لم أكن أرغب فى أن يتفاقم الأمر بأن أتناول سلوكه وهو تحت تأثير المخدر . أجبتة :

— « كلا لم أسمع به مطلقا » .

— « آه هذا هو الشيء المدهش والعبرى فى نفس الوقت ؟ » .

وانطلق فى الحديث بحماس دون أن يغير من مكان جلوسه :

— « لقد غزا الرجل لندن ، بل العالم الغربى كله ، ولم يسمع به أحد » .

وزاد من دهشتى أنه انطلق فى مونولوج لا نهاية له عن « البروفيسور » وأخذت أصغى باندعاش متزايد وتوجس بينما هولمز يصف لى هذه العبقريّة الشريرة أو « أمير الانتقام » كما كان يسميه . ونهض على قدميه وأخذ يذرع الغرفة فى قلق ونسى خطر البنادق الهوائية رغم أنه كان من المستحيل أن يصبح هدفا لها وهو فى غرفة الجلوس وفى مثل هذه الساعة وهذا الضوء ، وأخذ يقص على بالتفصيل تاريخ حياة ذلك الرجل الذى وصل الى الحضيض فى كل أنواع الرعب والاجرام .

أخبرنى أن موريارتى قد ولد فى عائلة طيبة ونال تعليما ممتازا ووهبته الطبيعة ملكة فذة فى الرياضيات ، وفى سن الواحدة والعشرين كتب رسالة عن « نظرية ذات الحدين » لاقت استحسانا فى أوروبا وأدت سمعته الى أن

يفوز بمنصب أستاذ كرسى الرياضيات فى احدى جامعاتنا الصغيرة • الا أن الرجل كانت لديه ميول موروثه من النوع الشيطاني المخيف وتفاعلت مع قدراته العقلية الفذة فلم يمض وقت طويل حتى دارت الشائعات حوله فى البلدة التى تحتوى تلك الجامعة واضطر فى النهاية الى أن يستقيل من منصبه ويستقر فى لندن كمستشار للجيش فى الرياضيات ردم يكن ذلك الا ستارا •

ومال هولز نحوى وحملق فى وجهى بينما استندت يداه الى حافة الكرسي واستطعت رغم الضوء الخافت أن أرى انسان عينيه يتسع بشدة وفى اللحظة التالية عاد ليذرع الغرفة بطريقته المخيفة •

— وخلال السنوات الماضية — يا عزيزى واطسون — كن وعيى يزداد باستمرار بأن هناك قوة تقف وراء الافعال الاجرامية الشريرة ، قوة تنظيمية عميقة تقف دائما سدا أمام القانون وتبسط حمايتها على كل مرتكبى الآثام والشور ، وأحسست بوجود تلك القوة مرارا وتكرارا وفى قضايا متنوعة — تزوير ، سرقة ، قتل — كما استنتجت وجودها فى كثير من الجرائم التى لم يتم اكتشاف فاعلها والتى لم أدع للمساهمة فيها ، ولقد ظلمت لسنوات أحاول اختراق ذلك الحاجز وأهتك حجب أسرارها وها قد حان الوقت أخيرا فأمسكت بخيط وتتبعته فقادنى بعد آلاف الحيل والمكائد الى أستاذ الرياضيات المعروف البروفيسور موريارتى • فقاطعته :

— « ولكن يا هولز » • •

— « انه نابليون عالم الجريمة يا واطسون » •

واستدار صديقى على عقبيه من موقعه أمام المدفأة وأضفت ألسنة اللهب المتصاعدة خلفه وصوته الحاد غير

العادي على هيئته طابعا مخيفا وكنت أرى عروقه وقد استفضت وبرزت الى أقصاها *

— انه المنظم لنصف الشرور ولكل ما لم يكتشف بعد من جرائم فى هذه المدينة الكبيرة وفى سجل الجريمة المعاصرة * انه عبقري وفيلسوف وأستاذ فى التفكير المجرد ، انه يجلس بلا حراك كالعنكبوت فى منتصف شبكته ، تلك الشبكة التى تتشعب الى آلاف الخيوط ، ويدرك تماما كل هزة فى أى خيط منها وقد يمكن الامساك بعملائه وقد تكتشف جرائمهم أو يحتاط لها أما هو فلا يمسه شئ قط ، بل انه فوق مواطن الشبهات *

وهكذا انطلق هولمز فى حديثه غامضا أحيانا ، وأحيانا أخرى كما لو كان يتحدث من فوق خشبة المسرح معددا الجرائم التى قام بها البروفيسور ، فتحدث عن أنظمة الوقاية والحماية التى وضعها لتحميه من كل شبهة أو أذى ، كما ذكر بحماس كيف أنه ، أى هولمز ، قد تمكن من اختراق الشبكة الدفاعية التى شيدها البروفيسور وكيف أن أتباع البروفيسور ، عندما اكتشفوا ما نجح فيه ، يقتفون أثره الآن حاملين بنادقهم الهوائية *

وقد استمعت الى هذا الحديث المتناثر بانزعاج متزايد وبذلت جهدى لكى أخفيه فلم أعرف قط عن هولمز أنه يقول غير الصدق ، كما أدركت فورا أن هذا الحديث لم يكن واحدا من مقالبه المعهودة فقد كان يتكلم بجدية صارمة ، بل يكاد يرتعش من الخوف اذ لم يوجد قط بشر يحمل سجله تلك الفضائع التى نسبها هولمز الى البروفيسور * لقد ذكرنى حديثه رغما عنى بعدو « دون كيشوت » اللدود ؟

ولم ينته الحديث نهاية تقليدية فقد انتقل هولمز تدريجيا من عباراته التقريرية الى همهمات غير مفهومة حتى

وصل الى حد الهمس وصاحب هذا التغير فى نبرة الصوت هبوط فى الحركة النشطة ذهابا وجيئة فاستند الى الحائط حتى ألقى بنفسه دون وعى على كرسى وقبل أن أنتبه الى ما حدث سرعان ما كان يغط فى النوم *

جلست فى صمت أمام النار الخابية أتفحص صديقى ، لم أره قط من قبل فى مثل هذا الاضطراب العميق ، بل لم اكن أدري ما هو نوع الاضطراب وبدأ لى من الطريقة التى تكلم بها انه واقع تحت تأثير مخدر قوى *

وخطر لى خاطر مفزع فقد تذكرت للمرة الثانية فى هذه الليلة المناسبة الاخرى التى سمعت فيها هولمز يكلم عن موريارتى ألا وهى عندما يكون واقعا تحت تأثير الكوكايين * تسلفت بهدوء عبر الكرسى الذى كان يستلقى عليه وقد راح فى غيبوبة وأزحت جفنيه وفحصت انسان عينيه ثم قست نبضه وكان ضعيفا مضطربا وفكرت بالمخاطرة بنزع سترته وفحص ذراعيه لأرى ما اذا كانت هناك علامات لحقن فيها ، الا أننى فضلت ألا أخاطر بإيقاظه من النوم * وعدت الى مقعدى مسترجعا أفكارى : فى الماضى كان هولمز يتعاطى الكوكايين أحيانا لمدة شهر أو أكثر وخلال تلك الفترة كان يحقق نفسه ثلاث مرات يوميا بمعدل من الكوكايين يبلغ تركيزه ٧٪ ولقد ظن الكثير من القراء ، خطأ ، أن هولمز كان يستغل صداقتى حتى أحصل له بوصفى طبيبا على ما يريده من هذا المخدر الفظيع ، بل لقد سمعت أخيرا أن استجابتى لرغبة هولمز فى امداده بهذا المخدر كان السبب الوحيد الذى جعله يطيق صحبتى ، ولن أعلق على سخافة هذا الكلام يكفى أن أقول ان هولمز لم يكن يحتاج لذلك ، ففى القرن الماضى لم تكن هناك قوانين تمنع المرء من شراء الكوكايين أو الأفيون بأية كمية يرغبها ، ولذلك لم يكن هذا الأمر غير قانونى بأى حال من الأحوال ، كما كان نفورى من

امداده بالكوكايين أمرا يخرج عن نطاق الموضوع وعلى أية حال فقد أشرت فى أماكن أخرى الى محاولات المتعددة لكبح جماحه عن الاستمرار فى هذه العادة المردولة والمدمرة للذات .

ولقد نجحت فى مسعى خلال فترات معينة ، على أن الأمر لم يكن راجعا الى قدرتى على الاقناع فحسب وانما الى ما يضاف اليها عندما تحال اليه قضية جديدة ومثيرة ، فقد كان العمل هو « أفيون هولمز » وكانت المشكلات التى تستعصى على الحل وتتحدى القدرات هى ميدانه الأصيل فاذا ما اندمج فى قضية من هذا النوع لم تكن به حاجة الى اللجوء الى أى منبهات اصطناعية ونادرا ما كنت تراه خلال تلك الحالات يتناول أكثر من كأس من النبيذ مع العشاء ، وكان ذلك بالاضافة الى كميات كبيرة من التبغ هى الملدات الوحيدة التى يتمتع نفسه بها عند اندماجه فى قضية ما .

الا أن مثل تلك القضايا المتحدية كانت نادرة ، وكان هولمز دائما ينعمى انعدام الابتكارية لدى فئات المجرمين وكانت قولته الدائمة لى والتى تتسم بالمرارة عندما كنا نسكن معا فى شارع بيكر : « لم تعد توجد جرائم عظيمة هذه الأيام يا واطسون ! » .

فهل أمكن ، ما بين غياب الجرائم المحيرة وبين رحيل من شارع بيكر ، أن يقع هولمز فريسة مرة أخرى - وبلا عودة هذه المرة - أن يقع فريسة فى مخالب الكوكايين ؟ .

وما لم تكن القصة الخيالية التى حكاها لى لتوه هى الصدق بعينه لم يكن أمامى الا هذا التفسير لما سرده على من وقائع ، ومن حكم هولمز الشهيرة أنه عندما تستبعد كافة الامكانات المحتملة ، فان الباقي مهما بلغت درجة لا معقوليته سيكون هو الحقيقة .

وما أن وصلت الى هذا الحد من التفكير حتى قمت وأفرغت رماد غليونى فى المدفأة وقررت الانتظار لارى ما سستمخض عنه الأحداث ، وألقيت غطاء على جسد صديقى الهامد واطفأت المصباح .

ولا أستطيع القول كم مضى على وأنا قابع فى الظلام . ربما مرت ساعة او ساعتان ، حيث اننى كنت مستسلما للنوم عندما استيقظ هولز وأيقظنى ، وتاه من عقلى ، للحظة . أين أنا وماذا حدث ؟ وبسرعة البرق استعدت نفسى ثم أضأت المصباح .

وكان هولز هو الآخر يستعيد نشاطه وأدار عينيه فيما حوله بنظرة تائهة ولاحظت أنه هو أيضا قد نسى المدان وماذا اتى به هنا . ثم تشاءب فى ارتياح وقال : « غليون وجرعة من الخمر يا واطسون - لا شئ يعادلها فى ليالى الربيع المطيرة ، هل غفوت أنت أيضا واستسلمت لمورفيوس اله النوم ؟ » .

وأجبتة : « يبدو أن الأمر كما تقول » . ثم تجرأت وسألته عن البروفيسور موريارتى .

ونظر هولز الى نظرة لا معنى لها وقال : « من ؟ » وحاولت شرح ما كنا نتحدث فيه بشأن هذا السيد قبل أن يلعب البراندى والدفع بأعطافنا فأجاب بحدة : « هراء ، لقد كنا نناقش كتاب ويندوودريد « تضحية الانسان » وكنت أستشهد بشئ أو بآخر من أعمال « جان - بول » وهذا هو آخر ما أتذكر » ، ونظر الى نظرة ذات معنى وقال : « أما اذا كنت تتذكر شيئا آخر فكل ما يمكننى قوله هو أن البراندى الذى شربناه أقوى بكثير مما يزعم صانعوه » .

اعتذرت لهولز وقلت ان ما تذكرته هو غالبا من صنع الخيال وتبادلنا بعض الكلمات وودعنى هولز ، ولم يابه

لاعتراضاتي أنه من الصعب الخروج فى الساعة الثالثة صباحا *

— « سينعشنى هواء الليل أيها الرجل العجوز وأنت تعلم انه لا يوجد خبير مثلى بشوارع لندن فى تلك الساعات الغريبة بلغ شكرى الى مسز واطسون لهذه الليلة الممتعة أيها الرجل الطيب » *

ذكرته بأن زوجتى مسافرة الى الريف ونظر الى بحدة للحظة ثم هز رأسه وذكر البراندى مرة أخرى ورحل *

أغلقت الباب بالملزاج خلفه يملؤنى التوجس والارتياح وصعدت درجات السلم الى غرفتى وبدأت فى خلع ملابسى ولكنى عدلت عن ذلك وجلست فى مقعدى واضعا يدى على ركبتى بجانب مدفأة غرفة النوم — وكانت نارها قد خبت منذ وقت طويل *

راودتنى فكرة أن هولمز كان على صواب وأنه قد اتى الى ليقيضى سهرة مسائية متأخرة وأننا دخنا غليوننا أو اثنين وشربنا كاسا أو ثلاثة وأننى قد تخيلت كل ذلك الحديث عن البروفيسور موريارتى بينما دار الحديث بيننا فى مسائل أخرى مختلفة تماما ، هل كان ذلك ممكنا ؟ * وكنت فى حالة من الاجهاد تمنعنى من التفكير بوضوح مثلما يحدث حين يستيقظ المرء بعد كابوس مخيف ويظل لفترة غير مدرك انه قد استيقظ منه *

وكان لابد لى من دليل ملموس فتسللت هابطا أحمل مصباحا فى يدى ولاشك أن منظرى كان سيبدو غريبا لو ان الخادمة رأتنى ، رجل فى أواسط العمر دون حذاء وبقميص مفتوح يتسلل على سلم منزله وقد ارتسمت على وجهه أمارات الذهول ودخلت غرفة الاستشارة حيث بدأت مشاهد هذه

الفانتازيا - اذا كانت فانتازيا فعلا - وفحصت شيش
النافذة ، كان مغلقا بالمزلاج ولكن من الذى أغلقه ؟ هولز
كما أذكر ام أنا ؟ وجلست فى مقعدى محاولا أن أتذكر كل
تفاصيل الحديث وتصورت اننى هولز نفسه ينصت الى
عميل يعرض قضيته فى غرفة الجلوس بمنزلنا القديم فى
شارع بيكر ، ولقد كان المنظر اذا تصادف وراه أحد ، امرا
يبعث على السخرية فيها هو رجل فى أواسط العمر دون حذاء
يجلس فى قاعة الاستشارة يضيئها مصباح واحد ويتحدث
الى نفسه - وكنت أفعل متلما يفعل هولز ، أتوقف بين كل
سؤال وآخر لاتمعن ما يقال ودار بينى وبين نفسى الحوار
التالى : هل تستطيع أن تتذكر أى شىء قاله أو فعله الرجل
بشأن الحديث الذى دار قبل أن تستيقظا معا ويشير هو الى
البراندى الذى تناولتماه سويا ؟

- كلا . لا أتذكر ، ولكن لا !! انى أتذكر شيئا .

- عظيم يا واطسون عظيم ! .

- كانت هذه هى العبارة المألوفة ولكن الصوت هذه
المرّة كان صوتى أنا .

- لقد سألتنى عندما دخل غرفة الاستشارة لأول مرة :
أين مارى ؟ وأجبتة بأنها فى زيارة بالخارج وأننا وحدنا ،
وبعد ذلك - بعدما أخذنا غفوتنا كل منا على كرسية - وكان
على وشك المغادرة طلب منى أن أنقل شكره الى زوجتى لهذه
الليلة الممتعة ولما أخبرته أنها غير موجودة بدت الدهشة
عليه اذ لم يتذكر ما سبق أن أخبرته به .

- هل أنت متأكد من أنك ذكرت له هذا الأمر من قبل ؟

- نعم بالتأكيد ولو أننى غضبت للسؤال .

— ألم يكن من الممكن اذن طالما كان هناك تأثير للبراندى
أنه قد نسى ببساطة ما ذكرته له من قبل ؟ *

— نعم * نعم ، لكن هذا هراء فلم يكن أى منا سكرانا *

ونهضت والجوارب فى قدمى وأمسكت بالمصباح
وانتقلت الى غرفة الجلوس فى محاولة للفرار من صوتى
الثانى وأزحت الستائر فى غرفة الجلوس ورأيت أن ضوء
النهار فى طريقه اليينا ، ولقد كنت مجهدا عندما ظهر هولمز
لأول مرة أما الآن فيبدو أننى قد أنهكت تماما *

— هل جاء فعلا ؟

وكانت هذه فكرة أشد جنونا ولعنت نفسى لمجرد أننى
فكرت فيها ولو فى أعماق نفسى وتحولت عن النافذة وبدايات
ضوء الفجر *

طبعاً لقد كان هنا *

رأيت أمامى الدليل على ذلك ، كان هناك الكأسان
اللتان شربنا منهما أنا وهولمز *

واستيقظت فى الصباح التالى ، أو على وجه الدقة فى
نفس الصباح وكنت فى سريرى ويبدو أننى ألقيت بنفسى
عليه دون أن أنزع ملابسى خلال تأملاتى التى لم تصل الى
شئ بشأن الليلة الماضية وكان المنزل قد بدأت فيه الحركة
استعدادا لليوم الجديد ، ونهضت وأنا أنوى البحث من جديد
فى هذا الأمر *

بدلت ملابسى وأتممت حلاقة ذقنى ونزلت حيث تناولت
طعام الافطار ولم تلفت نظرى صحف الصباح لقد كان عقلى
شاردا فى مكان آخر، لقد تذكرت الآن أننى قست نبض هولمز

وفحصت انسان عينيه فى الليلة الماضية ومرة أخرى راودنى
السؤال : هل كان هذا واقعا أم كان جزءا من الحلم ؟

ألح على السؤال بجنون فأنهيت افطارى بسرعة وذهبت
الى زميلى كوللينجوورث وطلبت منه أن يحل محلى فى عيادتى
هذا الصباح وكان سعيدا بذلك فطالما طلبت مساعدته دون
اخطار مسبق واستدعيت عربية وشدت الرحال الى شارع
بيكر *

كان النهار لا يزال فى بدايته عندما ترجلت من المربة
على الرصيف المؤلف أمام رقم ٢١٢ ب ونقدت السائق أجره
واستنشقت نسيم الصباح وكان لا يزال نديا وقرعت الجرس
ففتحت لى الباب بسرعة مدبرة منزلنا المسز هدسون وبدأ
عليها أنها أكثر من فرحة لرؤيتى وصاحت دون مقدمات :
— حمدا لله يا دكتور واطسون أنك أتيت *

ولدعشتى جذبتنى من كم سترتى الى داخل المنزل *

— ماذا هنالك ؟

ولكنها وضعت اصبعها على شفتيها مشيرة بقلق الى أعلى
السلم * كانت أذنا هولمز مرهفتين ، وبدأ أن حديثنا المتبادل
القصير قد وصل الى سمعه ، وجاءنا صوته الحاد من أعلى
« يا مسز هدسون اذا كان الطارق يحمل اسم البروفيسور
موريارتى فدعنيه يصعد وسوف أسوى حسابى معه » *

— « ها أنت ترى يادكتور واطسون » ، همست مديرة
المنزل التعيسة فى أذنى : « لقد تحصن فى الغرفة العليا
ولا يتناول طعامه ، ويسدل ستائره طوال النهار ثم يتسلل
خارجا فى الليل بعد أن أكون قد أغلقت الباب بالملزلاج
وذهبت الخادمة الى فراشها » *

ـ صاح هولمز : « يا مسز هدسون » *

ربتت على ذراعها لأطمئنها وقلت : « سأصعد لأراه »
ولكننى فى الحقيقة لم أكن واثقا من نفسى ، هناك اذن
بروفيسور موريارتى ، على الأقل فى خيال هولمز ، وصعدت
الدرجات السبعة عشر الى مسكنى القديم وقلبى مثقل ، ترى
ما الذى دهى هذا العقل النابه ؟!

طارقت الباب فصاح هولمز من الناحية الأخرى : « من
الطارق ؟ أهذا هو أنت يا موريارتى » *

ـ « أنا واطسون » وأعدت ذلك القول عدة مرات حتى
وافق أخيرا أن يفتح زاوية من الباب ونظر الى نظرة غريبة
من خلال الفرجة *

ـ « انه أنا يا هولمز دعنى أدخل يا رجل » *

ـ « ليس بهذه السرعة » ، وكان قد دس رجله خلف
ضلفة الباب وقال : « قد تكون أنت موريارتى متخفيا ، أثبت
لى أنك واطسون » *

فولولت صائحا : « كيف ؟ » ولم تكن لدى أية فكرة
عما يمكن أن يثبت له حقيقة هويته *

ـ فكر قليلا ثم قال : أين أحفظ بتبغى ؟

ـ تحتفظ به داخل خفك الفارسى *

ويبدو أن هذه الاجابة السريعة قد خففت من شكه
بعض الشئ فلان صوته وسأل :

ـ « وأين أحفظ بمراسلاتي ؟ » *

ـ « على رف المدفأة وبجانبيها مطواة » *

فأصدر صوتا نم عن التأييد :

— وما هي أول كلمات وجهتها اليك ؟

— « يبدو أنك كنت في أفغانستان » • وصحت في

هولمز أستعطفه : « افتح يا رجل بحق السماء » •

— « حسنا ، يمكنك أن تدخل » • يبدو أنه اقتنع أخيرا

فأزاح قدمه من خلف الباب وفتحته فتحة ضيقة وجذبني بشدة الى الداخل وأغلق الباب خلفي بسرعة وجذب عدة مزاليج وأقفال لم أرها قط خلال اقامتي معه وأخذت أراقبه مشدوها بينما يقوم بتلك العمليات ثم وضع أذنه خلف الباب يحاول الانصات لشيء لا أدريه وأخيرا استقام والتفت الى مادا يده •

قال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامته المعهودة :

« اعذرني يا واطسون لشكى فيك ولكن كان على أن أتأكد فانهم لا يتورعون عن شيء » •

— تقصد عصابة الأستاذ •

— تماما •

وقادني الى داخل الغرفة وعرض على تناول الشاي الذي صنعه بنفسه مستخدما كما بدا لي موقدا التقطه من أدواته الكيميائية وكأسا زجاجية ! قبلت دعوته وجلست أنظر فيما حولى، كان المكان كما عهدته عندما كنت أشارك هولمز السكن، ولكن شيش النوافذ كان مدعما بمزاليج كما كانت الستائر مختلفة عن تلك التى أعرفها فقد أصبحت مصنوعة من الحديد وكان هذا الشيش والأقفال خلف الباب هي كل التغييرات التى لاحظتها •

— « تفضل أيها الرجل العجوز » وامتدت ذراعا هولمز

لنقدم لى قدح الشاى ، وكان يرتدى ثوبه المنزلى (الروب)
 ذا اللون الرمادى ، وانكشفت ذراعاه وهو يقدم لى الشاى
 وكانتا مليئتين بندوب الحقن •

ولن أسهب فى تفاصيل تلك المقابلة المؤلة فلا ريب ان
 موضوعها واضح لكم ، كما أننى لا أريد أن ألقى أى ظل من
 الشك على ذكرى هذا الرجل العظيم . بأن أحكى ما أحدثه
 هذا المخدر البشع فى ملكاته الذهنية •

تركت شارع بيكر بعد ساعة وقد خرجت مشيعا بنفس
 الاحتياطات التى صادفتها عند الدخول واستدعيت عربة
 وعدت الى منزلى •

وصلت وأنا مازلت تحت تأثير صدمة مقابلة هولز
 وهناك واجهتنى مفاجأة مزعجة فقد أخبرتنى الخادمة حال
 دخولى أن هناك سيدا ينتظرنى •

— ألم تخبريه أن دكتور كولينجوورث يحل محلى هذا
 الصباح ؟

— لقد فعلت يا سيدى ولكن الرجل أصر على رؤيتك
 شخصيا • ولم أشأ أن أغلق الباب فى وجهه ولذلك تركته
 ينتظر فى غرفة الاستشارة •

وكان هذا أكثر مما أحتمل وزاد غضبى وكنت على
 وشك التعبير عنه عندما قدمت الى الفتاة بطاقة وهى تقول :
 « هذه هى بطاقته يا سيدى » ، وتناولت البطاقة وشعرت
 برجفة تنتابنى وتحول الدم فى عروقى الى جليد • لقد كان
 الاسم المدون على البطاقة هو « البروفيسور موريارتى » •

الفصل الثانى

سيرة الحياة

حملت بغباء لمدة دقيقة فى البطاقة وانتبهت لوجسود
الخادمة فدست البطاقة فى جيبي ودخلت غرفة الاستشارة *

لم أكن أجروء على التفكير بل لم أرغب فيه ، فليوضح لى
هذا السيد مهما كان ومهما كان اسمه ، تلك الأمور فلم
تعد بى مقدرة على التخمين أكثر من ذلك *

نهض الزائر حالما دخلت الغرفة وكان شخصا خجولا
ضئيل الحجم فى الستينيات يحمل قبعة فى يده وعلى وجهه
امارات انزعاج سرعان ما تحولت الى ابتسامة وجلة عندما
قدمت نفسى اليه * وقدم الى يدا صغيرة عانقت يدي
باختصار * كان حسن الهيئة ولكن ملابسه لم تكن من النوع
الغالى وكانت عليه امارات أصحاب المهن ولكنه ، رغم ذلك ،
بدا غير معتاد على صخب الحياة وضجيجها ، ربما كان ينتمى
الى دير حيث عيناؤه الزرقاوان المصابتان بقصر النظر لا عمل
لهما الا الانكباب على الأوراق القديمة وفك ألغاز معانيها *
وكانت رأسه تؤيد الانطباع الذى كونته عن طبيعته بأنه
أميل الى أن يكون رجل دين ، فقد كانت صلعاء تقريبا مع
وجود خصلات خفيفة من شعر أبيض رمادى يحيط بمؤخرة
الرأس والجانبين *

— قال بصوت خافت ولكن قلق : « أرجو ألا أكون قد
سببت لك ازعاجا باحتلالى غرفة استشارتك .. » فان طبيعته

مهمتى عاجلة الى أقصى حد وشخصية جدا فأنت هو الشخص
الذى أريد أن أقابله وليس الدكتور كولينجورث » .

فقاطعته بخشونة لاحظت أنها أزعجته .. « حقا حقا
أرجو أن تخبرنى بهذا الأمر » .. خففت من حدة صوتى
وأشرت اليه أن يجلس ، وجلست على مقربة منه .

— « الحقيقة أننى لا أعرف من أين أبدأ » ، وكانت
لديه عادة مزعجة وهى أن يدير قبعته بين يديه وهو يتكلم ،
وحاولت أن أتصوره فى الصورة التى وصفه بها هولمز
— شيطان شرير ذكى يجلس بلا حراك فى مركز كافة
المؤامرات الدنيئة التى ينسجها الانسان — الا أن هيئته لم
تكن تنبىء عن هذا .

واستمر البروفيسور فى حديثه بتصميم وحيوية قائلا:
« لقد جئت اليك لأن قراءتى لقصصك بينت لى أنك صديق
مستر شرلوك هولمز الصدوق » .

— « انى أتشرف بذلك فعلا » قلتها بصوت خشن وهزة
من رأسى فقد صممت على أن آخذ حذرى ورغم أنى حكمت
على مظهره بأنه غير مؤذ الا أننى قد عزمت على ألا يخدعنى
منظره .

ومضى فى حديثه يدير قبعته بيده : « لا أعرف كيف
أقول لك ولكن مستر هولمز .. أعتقد أن الوصف الوحيد
لما يفعله هو أنه يضطهدنى » .

— فصحت : « يضطهدك أنت ؟ » .

— « نعم » قالها بسرعة وقد بدا عليه الانزعاج مرة
أخرى لنبرة صوتى ولو أنه كما بدا لى لم يلحظ نبرة
التوكيد .

— « أنا أعلم ان حديثي يبدو سخيفا ولكنني لا أرى سبيلا آخر لوصفه ، انه يقف خارج منزلي في الطريق وفي الليل » واختلس نظرة الى ليري آية استجابة تنفصع عنها ملامحي ، ولما اطمأن الى أنني لست على وشك الانفجار من الغضب استمر في حديثه :

— « انه يقف خارج منزلي ليلا ، ليس في كل ليلة وانما عدة مرات في الأسبوع ، وهو يتبعني أحيانا أياما بطولها يقتبفي إثنى ولا يعنيه أنني أراه ، كما أنه يرسل الى خطابات »
 •• قالها بعد تردد

— « خطابات ؟ »

— « حسنا انها ليست خطابات بل برقيات تحنوي جملة أو جملتين •• موريارتي خذ حذرك ؟ لقد أصبحت أيامك معدودة ؟ وأشياء من هذا القبيل بل لقد قابل ناظر المدرسة بشأني » •

— « ناظر المدرسة ؟ أى ناظر تعنى ؟ » •

— « انه المستر برايس جونز ناظر مدرسة كرويلوت التي أعمل بها مدرسا للرياضيات » • (وكانت مدرسة هامة غير مشهورة في منطقة غرب لندن) « لقد استدعاني ناظر المدرسة وطلب مني الرد على مزاعم مستر هولمز » •

— وماذا قلت له ؟

— « لقد قلت انني في حيرة من أمري ولا أستطيع التفسير حيث انني لا أعلم ما هي تلك المزاعم فأخبرني بها » •

وتملئل موريارتى فى مقعده وصوب عينيه الزرقاوين الى وقال : « يا دكتور واطسون ان صديقك يعتقد اننى نوع من . . . وبدا عليه انه يبحث عن الكلمة المناسبة - اننى نوع من العقل المدبر لعالم الاجرام بل ومن عتاة مجرمى هذا العالم » وأردف ذلك بهزة استسلام من منكبيه وتمعجبا بكلتا يديه :

— « وانى أسألك يا سيدى بكل أمانة هل ترى فى أي ملامح لمثل هذا الشخص ؟ » .

ولم يكن هناك بد من الاعتراف بأننى لا أستطيع أن أرى ذلك ، وتابع الرجل حديثه بصوت متألم :

— « ولكن ما العمل ؟ . . . انى أعلم أن صديقك رجل طيب وتلهج انجلترا كلها بالثناء عليه ولكنه فى حالتى قد ارتكب خطأ فاحشا وأصبحت أنا ضحية تميصة له » .

ولم أقل شيئا فقد دارت رأسى من التفكير .

واستمر الرجل فى حديثه المتألم : « ان آخر ما أربغ فيه هو أن اسبب له اى ازعاج او حرج ، الا أن السبل قد تقطعت بى واذا لم يتم عمل شىء بهذا الخصوص ، أى بشأن هذا الاضطهاد ، فليس أمامى من سبيل الا أن ألجأ الى محامى ؟ » .

— أجبت بسرعة : « لن يكون هذا ضروريا ولو أننى فى الحقيقة ليست لدى أية فكرة عما سأأخذ فى هذا الصدد » .

ووافق الرجل على كلامى وقال : « أرجو مخلصا ألا تضطر الى ذلك ، وهذا هو السبب فى لجوئى اليك » .

— فأجبت ، وقد بدأت أتحمس طريقي : « ان صديقى ليس على ما يرام فى هذه الأيام ، فهذا التصرف ليس من طبعه ولو كنت قد تعاملت معه عندما كان بكامل صحته . . . »

فقاطعنى البروفيسور بدهشة بالغة : « نعم لقد عرفته آنذاك » .

— « عرفته ؟ » .

— « بالتأكيد .. ولقد كان شابا غاية فى الظرف السيد شرلوك الصغير » .

— « السيد شرلوك الصغير ؟ » .

— « أجل .. لقد كنت أدرس له الرياضيات » .

وحملت فيه وقد فغرت فمى من الدهشة .. وبدأ لى من التلميحات التى تتالت على وجهه انه كان يظن اننى أعلم ذلك .. فقلت له بأننى لا أعلم ورجوته أن يخبرنى .

— قال وقد زاد اضطراب نبرات صوته وضوحا : « ليس هناك الكثير مما يقال فقبل مجيئى الى لندن منذ عدة سنوات بعد تخرجى من الجامعة .. »

فقاطعته : « اسمح لى ، هل تصادف أنك كتبت رسالة عن نظرية ذات الحدين ! » .

فحملق فى وجهى وقال : « كلا بالتأكيد فلا يوجد لدى أحد ما يمكن ان يضيفه الى هذه النظرية وعلى أية حال فلست فى وضع يمكننى من معرفة ذلك » .

— « لا تؤاخذنى ، استمر من فضلك » .

— « كما سبق لى القول تخرجت فى الجامعة وقبيلت وظيفته معلم للرياضيات فى منزل الوجيه هولمز وهناك علمت السيد مايكروفت والسيد شرلوك .. » .

« أعتذر مرة أخرى عن مقاطعتك » قلتها وأنا فى غاية الدهشة • اذ لم يذكر لى شرلوك شيئاً عن اهله ابداً خلال مرحلة صداقتنا كلها « وأين كان ذلك ؟ » •

« كان ذلك بالطبع فى سوسكس مقر ضيعة العائلة » •

« هل أتت العائلة من سوسكس ؟ » •

« الواقع انها لم تكن هناك أصلاً ، بمعنى ان عشيرة هولمز انحدرت من هناك ، وبتن الوجيه : خان ابنا مايبا وبالسالى لن يرث الضيعة ابداً بحكم القانون ولذلك فقد انتمى مع عائلته ليعيش فى نورث ريدنج فى يورك شائر ، وهناك ولد السيد مايكروفت ثم مات الإخ الأكبر للوجيه : وكان أرملاً لم ينجب ومن ثم عاد والد السيد شرلوك بعائلته الى الضيعة القديمة (١) »

« آه وهناك قابلت شرلوك هولمز »

« لقد درست لكلا الولدين » قالها موريارتى بنبرة لا تخلو من فخار « ولقد كانا صبيين غاية فى الذكاء ، وكم وددت أن أستمر معهما لولا - ثم قال بعد تردد - لولا المأساة التى حدثت » •

« أية مأساة ؟ » •

نظر الى مرة أخرى باندهاش :

« ألا تعلم ؟ » •

« أعلم ، أعلم ماذا يا رجل ؟ بحق السمماء هلا أفصحت » كنت جالسا على حافة مقعدى وأنا فى غاية

(١) أن هذا التوضيح يبدو أنه يوفق بين رأيين متعارضين الأول ما قال به و.س. مارنج - جولد الذى ذكر فى تاريخه لسيرة هولمز أنه انحدر من يورك شائر وبين ما قال به تريפור هول الذى زعم حديثاً أن هولمز قد ولد ونشأ فى شرق سوسكس • كما يخبرنا بارنج جولد أيضاً بأن موريارتى قد علم هولمز الرياضيات ولكنه لم يشر الى مصدر تلك المعلومة • نيكولاس ماير •

الاستشارة فلقد كانت تلك التفاصيل جديدة على حتى اننى
نسيت هولمز ومشكلاته الخطيرة فى غمرة حماسى لاشتباع
فضولى بشأن ماضى هولمز ، لقد كانت كل كلمة يصدرها
الرجل الصغير أشد هولاً من سابقتها *

— « مادام السيد شرلوك هولمز لم يعك لك الموضوع
فلا أظن أن من حقى أن أقوله » *

— « ولكن يا رجل * * » *

لم أستطع اقناعه فقد كان رأيه أن المسألة خاصة بشرف
المهنة ولم تفلح كل محاولاتي فى اثناؤه عن رأيه ، وكلمما
ازددت الحاحا ازداد هو اصرارا وفى النهاية صم أذنيه عن
كل توسلاتى ونهض باحثا عن عصاه ، وقال متجنباً التقاء
عينى بعينه : « لقد قلت فى الحقيقة كل ما جئت لقوله —
ويجب أن تلتمس لى العذر فلا أستطيع ولن أستطيع أن أفشى
هذا الأمر * لقد قلت كل ما أقدر عليه وأترك الأمر بين
يديك لتحل هذه المعضلة » *

وانصرف وهو فى حالة من العزم والتصميم لم أتوقعها
منه * وتحول التهيب والوجل فجأة الى رغبة فى الخروج *
وانصرف البروفيسور موريارتى وتركنى أفكر فيما يجب
أن أفعله * أما فيما يتعلق بتلك الاشارات المربعة الى ماضى
هولمز الملىء بالمأسى فقد أحسست فيما بينى وبين نفسى أن ما قد
يراه البروفيسور مأساة قد يبدو فى نظرى مجرد أمر محزن
باعتبار أنه ، كما أظن ، رجل ذو طبيعة مفرطة الحساسية *
ولم يكن لدى وقت أنفقه فى التفكير فى تلك المسارات اذ كان
يجب أن أركز فيما يعاينه هولمز من انهيار وفى التهديد
المقنع الذى ألقاه موريارتى (ولو أننى لسوء الحظ كنت
أقدر ظرفه) عن لجوئه الى محاميه فهذا أمر يجب تجنبه بأى
ثمن * فقد كان هولمز ذا طبيعة سريعة الانفعال — ولقد

شاهدته مرتين ينهار قبل ذلك - ليس بسبب الكوكايين
بالطبع - ولم أتصور امدان تعريضه لتلك الخبرة مرة
اخرى (١) *

وقررت ، بعد تفكير ، ان ما يحتاجه هولمز هو العلاج
اذ يجب ايقاف هذه العادة المظيعة * ولا شك اننى احناج
فى هذا الامر الى نوع من المعونة اذ توضح لى خبرتى السابقة
اننى لم أستطع ايقاف ادمانه باستخدام قدراتى الضئيلة
ومعرفتى القليلة ، واذا صدق ظنى فان القليل الذى حاولته
قبل ذلك يبدو مستحيلا الآن * فخلال الشهور الماضية عندما
كانت اتصالاتنا ضئيلة جدا لا بد أن ذلك السلوك القهرى
المميت قد ازدادت قوته عشرة أضعاف بحيث انه أصبح الآن
أسير قبضته المرعبة أكثر مما كان عليه فى أى وقت مضى *
فاذا لم أكن قد استطعت مساعدته فى التخلص من تلك
القبضة قبل ذلك عندما كانت لا تزال ميلا وقتيا فكيف
يمكننى مجابعتها الآن بعد ما أصبحت تمسك بخناقها ؟

ونظرت الى ساعتى ولاحظت انها تعدت الثانية أى أن
الجزء الأكبر من النهار قد انقضى وسيكون من الحماسة أن
أستمر فى العيادة ذلك ان مارى زوجتى ستعود من عند مسز
فورستر فى الخامسة وكنت أنوى الذهاب الى محطة ووترلو
لاستقبالها *

ورأيت أن أستفيد من تلك الفترة بأن أمر على مستشفى
بارت لأسأل ستامفورد النصيح - ولئن أخبره بالطبع
بالحقيقة كاملة - ولكن أعرض عليه المشكلة وكأنها تخص
أحد مرضاى *

(١) يشير واطسون الى واقعتين حدث فيهما مثل هذا الانهيار الاولى فى قصة « أسباد
صعبة ريجيب » والثانية فى مغامرة « قدم الشيطان » (نيكولاس ماير) *

وكان ستامفورد - كما يتذكر القراء - يعمل مساعداً في مستشفى بارت عندما كنت ادرس في جامعه لندن عام ١٨٧٨ ، وتقدم في دراسته منذ ذلك الحين وحصل على البكالوريوس من جامعة لندن العتيقة وأصبح الآن طبيباً باطنياً في هيئة ذلك المستشفى القديم والذي - منذ سنوات بعيدة في معمله الكيميائي - عرفني ستامفورد فيه لأول مرة بشرلوك هولمز ، ولم يكن على معرفة وثيقة بهولمز وانما جمع بيننا من خلال معرفته بأن كلا منا كان يرغب في إيجاد سكن مشترك بسعر مناسب ، ولم أكن أنوى بالطبع أن أذكر هولمز اليوم اذا استطعت ذلك .

خرجت من منزلي مرة أخرى، مزوداً في تلك المرة ببعض الخبز واللحم البارد زودتني به الخادمة ولففته بالورق ودسسته في جيبي - رغم اعتراضها - كما رأيت هولمز يفعل في عدد من المرات عندما ينشغل بقضية ولا يوجد لديه وقت لتناول وجبة معتادة . وأحدث الذكرى هزة في صدري وأنا أمتطي المركبة في طريقى الى مستشفى بارت للقيام بتلك المهمة الكئيبة .

ولقد تعجب الكثير من الباحثين المعاصرين اننا - أي هولمز وأنا - كنا مؤمنين بركوب المركبات رغم ارتفاع سعرها في حين أنه كان يمكننا أن نستقل قطار الأنفاق بسعر أقل بكثير ، وما دما بصدد الكشف عن الألغاز فيمكنني القول انه رغم أن قطار الأنفاق كان أقل تكلفة من المركبات التي تجرها الجياد ورغم أنه كان أسرع بالتأكيد في بعض الأحوال الا أن الخطوط لم تكن قد اكتملت كلها وفي كثير من الحالات لم تكن لتحملنا الى حيث نرغب .

لكن السبب الحقيقي في عدم استعمالنا له حتى ولو كان يفي بالغرض - واستخدام صيغة الجمع هنا يعود على معظم السادة المحترمين الميسورين - هو أن قطار الأنفاق في ذلك الوقت

كان عميق الغور وكانت القطارات تدار بالبخار كما كانت قدرة وحطيرة تموج منها راسحه حامض الحبريسيك ولم تكن مأمونه وليست مداما م... لانسان يستطيع استخدام وسيلة أخرى للتنقل * وكان من المضطرون لاستخدامها يعانون من امراض الرئة وكنت ا... فى عيادتي ، التي تجاور قطار الأنفاق ، الكثير من العمال والبنائين والملاحظين العاملين فى تلك الشبكة الأرضية من القطارات والذين يمكن القول انهم قد دفعوا حياتهم - بالمعنى الحرفى للكلمة - حتى يتمكن سكان لندن اليوم من التمتع بأحدث نظام للمواصلات فى العالم وأرخصها وأكثرها أمنا *

وفى عام ١٨٩١ لم يكن قطار الأنفاق يربط بين شارع بيكر ومستشفى بارت ولم يكن شارع بيرك فى ذلك الوقت يبلغ من الطول ما بلغه اليوم وهكذا لم تكن المركبة نوعا من التمييز وانما ضرورة - ما لم ندخل الأتوبيس فى اعتبارنا ولكن الأتوبيسات كانت لها نواقصها أيضا - وكان مستشفى سانت بارثولوميو يعتبر واحدا من أقدم المستشفيات فى العالم وقد بنى هيكله على طراز القرن الثانى عشر وأقيم على أساس يرجع الى العصور الرومانية ، ويقال ان مهرج الملك هنرى الأول « راهير » الذى أصيب بمرض عندما كان فى طريقه الى روما للحج أقسم أنه اذا تعافى فسيبنى كنيسة كبيرة فى لندن (١) ولا أدري ان كانت هذه الرواية صحيحة الا أننى أعلم يقينا أن مستشفى بارت بدأ ككنيسة وظل كذلك الى أن ضمه هنرى الثامن الى أملاكه ثم دمر الكثير من أجزاء المبنى ، كما فعل فى أماكن كثيرة ، ولكن ذلك لم يلحق الا تغييرات طفيفة بالمستشفى * وقبل أن أبدأ دراستى فى مستشفى سانت بارثولوميو بعشرين عاما تقريبا كانت سوق سميث فيلد الكبيرة - بما تحويه من مجازر -

(١) يوجد وصف مفصلى لتاريخ هذا المستشفى فى كتاب مايكل هاريسون الممار « فى خطى شلوك هولز » ، « نيكولاس هاير » *

قرية جدا من المستشفى • وكانت رائحة الحيوانات المذبوحة تنتشر ، كما يقال ، طاغية على أى روائح أخرى لأميال حول المستشفى • الا أن السوق ومجازرها كانت قد أزيلت لحسن الحظ عندما التحقت بالمستشفى وحيثما كانت الحيوانات تصيح من الألم وتسيل دماؤها أنهارا قامت عمارات اسكانية جديدة ودكاكين وما الى ذلك ولا تزال هذه البيرة كما هى لم تتغير - حسب علمى - حيث اننى لم أتردد على المستشفى خلال الخمسة عشر عاما الماضية •

وعندما عبرت المركبة بوابة المستشفى ذى ذلك اليوم - ٢٥ أبريل - لم يتداع الى خاطرى ذلك التاريخ القديم للمبنى ولم اتوقف لأتمنئ الشكل الهندسى للمبنى الذى أضيئت او الزخارف القديمة التى قد تأخر العين أحيانا وقد تنفرها ، ونقدت السباتن أجره ودخلت مباشرة الى قسم الباثولوجيا لأبحث عن ستامفورد •

وقادنى هذا البحث الى الدخول فى متاهة من الممرات الملتوية مما اضطررنى الى السؤال عن الاتجاه عدة مرات فقد مضى وقت طويل منذ أن عبرت تلك المتاهة ، ولم تكن هناك روائح السوق القديمة وانما ملأت أنفى الرائحة التسوية لحمض الكربوليك والكحول ولم يكن هذا شيئا جديدا على فرائحة هذين التوأمين ترافقنى يوميا فى جولاتى الا أن درجة تركيزهما كانت أعلى هنا •

وعرفت أن ستامفورد كان يلقي محاضرة واضطرت الى الجلوس على مقعد فى نهاية المدرج منتظرا أن ينتهى من محاضرتة ، وكان من الصعب على فى الواقع أن أركز على ما يقول - وأتصور أنه كان يتحدث عن الدورة الدموية - لقد كنت مشتت الفكر فيما يتعلق بمهمتى ومازلت أتذكر أننى نظرت اليه وهو يقف على المنصة كما لو كان يمتلكها وتذكرت المدة الطويلة التى انقضت منذ كنا • أنا وهو • نجلس

على هذه المقاعد نستمع الى أستاذ آخر حاد الطبع يحاول ان يغرس نفس هذه الحمائق فى جماجمنا المستغصه ، وبطرت الى ستامفورد وتصورته وقد بدا يتخذ شكلا مشابها لذلك الاستاذ الذى لم اعد اذكر اسمه .

وعندما انتهى من محاضرتة نزلت الى مقدمة المدرج وناديتة وهو يقترب من باب الخروج - « يا للسماء هذا أنت يا واطسون ! » - صاح وهو يشق الطريق الى ويشد بقوة على يدي : « ما الذى أتى بك الى بارت فى هذا اليوم دون سائر الأيام ؟ . هل سمعت محاضرتى ؟ أراهن أنك لم تكن تظن أننى مازلت أتذكر كل هذا الهراء ؟ » .

وأخذ يتحدث بهذه الطريقة لعدة دقائق وتناول ذراعى وقادنى خلال المباني الجديدة فى هذا التيه الى مكتبه ، وكان مكتبا فسيحا يعتبر امتيازا للأطباء الذين هم فى نفس الوقت أعضاء فى هيئة التدريس ، وكان لستامفورد طريقة مريحة مازلت أتذكرها فيه منذ الشباب ، وصرنى أنه لا يزال يثرثر بنفس الطريقة ، لقد تقدمت به السن ولكن برشاقة ومازال يحتفظ بذلك الجو الطريف بينما قل وزنه عن ذى قبل كما كانت طريقته المهنية تليق به صحيح أنها قد تثير الضحك ولكنه كان مشغولا فى عمله لدرجة أنه لم يعد له وقت « للتظرف » كما يقول .

وتركت له فسحة من الوقت يعكى فيها كما حكيت له تفاصيل حياتى وزواجى وعيادتى وما الى ذلك وحاولت قدر الامكان الدوران حول أسئلته التى لم يكن هناك مفر منها بشأن هولمز .

- « من كان يظن قط أنه ستنشأ بينكما هذه العلاقة الوطيدة ؟ ان لديك موهبة حقيقية لسرد القصص يا واطسون ولديك براعة فى اختيار العناوين أيضا ،

والآن وقد أصبحنا وحدنا ولتن ابوح لمخلوق هل صحيح أن صديقك العزيز هولمز يقوم بالفعل بكل ما نسبته اليه في كل تلك الأقاصيص : اصدقني القول ؟! » .

وأجبت ببرود أن شرلوك هولمز في رأيي هو أفضل وأحكم الرجال الذين عرفتهم .

ووافقتني ستامفورد بسرعة : « هذا صحيح ، هذا صحيح » فقد أدرك على الفور أنه لم يكن لبقا في حديثه وتمدد في كرسيه وقال : « من كان يظن ذلك أعنى اننى كنت أعلم أن الرجل بارع ولكن لم تكن لدى أية فكرة عن ... حسنا حسنا » وبدا أنه أدرك في النهاية أننى قدمت لزيارته وفي ذهنى غرض معين فتحول اهتمامه الى وقال : « هل هناك ما أستطيع أن أفعله لك أيها الرجل العجوز ؟ » .

فقلت له ان لدى شيئا ما واستجمعت نفسى وشرحت له باختصار تاريخ حالة أحد مرضاى الذى وقع فى براثن الكوكايين مشيرا ببراعة الى الأوهام التى تصاحب المراحل المتأخرة من الادمان ، وسألته ما هى الخطوات التى يمكن اتخاذها لشفاء مثل هذا الشخص من آلامه .

ولقد أصغى ستامفورد الى ، والحق يقال ، بانتباه كامل ، وقد وضع يديه على مكتبه يدخن فى صمت وأنا أعرض عليه التفاصيل .

وعندما انتهيت قال : « هل تعنى أن المريض لا يعنى بمصادر أو أصول تلك المشاعر – أى أن هناك شخصا يسعى الى الحاق الأذى به ؟ ألا يفهم أن هذه الضلالات ناشئة عن المخدر الذى يثابر على تعاطيه ؟ » .

– « من الواضح أنه لا يدرك . أعتقد أنه قد وصل الى المرحلة – اذا كان ذلك ممكنا – التى لم يعد يدرك فيها أنه

يتعاطى الكوكايين على الاطلاق * حملق ستامفورد وسند
فوس حاجبيه فى دهنته وزفر الهواء بلا صوت من همه فـ :
« ساخون صريحا معك يا واطسون انا لا اعرف اذا كان ذلك
ممثنا ام لا فى الواقع » ونهض من مكانه واقبل على وهو يقول :
« لا يعرف الطب حى الان الا القليل عن الادمان من اى نوع
ولا ريب أنك تدرك ، اذا كنت قد تابعت التحصيل ، اننا
سنصل فى المستقبل القريب الى وضع لن نسمح فيه بتداول
الكوكايين والآفيون ما لم تصاحبه وصفة طبية » *

— « لن يفيدنى هذا بشيء » صحت بمرارة : « فالى أن يتم
ذلك سيكون مريض قد مات » وقد أدت الفكرة التى عبرت
خيالى الى ارتفاع صوتى بطريقة لفتت انتباهه * فتفرس فى
وصممت أمام نظراته الفاحصة قدر امكانى ثم عاد الى
كرسيه *

— « لا أدرى بماذا أخبرك يا واطسون، ولكن اذا استطعت
اقناع المريض بأن يضع نفسه تماما تحت اشرافك
ورعايتك * * » فقاطعته محاولا اظهار نفسى بصورة عادية
وأنا ألوح بالسيجار فى يدى : « هذا أمر مستحيل » فلوح
بيديه فى ايماءة يائسة وهو يقول : « ماذا تفعل اذن ؟ ولكن
انتظر » ونهض من مقعده مرة أخرى « شيء قد يفيدك ، أين
وضعت يه يا ترى ؟ » *

وبدأ يفتش مكتبه مزيجا أكواما من الأوراق ومثيرا
الكثير من الغبار مما ذكرنى والألم يمزق صدرى بملفات
هولمز المتناثرة فى شارع ييكر عندما كان البحث عن أحد
المراجع أو مراجعة أحد الملفات القديمة يثير من الأتربة
ما يدفعنا الى السعال والخروج من المسكن الى الشارع ساعة
أو بعض ساعة حتى يهدأ *

— « ها هي » صاح وفي صوته رنة انتصار وانتصب واقفا وهو يمسك بيديه نسخة من مجلة « لانسيت » وصاح وهو يناولها لي ملتقطا انفاسه : « هذا هو عدد شهر مارس هل رأيته ؟ » .

ناخبرنه اننى لم اره اذ ان عملى فى العيادة لا يسمح لى الوصف الدقيق ونسى اصن ان هذا العدد موجود لدى سى المرس .

— « حسنا ، خذ هذا العدد معك على أية حال فقد لا تسدش المكان الذى وضعت فيه نسختك » يبدو انه يوجد سبب فى فيينا على ما اعتقد ، وعلى اى الأحوال ، لم يكن لدى وقت لقراءة الموضوع بكامله ، ولكن يبدو لى أن هذا الطبيب يقوم بعلاج ادمان الحوكايين بشكل او باخر ، لا أستطيع تدش اسمه الا أنه موجود فى المجلة وربما كان لديه ما ينفعل ، آسف يا صديقى العزيز ، أخشى أن هذا هو أفضل ما أستطيع أن أقدمه » .

وشكرته بشدة وافترقنا على وعد باللقاء لتناول المشاء سويا فى القريب العاجل وأن نعرف زوجاتنا ببعضهن . الخ والحق انه لم يكن لدى اى منا النية فى تحقيق مثل هذه الوعود المسرفة ، وكان قلبى مثقلا وأنا فى طريقى الى محطة ووترلو ، ولم يكن لدى اعتقاد كبير ، شأنى شأن استامفورد ، فى أن ذلك المقال فى مجلة « ذى لانسيت » قد يستطيع انقاذ صديقى وانتشاله من الهوة العميقة التى سقط فيها ، ولم يدرك بخلدى وأنا فى طريقى لملاقاة زوجتى ، أنه فى المرة الثانية خلال عشر سنوات سيحقق ستامفورد — ذلك الشخص النادر المثال — لى ولهولمز ما نتمناه .

الفصل الثالث

الوصول الى قرار

« يا عزيزى جاك ، ما الأمر ؟ »

كانت هذه هي أولى الكلمات التى فاهت بها زوجتي وأنا أساعدها على النزول من القطار فى محطة ووترلو ، لقد كان بيننا رباط عظيم ظهر لأول مرة فى تلك الليلة التى تقابلنا فيها منذ ثلاث سنوات (١) .

لقد جمعتنا سويا ظروف من الناس والأحداث المتشابكة شملت مجرمين وهاربين من العدالة ، وسكان جزر الاندمان وضباط جيش منهكون ومتقاعدون ، وكنز «اجرا» الاسطوري والعصيان الاكبر . لقد وقفنا سويا فى الظلام فى تلك الليلة الفظيعة فى الدور الأرضى من « بوند شيرى لودج » بينما صعد هولمز ومديرة المنزل الى الطابق العلوى مع تاديوس شولتو وهناك اكتشف جثة أخيه التعس بارثولوميو . فى ذلك الموقف المرعب ودون كلمة واحدة . بل ودون أن يعرف أحدنا الآخر على الاطلاق - امتدت يدانا بشكل غريزى لتلتقيا وتتشبثا ببعضهما فى الظلام . وكطفلين خائفين سعينا فى نفس الوقت لمواساة بعضنا البعض ، لقد نشأ التعاطف بيننا بسرعة البرق .

(١) دار بين الباحثين جدل كبير فيما يتعلق بزواج واطسون أو زيجاته المتعددة ودون الدخول فى مسألة عدد المرات التى تزوج فيها ومن هن فان هذه الفقرة ، والتى تليها ، تبين بوضوح تام أن المرأة التى يشير اليها هى ماري مورستان زبونة هولمز فى قضية « علامة الاربعة » وهى الانثى الوحيدة التى يقرر واطسون بما لا يدع مجالا للشك انه تزوج منها . « نيكولاس ماير » .

وقد استمر هذا الفهم والتعاطف الحى بيننا حتى يوم
والتاريخ ، كان هذا التعاطف واضحا عندما نزلت من
القطار تلك الليلة فى شهر ابريل . ورمقننى بسلق وحررت
السؤال : « ما الامر ؟ » .

— « لا شىء ، تعال سأخبرك عندما نصل الى المنزل ، هل
هذا كل متاعك ؟ » .

وهكذا حولت انتباهها ونحن نشق طريقنا خلال المحطة
الى مدحمة ندور ونلف بين الحقائق والبشر وضيحات الجمالين
والآباء الذين يحاولون الامساك بأطفالهم ، وتمكننا بطريقة
او بأخرى من عبور الضجة والصخب والتقطنا موكبة وعندما
الجمال أجره — بعد أن حزم المتاع على ظهر العربة — ودلفنا
اليها تاركين خلفنا ذلك البحر الدائم من الصخب والضجيج
والفوضى . . . ووترلو .

وما أن اتخذنا طريقنا حتى بدأت زوجتى فى معاودة
أسئلتها ولكنى قاومت وأخذت أثرى فى غير اهتمام وقد
رسمت على وجهى علامات المرح والابتهاج بعزم وتصميم ،
وسألتها عما تمتعت به فى رحلتها وزيارة مخدومها السابق
فقد كانت تعمل مربية فى منزل مسز فورستر عندما ساقننى
حظى الحسن لأتعرف عليها .

وتحيرت لأول وهلة من عنادى ولكن لما رأت أنه لا فائدة
استجابت لرغبتى وحكت لى قصة اقامتها فى المنزل الريفى
لآل فورستر فى هاستينجز وعن الأطفال الذين كانت ترعاهم
وأنهم كبروا الآن بحيث لم يعودوا فى حاجة الى مربية .

— « أو هكذا يتوهمون » قالتها زوجتى وهى تضحك .
وأعتقد أننى لم أحبها قط بمثل هذا القدر من الحب الذى
أحسست به خلال ركوبنا تلك العربة ، لقد أدركت (زوجتى)
أننى قلق بشأن ما ، ولكن لما رأت أننى لم أكن أرغب فى
الحديث عنه ، التقطت خيط الحديث وتسامرنا بكل مودة

حتى تمكنت من السيطرة على أعصابى ومواجهة عذاب
الافصاح ، لقد كانت امرأة رائعة ومازلت أفتقدها حتى
يومنا هذا *

كان العشاء فى انتظارنا عند وصولنا وتناولناه ونحن
على نفس الحال من الحديث الخفيف كل منا يحاول أن يتمتع
الآخر بالحديث اللطيف والوقائع التى حدثت خلال فترة
الفراق ، وما أن أوشكنا على الانتهاء من الطعام حتى أحست
بتغير مزاجى *

— « والآن يا جاك لقد حاورتنى وداورتنى بما فيه
الكفاية ويستحيل أن تكون مهتما بمزيد من التفاصيل عن
هؤلاء الأطفال ، قم بنا الى غرفة الجلوس » *

ونهضت ومدت يدها الى فأمسكت بها : « ان نار المدفأة
فى انتظارنا وسوف نجلس فى راحة واسترخام نتناول كأسا
من البراندى والصودا اذا أردت وتدخن غليونك ثم تخبرنى
بالحكاية » *

ونفذت تعليمات زوجتى بخضوع كالطفل غير انى لم
اضف أى صودا الى كأس البراندى ، فقد كانت زوجتى
شديدة التأثر ، فى الايام الأولى لتعارفنا ، بصورة الجنرال
جوردون الموجودة لدى ، ولا أدرى من أين أتت بتلك المعلومة
عن الجنرال جوردون أنه كان يفضل البراندى بالصودا على
كل المشروبات — ربما لأنها تنحدر من أصل عسكرى — كما
كونت فكرة مبالغا فيها عن تعلقى بالجيش ، ربما بسبب
الجرح الذى أصبت به فى العمليات فى أفغانستان وكانت
على الدوام تحاول أن تغرس فى ميل الجنرال جوردون الى
ذلك المشروب وعيشا حاولت أن أفهمها أننى ورثت صورة
الجنرال بعد وفاة أخى الأكبر ، كما حاولت عشا أن أخبرها
بأن الجنرال لم يقدر قط فرقة نورثمبر لاند الخامسة
للبنادق * لقد كانت تقدره الى درجة العبادة وذلك بسبب

عمله المجيد فى انهاء تجارة الرقيق فى الصين ولذلك فلم
تفقد الأمل قط فى أن ترانى يوما ما وقد انحزت الى مشروب
بطلها المفضل ، الا أنها اليوم لم تعبس عندما أدركت اننى
— كمادتى — قد استبعدت الصودا من كأسى *

وحتتنى قائلة : « والآن يا جاك » واستقرت فى رشافة
وجمال على حشوية من ذيل الخيل مقابلة للمقعد الذى جلس
فيه — نفس المقعد الذى نام عليه هولز فى الليلة الماضية —
كانت لا تزال فى ملابس السفر ، رداء من التويد الرمادى
تحيط به الدنتيلا عند المعصم والرقبة — وكانت قد خلعت
قبعتها قبل تناول العشاء *

وتناولت رشفة من البراندى وأشعلت غليونى فى ثورة
ثم قصصت عليها المأساة كلها *

— « يا لمستر هولز المسكين ! » صاحت فى النهاية وهى
تغصن يديها منفخة والدموع تترقق فى مآقيها * « ماذا
سنفعل ؟ ، هل هناك ما نستطيع أن نفعله ؟ » وأثلج صدرى
ما رأيته من رغبتها واستعدادها لمد يد العون ، لم يخطر
ببالها أن تستبعد المشكلة وتتجنب صديقى والمرض الخبيث
الذى انتابه وشوه طبيعته الحقيقية * وأجبتها ناهضا على
قدمى : « أظن أن هناك اجراء يمكن اتخاذه ولكنه لن يكون
سهلا ، لقد مضى هولز بعيدا بحيث انه لن يقبل المساعدة عن
طيب خاطر وأظن أنه مازال من البراعة بحيث لن يمكننا
خداعه ليقوم بذلك » *

— « وماذا بعد » *

— « لحظة يا عزيزتى سأحضر شيئا من الردهة » *

وغادرتها للحظة وأحضرت نسخة مجلة « دى لانسيت »
التي أعطاهما ستامفورد لى ، وتساءلت فيما بينى وبين نفسى

وأنا أعود الى غرفة الجلوس ما اذا كانت مارى سنقبل مساعدتى ، اذا لزم الامر ، فى تنفيذ خططى ، لقد كانت فتاة ذات شخصية مستقلة شقت طريقها فى الحياة بنفسها ، ولقد تخمرت الخطة فى ذهنى شيئاً فشيئاً وأنا جالس على المقعد فى محطة ووترلو أنتظر وصول قطارها وأنا أقرأ ما كتب عن هذا المتخصص النمساوى •

رجعت الى غرفة الجلوس وأغلقت الباب وأخبرت زوجتى بنتائج مقابلتى مع ستامفورد •

— « هل قرأت المقال ؟ »

— « نعم ، قرأته مرتين وأنا فى انتظار قطارك » •

وعدت الى الجلوس على مقعدى وتصفح عدد « دى لانست » باحثاً عن المقال •

— « أه ، ها هو ، لقد قام هذا الطبيب بدراسة متعمقة للكوكايين ويقول انه توصل أولاً الى نتيجة خاطئة • كما يعترف ، وهى أن قوة هذا العقار مدهشة للغاية وفى استطاعته شفاء أى مرض بل والقضاء على إدمان الكحول • الا أنه بعد ذلك اكتشف لعنته الفظيعة ألا وهى الادمان عندما قضى صديق عزيز له نحبه نتيجة لذلك » •

— « قضى نحبه ! » •

قالتها بصوت مكتوم معبراً عن شعورها رغماً عنها • ونظر كل منا الى الآخر وقد انتابنا الفزع من تصور امكانية موت هولز بهذه الطريقة البشعة ، لقد كان للرجل فى عنق زوجتى مثلما فى عنقى من فضل اذ عن طريقه تقابلنا • وبلغت ريقى وواصلت الحديث :

— « وعلى أية حال فانه بعد وفاة صديقه هذا — التى حدثت فى بداية هذا العام — غير هذا الطبيب تأييده للكوكايين

وحول طاقاته الى شفاء هؤلاء التعساء الذين وقعوا فى براثن هذا المخدر وهو يعلم عن هذا العقار أكثر مما يعلمه أى شخص آخر فى أوروبا » •

وتبادلنا النظرات مرة أخرى •

سألتنى : « هل ستراسله ؟ » •

هزرت رأسى وقلت : « لا يوجد وقت لقد مضى هولمز فى طريق الدمار بسرعة لا تسمح لنا بأن نضيع ساعة واحدة ، أن بنيانه قوى ولكنه لن يستطيع مقاومة التلف الناشئ عن ذلك السم الذى يتناوله ، وما لم نساعد فوراً فان جسمه سينهار قبل أن تتاح لنا أية فرصة لاصلاح عقله ، انى اقترح أن ننقله الى القارة وأن نضعه فى رعاية ذلك الطبيب ولن أدخر وسعاً فى التضحية بالوقت والجهد فى تقديم ما أستطيع » •

جلست زوجتى صامتة لمدة دقائق وقد استغرقت فى التفكير وعندما التفتت الى مرة أخرى ظهر الجانب العملى فى طبيعتها من خلال الأسئلة النفاذة التى انهالت بها على :

– « واذا افترضنا أن هذا الطبيب لن يستطيع شيئاً فماذا بعد ؟ » •

هزرت كتفى : « انه الشخص الوحيد فى أوروبا الذى يبدو أنه يعلم شيئاً عن الموضوع وليس أماننا الا المحاولة ؟ » •

هزت رأسها :

– « ولكن ماذا عن الطبيب ؟ هل سيوافق على رؤية هولمز ؟ ربما كان مشغولاً جداً • • أو ربما كانت تكاليفه فوق الاستطاعة » •

— « سأتمكن من الاجابة على هذا السؤال بدقه عندما
استلم الرد على برقيتى » *

— « هل أرسلت برقية ؟ » *

كنت قد أرسلت برقية من محطة ووترلو بعد شراءه
المقال ، وكنت فى هذا اقتفى خطى هولز الذى كان يفض
البرقيات دوما على كافة اشكال الاتصال ، وانقبض قلبى وأنا
أتذكر أنه كان فى هذه اللحظة يوجه برقيات الى موريارتى
المسكين ، وعلى أية حال لم يكن يخدم غرضى فى تلك اللحظة
الا البرقيات وحتى ولو كانت خطوط التليفون عبر البحار
متوفرة فى عام ١٨٩١ فلم أكن لأستعملها لقد أصابنى هولز
بعدوى رفض التليفونات اذ كان يقول ان استخدام البرقية
يجبر المرء على الاختصار وبالتالى على أن يكون منطقيا
والرسائل تتطلب ردا وليس ثرثرة لا معنى لها ، وعلى أية
حال لم أكن أريد ردا طويلا مفصلا وانما مجرد نعم أم لا *

واضطجعت زوجتى الى الخلف وقد بدا عليها الانزعاج
وقالت وهى تنهد : « ولكننا لم نضع فى اعتبارنا موقف هولز
نفسه ، لقد اعترفت أنه لن يمكن خداعه حتى يطلب العون ،
فاذا افترضنا أن ذلك الطبيب قد قبله كمريض فكيف سنحمله
على الذهاب اليه ؟ وقد أدركت مما سبق أن ذكرته أنه الآن
فى قمة الحذر والاحتياط » *

— « هذا صحيح ، لن يكون من السهل أن نأخذ هولز
خارج البلاد ، يجب أن نجعله يشعر بأن ذهابه نابع من
ارادته » *

— « وكيف سننجز ذلك ؟ » *

— « يجب أن نجعله يعتقد أنه يقتفى أثر البروفيسور
موريارتى وأن ندير الأمر بحيث يبدو كذلك » *

نظرت اليها بعين ثابتة - وقلت : « أبحل يجب أن نختلق
أثرا زائفا يؤدي بهولمز الى فيينا » *

واحتجت برد فعل عفوى : « سيكتشف خطتك ، فلا أحد
يعرف فك الطلاس مثل هولمز » *

— « هذا صحيح ونحن لا احد يعرف هولمز متلما اعرفه ،
سأستخدم كل خيلة اعرفها لأجذب انتباهه واجعله يقتفى أثر
الرائحة ، فالدهاء ، ليس حرفتى وانما حرفته هو ولستوف
أستعيرها مؤقتا - سأضع نفسى فى مكانه وسأفكر مثله .
سأرجع الى مذكراتى عن القضايا السابقة التى عملنا فيها
سويا ، وستساعدننى بالطبع » ؛ وتابعت حديثى بشجاعة
« وسوف نجعله يقوم بما نريد اذا لزم الأمر ولن أبخل بأى
مال » *

وانثنت زوجتى نحوى ووضعت كفيها حول وجهى
ونظرت الى متطلعة فى عيني بحب واعجاب :

— « وستفعل ذلك كله . . من أجله ؟ » *

وأجبتها : « سأكون أتعس الناس على الأرض ان لم أفعل
ذلك لقد فعل من أجل الشئ الكثير » *

— فقالت فى بساطة : « سأقف بجوارك » *

« شئ جميل » وأمسكت بيدها وأنا فى غاية الانفعال
« علمت دوما أننى أستطيع الاعتماد عليك ولكن يجب أن
نطمئن الى تعاون ذلك الطبيب معنا » *

الا أن هذه العقبة ذلت فى التو واللحظة فقد سمعنا
طرقا على الباب وسرعان ما دخلت علينا الخادمة تحمل فى

يدها برقية وفتحت المظروف بأيدي مرتعشة وقرأت رسالة موجزة مكتوبة بلغة انجليزية متعشرة بما معناه أن الطبيب يقدم خدماته الى المخبر السرى الانجليزى العظيم بلا مقابل وأنه ينتظر الرد . وأسرعت بكتابة رد موجز أرسلته مع الفتاة ، وبقي الآن كيف نحمل شرلوك هولمز على الذهاب الى فيينا ؟ .

الفصل الرابع

مقابلة في « بال مال »

كان من السهل على أن أقول أنني سأتمثل عقلية شرلوك هولمز ولكن عند التنفيذ كان الأمر جد مختلف *

لقد أشعلت البرقية حماسنا واقتربنا بمقعدينا من بعضنا البعض وبدانا في وضع الخطط لصناعة ذلك الاثر الزائف وبين الحين والآخر كنت أتناول ملفات القضايا القديمة من على الرفوف *

ولسوء الحظ ظهر أن المسألة اصعب بكثير مما تصورت * لقد أنعم على الكثيرون ممن درسوا كتاباتي بأوصاف تنعت الكاتب - أي أنا - بأنه بطيء وبليد وغرير يفتقر الى الخيال بل وما هو أسوأ من ذلك * ولن أدفع تلك الاتهامات عن نفسي ، صحيح أنني قد استخدمت الأسلوب الأدبي في سرد بعض مغامراتي مع هولمز وبالتالي أخطأت أحيانا في اظهار نفسي شديد الغباء بالمقارنة اليه ، الا أنني قد أضفت بعض المبالغات لا من أجل تضخيم قدرات صديقي في عين القارئ وإنما لأن مصاحبته تجعل المرء في كثير من الأحيان يحس بالغباء سواء أكان المرء متوسط الذكاء - وهذا ما أعتقده في نفسي - أم دون ذلك *

ولكن عندما يحاول عقل عادي تسانده كافة النيات الحسنة في هذا العالم أن يخدع عقلا أرقى منه سيتضح على الفور أين تقع المشكلة ، ولقد وضعنا في تلك الليلة أكثر

من «دسته» من الآثار الزائفة ولكن كان لكل واحد منها نقطة ضعف ، خطأ فى التركيب المنطقى ، أو ضعف فى النوعية اعلم أنه سيلفت نظر هولمز ، وقامت زوجتى بدور « الشريك المخالف » مما أدى بها الى أن تكتشف فى عدة محاولات الخطأ فيما بدا لي أنه خطة محكمة .

ولم أدر كم مكثت أمام المدفأة أقدح زناد فكرى منكبا على مذكراتى ، وبدا الأمر فى نظرى أطول بكثير مما حددته الساعة الموضوعه فوق رف المكتبة .

وصاحت زوجتى فجأة : « جاك ! اننا نتناول هذه المسألة بشكل خاطيء تماما » .

— « ماذا تعنين ؟ » سألتها وأنا ممتعض نوعا ما لأننى كنت أبذل قصارى جهدى وغازطنى أن أسمع من زوجتى نفسها أن جهودى فى سبيل صديقى كانت « خاطئة تماما » .

— ردت بسرعة وقد لاحظت اندفاع الدم الى وجهى : « لا تغضب لقد قصدت أننا اذا كنا نريد شخصا يتفوق على مستر هولمز فلا بد أن يكون شقيقه » .

— « كيف غابت عن بالى هذه الفكرة ؟ » ومليت نحو زوجتى مندفعاً وقبلتها على وجنتها . وصحبت وأنا أنهض من مكانى : « أنت على صواب ، ان مايكروفت هو الشخص الوحيد الذى يمكنه وضع الطعم فى مصيدتنا ، بل ان هولمز نفسه قد اعترف بأن مايكروفت يتفوق عليه عقلياً » واندفعت نحو الباب مسرعا .

— فقالت : « هل ستذهب اليه الآن . لقد قاربت الساعة العاشرة ، جاك ، لقد فعلت ما يكفى ليوم واحد » .

— اجبتها وانا ارتدى سترتى : « قلت لك انه لا يوجد روف لنضيجه وفضلا عن ذلك اذا تمكنا من الوصول الى سادى ديوجين قبل الحادية عشرة فلاحتمال الأكبر أن آجد مايكروفت هناك. ولا داعى لأن تسهرى فى انتظارى » وقبلت وجنتها مرة أخرى وانطلقت *

فى الخارج ، استوففت مركبه واخبرت السائق ان يذهب الى سادى ديوجين حيث يوجد مايكروفت عادة واتت على اريجه منصتا الى دقات حوافر الفرس على الأحجار وهو يسبق بى عبر الشوارع المضاعة بالفاز وحاولت أن ابقى مستيقظا رغم اننى كنت فى الحقيقة قد بلغ بى الانهاك مداه * ومع ذلك فلقد رايت من هولمز عندما كان ينشغل بقضية ، القدرة على بذل الجهد الذى يفوق الطاقة البشرية فاذا لم اكن قادرا على تقليد ذكائه فلا أقل من أن أمثله فى قدرته على الاحتمال *

لم أكن أعرف مايكروفت هولمز جيدا * والحقيقة أننى قابلته مرة او مرتين قبل ثلاث سنوات عندما تقاطعت مساراتنا خلال الحالة التمسعة « للمترجم اليونانى » الواقع أننى عشت مع هولمز سبع سنوات قبل أن يذكر لى ان له أخا : ولقد أذهلنى هذا الكشف كما لو كنت قد علمت أن الأرض مسطحة وزادت دهشتى عندما قال هولمز ان قدرات أخيه العقلية تفوق قدراته هو بكثير * قلت عندئذ : « اذن هو بالتأكيد مخبر سرى أعظم ، واذا كان الأمر كذلك كيف لم أسمع قط عنه ؟ » لأنه بدا لى من المستحيل أن يوجد عقل آخر مثل عقل هولمز فى انجلترا دون أن يلاحظ ذلك أحد *

— أجاب هولمز ببساطة : « ان مايكروفت متواضع لا يحب الحديث عن نفسه كما أنه كسول جدا » ولما رأى أننى لم أفهم قال : « أى أنه سيرغب تماما فى حل لغز اذا لم يتضمن ذلك قيامه من مقعده ، ولسوء الحظ فان الأمر يتطلب ماهو

أكثر من ذلك» أضاف ضاحكا : « أن مايكروفت يكره أى جهد بدنى كراهية التحريم » *

أخبرنى عندئذ أن أخاه ينفق معظم وقته فى نادى ديوجين المقابل لمسكنه فى « بال مال » ، وكانت العضوية فيه قاصرة على من لا يطبقون النوادى فكان يضم أكثر الناس كراهية للاجتماعات فى لندن ولم يكن مسموحا لأى عضو بأية حال من الأحوال أن يهتم بأى عضو آخر أو يلتفت إليه ، الا فى « قاعة الغرباء » كما أن الكلام كان ممنوعا منعا باتا *

وكننت قد غفوت قليلا عندما فتح سائق العربى الغطاء ودون أن ينظر الى أعلن بطريقة متعالية أننا قد وصلنا الى مبتغانا *

عبرت الشارع بسرعة الى مدخل النادى وأعطيت للخادم المختص بنقل الرسائل بطاقتى ورجوته أن يبعث بمسטר مايكروفت هولمز الى فى قاعة الغرباء ، وانحنى لى بعظمة واستدار لينفذ ما طلبته منه وجعلتنى لمحّة سريعة من عينيه شبه المغلقتين فى ترفع أن أفهم أنه يعتبر مظهرى غير ملائم فقممت بمحاولة يائسة لشد ياقاتى ومررت بيدي على شعر ذقتى ولحسن الحظ لم تكن بى حاجة لرفع قبعتى وتمشيط شعرى فرغم أن عادة ارتداء القبعة كانت فى طريقها الى الزوال فإن الرجال - خاصة فى الأندية - كثيرا ما كانوا يتركون قبعاتهم على رؤوسهم داخل المكان *

وبعد حوالى خمس دقائق عاد الخادم الى وهو يسير هونا وبحركة رشيقة من يده المنطاة بالقفاز قادننى الى قاعة الغرباء حيث وجدت مايكروفت هولمز *

- « الدكتور واطسون ! لم أكن متأكدا أننى سأتعرف عليك » وأقبل على يتمايل كالبطة واحتوى يدى بين أصابعه

البضعة وأعتقد أنني ذكرت فيما سبق أنه على عكس قامته شرلوك الرشيق كان أخوه ممتلئاً الى حد السمينة ، ولم تغير السنون من استدارة بطنه • أما هو فقد تفرس في بعينين مستديرتين غائرتين في طيات من الشحم •

واستمر في حديثه : « يبدو أن لديك شيئاً عاجلاً يخص أخى ، لقد كنت طوال النهار تتنقل بشأنه - مستخدماً المربيات كما أرى - كما أنك قد توقفت قليلاً في محطة ووترلو لتأخذ شيئاً أو على وجه الدقة لتقابل شخصاً ، أنك مجهد جداً » •

وأشار الى مقعد وقال : « أرجوك أخبرني بما حدث لأخى » •

وسأله وأنا أستلقى على المقعد بدهشة : « كيف علمت

ان شيئاً قد حدث له ؟ » لقد كان شقيقاً لهولمز بالتأكيد •
وأشاح مايكروفت بيده الضخمة وقال : « لم أرك خلال السنوات الثلاث الأخيرة وعندما رأيته كنت في صحة شرلوك الذى أعلم أنك تدون أخباره • وفجأة تزورنى فى وقت المفروض أن يكون فيه معظم المتزوجين فى منازلهم مع زوجاتهم ، وتصل دون رفيقك ، ومن السهولة بمكان افترض أن شيئاً قد حدث له وأنت أتيت الى للمساعدة أو النصيحة ، ومن رؤيتى لذقنك أرى أنك كنت خارج البيت طوال النهار ولم تتح لك فرصة أن تحاق ذقنك مرة أخرى كما يبدو من هيئة لحييتك ، كما أنك لا تحمل حقيبتك الطبية رغم أنني أرى من بطاقتك أنك تمارس المهنة وهكذا استنتجت أن مهمتك العسيرة مرتبطة بزيارتك لى هذا المساء وبين لى تاريخ تذكرة الرصيف البارز من جيب سترتك أنك كنت فى محطة ووترلو اليوم ، وإذا كنت قد ذهبت هناك لتتسلم طرداً فلم يكن بك حاجة بالطبع أن

تذهب الى أبعد من مستودع الأمتعة والتي لا تتطلب تذكرة
 رصيف وبالتالي فقد كنت هناك لتقابل شخصا ما ، اما
 بالنسبة للمركبات التي كنت تستقلها طوال اليوم فان حالة
 لحيتك وتعبير الارهاق على وجهك يبينان أنك لم تذهب الى
 منزلك ومع ذلك فان سترتك جافة وحذائك نظيف رغم
 رداءة الجو ، فأية وسيلة مواصلات أخرى تحافظ على هيئتك
 الا تلك الوسيلة التي يلقيها مستر دزرائيلي (رئيس وزراء
 انجلترا في ذلك الوقت - المترجم) جندولا لندن ، وهكذا
 ترى أن المسألة بسيطة تماما « أخبرني الآن عما حدث ؟ »
 واقترب بمقعده ليوأجهنى معطيا لى الفرصة لأهضم دهشتى .
 وابتسم بعطف وقدم لى شرابا ولكنى هزرت رأسى رافضا .

سأله :

— « هل كنت على اتصال بأخيك أخيرا ؟ » .

— « لم نتصل منذ أكثر من عام » .

ولم يبد هذا غريبا لى ولو أن معظم الناس قد يظنون
 أنه من الشاذ أن يظل شقيقان يعيشان فى نفس المدينة
 ولا يوجد بينهما أى شقاق يظلان على مبعدة من بعضهما
 البعض بهذا الشكل الا أن الأخوين هولز كانا الاستثناء
 الذى يؤيد القاعدة كما أعلم جيدا .

وحذرت مايكروفت هولز من أن أخبارى ليست سارة
 وأخبرته بحالة أخيه وكيف أقترح معالجتها ، وأنصت الى
 فى صمت كئيب ورأسه تميل الى الأمام شيئا فشيئا وعندما
 انتهيت كان الصمت الذى تلا طويلا لدرجة أننى اعتقدت
 للحظة أن النعاس قد غلبه ، وندت عنه آهة عميقة مالت بى
 الى الاعتقاد أنه قد نام ولكن ، تلاها ارتفاع رأسه تدريجيا
 حتى أصبحت عيناه فى مواجهة عينى ولمحت فى ناظرية
 ألما شديدا .

ونطق أخيرا بصوت أجش : « موريارتى ؟ » *

هزرت رأسى وهمهم : « هكذا ، هكذا » ثم استغرق مرة أخرى فى صمت وهو يحملق فى أطراف أصابعه وبعد فترة طويلة صدرت عنه اهة أخرى ونهض على أثرها وانطلق يتحدث بحيوية وحماس ، كما لو كان يحاول دفع حالة الاكتئاب التى انتابتة من جراء أخبارى ، ووافقنى قائلا : « ان دفعه الى الذهاب الى فيينا لن يكون سهلا - وتحرك نحو الباب وجذب حبل الجرس - ولكنه لن يكون مستحيلا ولكى نفعل ذلك يجب أن نوحى اليه بأن موريارتى هناك يقبع فى انتظاره » *

- « هذه هى بالطبع المهمة التى لا أدري كيف ننجزها » -

- « حسنا ان أبسط الجلول هو اقناع البروفيسور موريارتى بالذهاب الى فيينا استدع لنا مركبة من فضيلك يا جينكينز »

وجه مايكروفت هولمز كلامه للخادم من خلف ظهرى وكان قد حضر استجابة لدق الجرس *

ظل مايكروفت صامتا خلال رحلتنا الليلية الى رقم ١١٤ شارع مونرو (وهو العنوان المسجل فى بطاقة البروفيسور) ، فيما عدا سؤاله عن الاختصاصى النمساوى وعمى يكون ، وشرحت له بالتفصيل مقالة « ذى لانست » لم يرد سوى بهمة وكان تعليقه الوحيد * * « يبدو أنه يهودى » *

لقد كسبت حليفا قويا ، فها هو مايكروفت - او عقل مايكروفت - ينضم الى فى تلك المعركة وأدى هذا الى رفع روحى المعنوية كثيرا ، وكنت على وشك السؤال عن البروفيسور موريارتى والمأساة التى أشار اليها ولكن حبست لسانى ، فقد كان من الواضح أن مايكروفت مشغول البال بالمصيبة التى حلت بأخيه ، وكان هناك شىء فى طبعهما يحول

بين المرء وبين الاقتراب الحميم ، حتى ولو كان صديقا ، ولم
الذن بالتأكد على علاقة حميمة بمايكروفت *

وتحولت الى التفكير فى مسألة كيف يمكن ان نغرى
البروفيسور موريارتى بيوافق على طلبنا الغريب ، ولن
نستطيع بالتأكد ان نغرى هذا المعلم الخانع ان يتخلى عن
وظيفته ويسافر الى القارة الأوروبية فى التو ، بالتأكد
سوف يتأبى متحرجا والأسوأ من ذلك قد يبكى ، وتحولت
الى رفيقى أريد تبادل هذه الأفكار المتشائمة معه ، ولكنه كان
يشرئب بعنقه خارج النافذة *

— « توقف هنا أيها الحوذى » مع أننا كنا لا نزال على
مسافة بعيدة بعض الشيء من غايتنا *

ووضح لى مايكروفت الامر وهو يدفع جسمه خارجا
من المركبة : « اذا لم يكن البروفيسور قد بالغ فيما قاله لنا ،
فيجب أن نأخذ حذرنا .. من الضروري أن نتحدث معه
ولكن ماذا لو انكشف أمر هذه الزيارة لشرلوك ونجده فى
هذه الليلة بالذات واقفا يترصد المنزل ؟ » *

— وهزرت رأسى موافقا وأخبرت السائق أن ينتظرنا
فى نفس المكان مهما طال الوقت ، ودسست شلنا فى يده
لأؤكد من أنه سينفذ الأمر ووعدته بشلن آخر عندما نعود،
وانطلقنا أنا ومايكروفت بهدوء عبر الشوارع الخالية الى
مسكن البروفيسور *

كان شارع مونرو يقع فى ضاحية غير متميزة وتتكون
من مساكن ذات طابقين واجهاتها مزينة بالجص ، وحدائق
صغيرة لم تنلها يد التشذيب وقرب نهاية الشارع رأيت
دخانا أبيض يتصاعد فى ظلام الليل وأطبقت ييذى على
كم سترة زميلى فألقى ببصره الى الناحية التى أشرت اليها
وهز رأسه ، وتسلسلنا سويا الى ظلال أقرب مسكن لنا *

هناك وتحت المصباح الوحيد فى الشارع كان شرلوك
هولمز واقفا يدخل الغليون *

وسرنا على حذر ملتصقين بالجدران وانكمشنا في موقعنا اذ أدركنا بسرعة أن الموقف كان صعبا للغاية ، فطالما ظل هولمز مزروعا أمام مدخل منزل البروفيسور فليس أمامنا أمل فى الوصول اليه دون أن يلحظنا الا اذا شتتنا انتباهه ، أما كيف يتم التشيت فلم تكن لدى أى متا أية فكرة • وتبادلنا المشورة بصوت هامس ، فناقشنا احتمال التراجع الى الشارع الواقع خلف المنزل والدخول من الباب الخلفى ، ولكن ظهرت عدة عقبات تحول دون تحقيق هذه المخادعة ، فسوف يكون هناك بالتأكيد سياج يجب تسلكه ولم يكن مايكروفت ، كما هو واضح ، قادرا على مثل هذه الألاعيب التى قد أقدر أنا عليها • وحتى لو تخطينا تلك العقبة وتمكنا أيضا من أن نحدد المنزل بدقة فى الظلام فستظل هناك عقبة الباب الخلفى المنلق وما سيتلو فتحه من ضجيج لا شك سيجذب انتباه هولمز •

وعلى حين غرة انحلت المشكلة اذ عندما ألقيت ببصرى على صديقنا الواقف تحت الضوء الأصفر للمصباح رأيت أنه ينفض رماد خليونه بكعب حدائه ويسير متهاديا الى الطرف الآخر من الطريق •

وهمست بصوت خافت : « انه يرحل » •

وتمتم مايكروفت : « فلنأمل أنه لا ينوى العودة مرة أخرى ليتابع رقايته » ونهض وهو يلتقط أنفاسه محاولا أن ينفض التراب عن ركبتيه الا أن « كرشه » لم يسمح ليديه أن تصلا اليهما : « فلنسرع » قالها وقد تخطى عن المحاولة « يجب أن ننجز مهمتنا دون أدنى تأخير » •

واندفع فى طريق المنزل بينما وقفت ساكنا أراقب الشبح البعيد لصديقى وهو يبتعد فى الظلام وبدأ لى أن ظهره - ذلك الظهر المستقيم الضيق - الذى جثمت عليه قبمته الشهيرة بدا لى ذلك الظهر وحيدا مستوحشا •

« أسرع يا واطسون ! » وتبعته • وكان ايقاظ أهل المنزل أسهل مما توقعنا ، اذ كان البروفيسور موريارتى متيقظا بينما جفا النوم عينيه لعلمه — ولم تكن المرة الأولى — أن هولز يقف خلف نافذته •

ولابد أنه رأنا نتقدم نحو منزله فقد فتح الباب قبل أن تصل يد مايكروفت الى المقبض •

وهناك وقف موريارتى فى لباس نومه وغطاء الرأس ، يرتدى « روبا » أحمر باهت اللون يحملق فينا بعينين « قصيرتى النظر » تملؤهما الرغبة فى النوم •

— « أهذا انت يا دكتور واطسون ؟ » •

— « نعم ومعى مستر مايكروفت هولز ، هل تسمح لنا بالدخول ؟ » •

وصياح الرجل فى دهشة وانزعاج : « السيد مايكروفت ! » •

وقاطعه مايكروفت بلهجة مطمئنة : « الوقت من ذهب ونحن نرغب فى مساعدتك مثلما نرغب فى مساعدة أخى » • ووافق موريارتى بسرعة : « بالتأكيد بالتأكيد ، تفضلا اتبعانى بهدوء فان صاحبة المنزل نائمة وكذا الخادما وليس من الضروري ايقاظهن » •

وبعد أن دخلنا أغلق موريارتى الباب بهدوء واحكم الاغلاق بالمزلاج من الداخل •

والتقط المصباح الذى كان قد وضعه على المنضدة فى وسط الردهة وتبعناه على الدرج الى داخل مسكنه ، وكان أثاث المسكن ، شأنه شأن « الروب » ، مكتملا ولكنه بال بعض الشيء •

ولما رأى مايكروفت ان البروفيسور على وشك اضاءة
المصابيح رجاء قائلاً : « من فضلك لا تشعل الغاز فقد يعود
أخى ومن المهم ألا يلاحظ وجود أى تغير من خلال نافذتك » •

وأوما موريارتى برأسه وجلس مشيراً بيديه لنا أن
نجلس أيضاً •

وسألنا بصوت يائس : « ما العمل؟ » فقد رأى فى وجوهنا
المكفهرة ما جعله يدرك أن الأمر من الخطورة بنفس القدر
الذى توقعه •

وبدأ مايكروفت الحديث قائلاً : « سنقدر لك صتيك
أعظم التقدير اذا سافرت الى فيينا فى الصباح » •

الفصل الخامس

رحلة فى الضباب

لا أجد من الضرورى أن أروى هنا أنواع الاغراءات التى قدمناها فى تلك الليلة الى مدرس الرياضيات التعميس وأنواع الترغيب والتهديد والضغط والوعيد التى استخدمناها لنجعله يرضخ لرغباتنا ، ولم يدر بخلى أن مايكروفت هولز يمتلك مثل تلك البلاغة التى استخدمها فى ذلك الموقف الغريب .

واحتج موريارتى فى البداية وهو يطلق نظرات فزعة تنتقل من أحدهنا الى الآخر بينما بدت عيناه الزرقاوان باهتتين فى ضوء المصباح الوحيد الخافت ، ولكن مايكروفت استطاع اقناعه ، ولم أكن أدري حينذاك أى سلطان ونفوذ يمتلكه ذلك العملاق الضخم على ذلك الكيان الضئيل .

لقد كان يبجل مايكروفت ، وفى النهاية بعد أن وعدناه بدفع تكاليف الرحلة ، وافق أخيرا بعد أن كرر تذكيرنا بالاعتذارات والتفسيرات التى سنقدمها الى ناظر المدرسة بحيث لا يفقد منصبه فى مدرسة « رويلت » خلال غيابه .

وما أن وصلنا الى اتفاق ، حتى ذهب الى النافذة محتميا بالاستائر ونظرت الى الشارع فلم أبصر هولز وأشارت الى أخيه وخرجنا كما دخلنا ثم صعدنا الى العربة التى كانت لا تزال فى انتظارنا .



وفى رحلة العودة قاومت الاغراء الشديد لاستفسر من مايكروفت عن ماضى عائلة هولمز، بل وقد زاد الاغراء عن ذى قبل لاكتشاف السر ، فقد بدا واضحا لى آن البروفيسور قد استسلم لطلب مايكروفت البالغ الغرابة بسبب « ذلة » يمسكها عليه ، ويبدو أن هذه الذلة من القوة بمكان بحيث انه لم تكن هناك حاجة لذكرها ، وعندما استرجعت المناقشة التى دارت وجدت أنها سارت فى صالحى أكثر مما كانت فى صالحهم اذ كانت النتيجة معروفة سلفا منذ البداية *

وقاومت الاغراء بالفعل ولم تكن المقاومة صعبة كما قد يظن ، اذ أننى استغرقت فى النوم ولم أفق منه حتى وقضت المركبة أمام بابى ولكزنى مايكروفت وتبادلنا تحية المساء وقال مايكروفت : « الأمر فى يد شرلوك الآن » أجبتة وأنا أتشأب رغما عنى : « أرجو ألا نكون قد صعبنا عليه الأمر أكثر مما يجب » *

ومن داخل المربة ضحك مايكروفت وقال : « لا اظن ذلك فمما قلته يبدو أنه مازال حاد الذهن كما كان دوما ، كل ما فى الأمر أن التركيز قد انحرف عن مساره ، وموريارتى هو بغيته وسيجد طريقه اليه وأعتقد أننا لا يجب أن نشغل بالنا بذلك ، أما بقية المسألة فهى فى يد صديقك الطبيب وعمت مساء يا واطسون » وانتهى حديثه وطرق سقف المربة بعصاه فانطلقت فى غمار الضباب الذى أخذ فى التكاثر قرب سطح الأرض *

ولابد أننى وجدت طريقى بشكل ما الى سربرى ولم أفق من نومى الا وزوجتى تقف على رأسى تتفحص وجهى بقلق :

— « هل أنت بخير يا عزيزى ؟ » ووضعت يدا حانية على جبهتى كما لو كانت تظن أن بى شيئا من الحمى وأجبتها

بأننى فى خير وعافية لكنى مجهد فحسب ، وجلست فى
سريرى *

وصحت فى دهشة عندما رأيت خلفها صينية مغطاه
موضوعة على الكرسي بجانب الباب : « هل سأتناول طعام
الفطور فى السرير ، قلت لك اننى بخير » *

– « تخبرنى ظنونى أنه لديك الوقت بالكاد لتناوله » *

قالت ذلك دون حماس وهى تضع الصينية أمامى *

وكنيت على وشك أن أسألها ماذا تعنى بهذا الكلام عندما
رأيت مظلوماً اصفر اللون بجانب اناء السكر * ونظرت
متحيراً الى زوجتى التى شجعتنى بنظراتها الجريئة ففضضت
المظروف *

« هل تستطيع التغيب عن عيادتك لعدة أيام ، لقد
قاربت اللعبة نهايتها وستكون معاونتك لا تقدر بتمن ،
أحضر توبى الى رقم ١١٤ شارع مونرو بهامر سميث ، خذ
حذرك ، هولمز » *

توبى ، ونظرت الى زوجتى فقالت بهدوء : « لقد بدأت » *

– « نعم ، نعم » وحاولت أن أخفى نبرة الحماس فى
صوتى ، لقد بدأت المطاردة ، أما نتيجتها فالزمن وحده هو
الكفيل بها *

وتجهزت للخروج بينما جهزت زوجتى الحقيبة الا أننى
غافلتها ودسست مسدسى القديم فيها *

لقد كان هذا هو ما عناه هولمز بقوله « خذ حذرك »
ورغم أننى كنت أعلم أننى لن أحتاج اليه فلم يكن من الحكمة
أن أدع هولمز يظن أننى تجاهلت تعليماته كما لم يكن من
الحكمة أيضاً أن أكشف لزوجتى أننى قد نفذت تلك

التعليمات ، وقبلتها قبل الرحيل وذكرتها بأن تطلب من كولينجورث العناية بمرضائى .

وكانت التعليمات تقضى بأن أحضر توبى وأقابل هولمز عند منزل البروفيسور .

كان الطريق لا يبين من الضباب الكثيف الذى كان قد ارتفع واحاط بهى من خافة الجهات ، ولم يكن هناك داع لقياس مدى كثافته اذ كان لا يمكن اخترافه وكان حل ما حولى حوائط من الدخان الأصفر الكبريتى اللاسع للعين والمؤذى للرئتين ، وتحولت لندن خلال عدة ساعات الى عالم زاحف كأنه الحلم حيث يحل الصوت محل الرؤية .

وكانت أصوات حوافر الخيل تصل الى مسامعى من كافة الجوانب وهى تدق مربعات بلاط الشارع ، وأصوات الباعة المتجولون وهم يصيحون على بضاعتهم أمام المباني غير المرئية ، ومن أعماق الضباب تناهت الى سمعى أنغام غريبة صادرة من أرغن يعزف لحنا نشازا لأغنية معروفة مما أضف الى غرابة الجو .

كنت أحاول شق طريقى الى الناصية مستخدما عصاى لأتحسس بها الطريق ولا أرى الناس الا فى اللحظة التى يجب أن أتخاشى فيها الاصطدام بهم ، وكنت بالكاد قادرا على تمييز النقاط المضيئة فى هذا الجو السائد من البخار الأصفر ، واذا كان المرء غريبا فلربما استغرق منه الأمر بضع دقائق ليعرف أن هذه الأضواء هى مصابيح الشارع ، تركت لتضىء فى النهار لمصلحة السابلة أما أنا فقد عرفتھا توا بالطبع .

ورغم خبرتى الطويلة كان الضباب فى ذلك اليوم يتخذ أبعادا هائلة وعندما عثرت أخيرا على مركبة استطاعت شق طريقھا بصعوبة وبطء فى اتجاه رقم «٣» حارة بينشيني

فى لامبث وكنت أتطلع من النافذة فى هذا الفراغ المصفر
والمح بين الحين والآخر بعض العلامات المميزة التى أكدت
لى أننا نسير فى الاتجاه الصحيح ، ميدان هانوفر ، ثم ميدان
جروزفنى ثم هوايت هول ، وست مينستر وأخيرا جسر وست
منستر ، مررت بها كلها وهى غارقة فى الضباب وأنا فى
طريقى الى تلك الحارة المنفرة حيث كان يقطن مستر
شيرمان ، مربى الحيوانات ، والذي كثيرا ما قدم كلبه
المتميز « توبى » مساعدات لهولز خلال تحقيقاته .

ولو كان توبى يمتلك شجرة نسب فربما اعتبره البعض
من نوع « بلودهاوند » ولكنه لما لم يكن يمتلكها فقد كان من
المستحيل معرفة أصله - ولم يكن « مستر شيرمان » يعرف
كذلك عندما سأله عن الأمر - وكان تخمينه أن هذا الكلب
نصف « سبانييل » ونصف « لارشيل » (وكلها أسماء لأصناف
من الكلاب - المترجم) * لقد كان لونه الذى يجمع بين البنى
والأبيض وأذناه المتهدلتان ومشيته المتأرجحة كافية لتثير
الخلط فى ذهنى فيما يتعلق بأجداده .

وقد انتابه خلال فترة من حياته مرض أزال كمية من
شعره وكانت النتيجة أن أصبح مظهره منفرا بدرجة ما ومع
ذلك فقد كان « توبى » حيوانا ودودا ومحبا ولم يكن لديه
من الأسباب ما يجعله يحس بالدونية بالنسبة لبقية الكلاب
مهما بلغت رفعة محتدهم ، لقد كانت أنفه هى نسبه * وعلى
قدر ما أعرف فانه لم يكن يوجد له مثيل فيما يتعلق بحاسة
الشم ولعل القراء يتذكرون قدرات « توبى » الخارقة والتى
حكيت عنها فى « علامة الأربعة » والتى كان فيها المسئول
الفعلى عن اكتشاف الشرير جوناثان صمول وزميله المرعب *
فقد تتبع أثرهما خلال نصف لندن تقريبا من خلال قطعة من
القطران التصقت بالقدم الحافية لذلك الرجل المرعب ،
صحيح أنه قادنا الى طريق مسدود عندما وصل الى برميل من
القطران ، ولكن كان السبب فى ذلك أن المطاردين قد مرا

بذلك التبرميل ولا يمكن أن نلوم الكلب على خلطه بين زائحين متطابقتين ، ولكن لما قدناه - هولز وأنا - مرة أخرى ليراجع خطأه أدركه فوراً وانطلق فى الاتجاه الصحيح حتى حصلنا على النتيجة التى نوهت عنها .

ولن يستطيع عقلى مهما خلق فى سماء الخيال أن يخمن أى آفاق من العبقرية يمكن أن يصل إليها « توبى » .

وأخيراً أدركت من أصوات الحيوانات وضجيجها أننا قد وصلنا . وأخبرت السائق أن ينتظر ، ولم ينفر من ذلك فقد كان السير فى تلك الظروف خطراً ومفزعاً ، وترجلت ونظرت حولى حتى أتعرف على صف المنازل البائسة التى كنت أعلم أنها تطل على جانبى الحارة ولكنها اختفت فى الضباب ولم يقدننى إلى باب شيرمان سوى أصوات الحيوانات .

وطرقت الباب بشدة وناديت بأعلى صوتى ولكن الأصوات الصادرة من الداخل كانت تصم الأذان كما لو أن أهل البيت قد أزعجتهم تلك العبادة من الضباب والغبار التى حجبت عنهم أشعة الشمس المعتادة ، ولكن خطر ببالي أنهم كثيراً ما لا يركنون إلى السكوت وتعجبت لما قد تحدثه هذه الضجة الدائمة على صاحب تلك الحيوانات .

ولقد قابلت شيرمان عدة مرات عندما كانت أعمال هولز تستدعى أن أذهب لطلب توبى وفى المرة الأولى هددنى بحية يمسكها فى يده ولكن كان ذلك قبل أن يدرك أننى صديق لمستر هولز ، وعندما علم بذلك فتح الباب على مصراعيه وأصبح يرحب بى منذ ذلك الحين .

ولقد فسر لى العداء الذى قابلنى به أنه كان دائماً محط معاكسة الأطفال فى الحى ، وقد مضى اليوم أكثر من عام منذ أن زرته آخر مرة ، وفى تلك المرة الأخيرة كان هولز

يبنى استخدام توبى حتى يقتضى أثر غوريلا ضخم - من نوع « الاورانج - أوتان » فى انفاق مجارى مارسيليا ، وقد كانت تلك القضية ، رغم أننى لم أسجلها ، لا تخلو مما كان يشير اليه هولز بقوله « نواحي مثيرة » وكما اذكر فان الحكومة البولندية كافأته على خدماته بأن أهده وسام « سان استانيسلاوس » من الدرجة الثانية (١) .

وبعد الطرق الطويل والصياح من الداخل فتح الباب فى نهاية الأمر .

- « والآن يا أولاد * * » ورمقتنى العيون الضيقة لمربي الحيوانات وهو يحاول استشفاف من أنا من فوق زجاج نظارته : « أهذا أنت يا دكتور واطسون ؟ أرجو المذرة ، تفضل ، لقد ظننت أنهم هؤلاء الأولاد الخبثاء يحاولون خداعى فى هذا الضباب اللعين * ولكن كيف وجدت طريقك الى هنا تفضل » .

كان يحمل فى يديه قردا واضطرت فى طريقى الى الدخول أن أخطو فوق حيوان الغرير الذى كنت أعلم أنه منزوع الأسنان * وران على حديقة الحيوان تلك صمت مفاجيء كما لو كنت قد ألقيت عليهم سحرا ، وفيما عدا الهديل الخافت لزوج من الحمام الرمادى يتربع فوق الرف وصوت خنزير يصيح من الداخل ، غرق المنزل فى سكون مفاجيء ، وفى ظل ذلك الصمت كنت أسمع أمواج نهر التيمز وهى ترتطم بأساسات المنزل ، ومن خارج النافذة

(١) من المؤسف أن واطسون لم يسجل تلك القضية ، وكما نرى فان مكافأة الحكومة البولندية لهولز لتنبهه اثر الاورانج أوتان خلال مجارى مارسيليا يجعل هذه القضية تنضم الى حالات أخرى لم يعتبرها واطسون جديرة بالنشر ونستطيع أن نستنتج من اهدائه هذا الوسام أن القضية تم حلها بنجاح ولكن الى أية درجة من النجاح الله اعلم ، اذ لو كان هولز قد نجح فيها تماما لم يكن الاجدر بالحكومة البولندية أن تهديه الدرجة الاولى من ذلك الوسام « نيكولاس ماير » .

كانت تتناهى الى اذنى صيحات طيور النورس وهى تحوم
بلا هدف فى الضباب •

وأزاح شيرمان بلطف قطا عجوزا ذا عين واحدة من على
الكرسى الهزاز ودعانى الى الجلوس ، ورغم أننى لم اكن
أنوى البقاء طويلا ، فقد جلست • اذ بدا فى هيئة الرجل
ما يوحى بأنه يشترق الى الصحبة الانسانية وكرهت أن ادخل
ثم اندفع خارجا بسرعة رغم معرفتى أن أى تأخير ، بالاضافة
الى مصاعب الرحلة التى سأقطعها الى هامر سميث ، قد يؤثر
على قدرة توبى فى القيام بمهمته بكفاءة • وسألنى :

— « أنت تريد توبى يا دكتور ؟ » •

قالها وهو يفك ذراع القرد المحيطة بعنقه ووضع
الحيوان على قمة قفص للطيور مغطى : « دقيقة واحدة
وسأحضره لك ، هل لديك وقت لقدح من الشاي ؟ » •

— « أخشى ألا يكون لدى وقت لذلك » •

— « هذا ما ظننته » وندت عنه آهة وخرج من باب جانبي
الى مرايض الكلاب • وبينت لى أصوات النباح والهرير
الصادرة من ذلك الاتجاه أن كلابه كانت فرحة لرؤيته وميزت
صوت توبى من بينها •

وعاد شيرمان لتوه بصحبة الكلب تاركا البقية تنبح فى
أسى • اذ لابد أن وجوده قد أثار فيهم الرغبة فى الخروج من
الأقفاص • وعرفنى توبى وهجم وهو يجذب السلسلة ويهز
ذيله بقوة وطيبة واستجبت بأن أعطيته كتلة من السكر
أحضرتها لهذه الغاية وهى الطقوس المعتاد فى لقاءاتنا
وعرضت على شيرمان كالعادة أن أدفع له مقدما ولكنه وفقا
لطريقته الخاصة فى التعامل — على الأقل فيما يتعلق بشرلوك
هولمز — رفض قبول شىء •

— « فلتحتفظ به طالما أنت في حاجة اليه » — وقادني مصرا على موقفه الى الباب مزيجا برجله دجاجة من الطريق وقال : « سنسوى هذا الأمر فيما بعد • مع السلامة يا توبى أيها الكلب الظريف ، بلغ تحياتي الى مستر شرلوك » وانطلقنا أنا وتوبى في اتجاه العربية •

وصحت به وأنا أنصرف أنني سأبلغ رسالته الى شرلوك ، وأخذت أصيح على السائق الذى بادلنى الصباح حتى يدلنى على المكان الذى وقف فيه ، وركبت وأخبرته بالعنوان الذى كتبه هولمز فى برقيته — والذى كنت قد زرتة فى الليلة الماضية — واندمجنا فى ذلك الطابور الطويل من المروز الذى يسير على غير هدف يتحسس طريقه خلال شوارع لندن •

وأعدنا اكتشاف جسر وستمينستر وعبرناه بعد أن أفلتنا بالكاد من الصدام مع مركبة أخرى • وتوجهنا هربا نحو هامر سميث وكانت العلامة الوحيدة التى لا تكاد تبدو خلال الطريق هى محطة شارع جلوسستر •

وبعد لآى تحولنا الى شارع مونرو الذى كان خاليا ، وتوجهنا الى الضوء الخافت للمصباح الوحيد فى الشارع وتوقفنا •

— « لقد وصلنا » صاح السائق وهو يتنفس الصعداء ومندهشا فى نفس الوقت ، وترجلت لأستكشف المكان باحثا عن أى أثر لهولمز • وكان المكان موحشا ، صامتا ، وتردد صدى صوتى وأنا أنادى اسمه كما لو كان يصطدم بحائط الضباب •

وقفت لحظة متحيرا ، وكنت على وشك أن أتخذ طريقى الى منزل البروفيسور — الذى أعلم أنه يقع فى مكان ما

خلفى - عندما سمعت دقات تك • • تك تك • • على الرصيف
فى مكان ما على يمينى ، فصحت :

- « من هناك ؟ » • لا اجابة وانما استمرت دقات
العصا على الرصيف بنغماتها شبه المنتظمة • واستجاب توبى
مثلما فعلت وأطلق صوتا مكتوما ينم عن الارتياح •

واستمر الطرق مقتربا •

وعاودت الكلام : « هالو • • من هناك ؟ » •

وانطلق صوت حاد يغنى من خلال الضباب أغنية شعبية
معروفة ، ووقفت متجمدا بلا حراك بينما اقترب المعنى
والغناء منى وشعر رأسى يكاد يقف من الخوف • فهأنا أقف
فى شارع مهجور يغمره الضباب خارج حدود الزمان والعقل
بينما يتجاهل ذلك المعنى المجهول وصوته الأجش تساؤلاتى ،
وأخيرا وببطء ، ظهر المنشد ، رث الهيئة يترنح فى مشيته
وقد أضفى عليه مصباح الشارع هالة من الضوء • وكان
يرتدى صدرا وأكماما من الجلد القديم وحذاء متهالكا
لا يمسكه الا رباطه ، وتدلّت نخصلات خفيفة على جانبيه وجهه
وعلى رأسه قبعة من الجلد قد أدار حافتها الى الخلف ، وكانت
كل هذه الأشياء تشير الى أنه كانت له علاقة بصناعة الفحم ،
وأقول كانت لأنه كان يخفى عينيه بالنظارة السوداء الخاصة
بالعميان •

وظللت أحملق مفزوعا بينما أخذ هذا الشبح يدنو منى
حتى انتهى من أغنيته وساد الصمت كأنه معلق فى الهواء
صاح فجأة :

- « حسنة • • حسنة الى الأعمى » وانحنى وقد مد قبعته
الى وأخذت أفتش جيوبى بحثا عن نقود :

- « لماذا لم ترد على عندما ناديتك ؟ » سألته وأنا ضيق
الصدر نوعا اذ شعرت بالنجل من تلك الفكرة التى راودتنى.

وهي أن أستخرج مسدسى من الحقيبة الموضوعة فى أرضية
العربة • وزاد من ضيقى ما أدركته من أننى كنت سأبدو
فى غاية الحماسة أمام هذا المغنى الأعمى الذى لا يمثل أى
خطر بالنسبة لى وبالتأكيد لا يحمل لى أية ضغينة •

فأجاب : « لم أرد أى أقطع الأغنية » ، وكانت لكنته
قريبة من الايرلندية « لا يدفع لى أحد عندما أتوقف عن
الغناء » وهز قبعته فألقى فيها بعض البنسات « أشكرك
يا سيدى » •

— « ولكن بحق السماء أيها الرجل لمن تقدم بضاعتك
فى هذه الظروف ؟ » •

— « أى ظروف يا سيدى ؟ » •

— « هذا الضباب اللعين الذى لا تستطيع أن ترى فيه
رأسك من قدمك » • وتوقفت فجأة متذكرا عجزه ، وأطلق
المنشد زفرة حارة •

— « آه ، هذا هو السبب اذن لقد تعجبت فكل شيء يبدو
غريبا اليوم اذ لا أصدق أننى جمعت شلنا واحدا هذا
الصباح • هو الضباب اذن ؟ هذا هو السبب القاطع فى أننى
لم أتلق شلنا واحدا اليوم » •

وأطلق تنهيدة أخرى وبدأ كمن يتلفت حوله الأمر الذى
أفزعنى خاصة أنه ضريع •

فسأله : « هل تحتاج أية مساعدة ؟ » •

— « كلا كلا يا سيدى • بارك الله فيك لهذا العرض
ولكنى لا أحتاج ، فالأمر سيان بالنسبة لى • • الأمر سيان
بالنسبة لى • • أشكرك يا سعادة المحافظ » •

ومد يده داخل قبعته والتقط النقود منها ووضعها في
جيبه ، وودعته بينما انطلق مستخدماً عصاه ليتحسس طريقه ،
لا يختلف عن أى شخص عادى فى مثل هذا الضباب اللعين ،
فيما عدا أنه بدأ يغنى مرة أخرى وصوته يخفت شيئاً فشيئاً
كلما ابتعد عن ناظرى وابتلعه طيات الدخان .

وتلفت حولى وصحت مرة أخرى : « يا هولز » .

— « لا داعى للصياح يا واطسون ، أنا هنا » سمعت
صوتاً مألوفاً خلفى ودرت بحركة سريعة لأجد نفسى وجهاً
لوجه مع المغنى الأعمى .

الفصل السادس

توبى يتفوق على نفسه

— « هولمز ! » *

ضحك ونزع الشعر المستعار عن رأسه والحاجبين عن وجهه وكذلك الشامات التي كانت على ذقن المغنى ثم نزع النظارة السوداء وبدلاً من عيون المغنى الخامدة فرح قلبى لرؤية عيون هولمز اللامعة التي تبدو فيها سخرية صامتة *

— « سامحنى يا صديقى العزيز ، فأنت تعلم أننى لا أستطيع مقاومة اللمسة الدرامية وكان الموقف مكتملاً بحيث لم أستطع مقاومة الاغراء » *

واستغرق منى الأمر بعض الوقت لأهدىء من روع سائق المركبة الذى تركه الموقف مشدوهاً ونجح هولمز أخيراً فى تهدئته *

وسأله : « ولكن لماذا التسكر ؟ » بينما انحنى هو يربت على الكلب الذى اقترب منه يهز ذيله فى سعادة ويلعق الطلاء عن خديه ، ونظر الى نظرة حادة :

— « لقد فر يا واطسون » *

— « فر ؟ * من الذى فر ؟ » *

— « البروفيسور » ، ونهض هولمز وهو يتحدث بغيظ :
« ها هو منزله يقبع خلفك فى الضباب لقد كنت أراقب بنفسى

مسكنه الليلة الماضية « وكنت عادة أكلف ويجينز بذلك » (١) وكان كل شيء يسير كالمعتاد حتى منتصف الليل وكان الجو رطباً وثقيلاً فذهبت الى الحانة فى نهاية الشارع لاحتساء بعض البراندى طلباً للدفع وخلال هذه الفترة أتى رجلان لرؤيته ، وليست لدى وسيلة لمعرفة ما قالاه ولكنى لا أشك لحظة انهما كانا جاسوسين يعملان لحسابه وقد أتيا ليخبراه بأننى قد أحكمت الخناق حوله ، وعندما رجعت، كانا قد ذهباً، وكان كل شيء كما تركته * وفى هذا الصباح فى الحادية عشرة تلقيت برقية من ويجينز ، لقد رحل البروفيسور فيما بين الوقت الذى رحلت فيه وحل ويجينز محلى أما كيف والى أين فهذا هو ما نحن بصدد اكتشافه ، ولقد حضرت كما رأيته لثلاثا يكونا قد أعدا كميناً لى » *

أصغيت اليه محاولاً رسم تعبير سلبي على وجهى وطرح الأسئلة المناسبة :

— « أقلت رجلان ؟ » *

— « نعم ، كان أحدهما طويلاً ثقیلاً الوزن لا أقل من مئتى رطل تقريباً — فهذه الأرض الرطبة مفيدة جداً فى تسجيل ما ينطبع عليها — وكان ينتعل حذاء عالى الرقبة منبجعا عند الابهام وكعباً مربعاً متأكلاً من الداخل ، مثل هؤلاء الرجال ضخام الحجم غالباً ما يقفون وقد تفرطح الابهام لديهم وهذا يفسر شكل الحذاء ، كما كان شخصاً حاسماً وأعتقد أنه كان القائد بين الاثنين » *

— « والآخر ؟ » سألته وأنا أحاول أن أمنع نفسى من ابتلاع ريقى « آه * * الآخر » تنهد هولمز وهو يجول ببصره فى السكون : « هناك ملامح مثيرة للاهتمام بشأنه ، لقد كان

(١) وهو أحد أبناء الشوارع وعمل لفترة ما قائداً لعصابة من الفترات تعذر فصلبة الاستخبارات الرسمية لهولمز والمترددون على شارع بيكر « (نيكولاس ماير) » *

أقصر قليلا ولا يكاد يبلغ وزنه نصف وزن زميله ويبلغ طوله أقل من ستة أقدام كما أن برجله اليسرى عرجا خفيفا يكاد يشبه مشيتك يا واطسون . وكان متأخرا عن زميله مما دعا الآخر الى استدعائه عندما اقترب من المنزل ، ويتضح هذا من واقع أن آثار ابهام القدم فقط هي الواضحة عندما ذهب فى هذا الاتجاه ، لقد كان يمد الخطى ، يدل على ذلك ازدياد اتساع خطوته ، ولم يكن يتسلل حيث ان ذلك لم يخطر على بال زميله لقد جاء مباشرة لرؤية البروفيسور وانصرفا ، وكنت أستطيع أن أخبرك بالمزيد عنهم لولا هذا الضباب اللعين الذى منعه من رؤية الصورة الكاملة لما قاما به ، ولحسن الحظ لقد أخذت من الاحتياطات ما يمكننا من القبض عليهما اذا لزم الأمر . فكما تعلم ، ليس من عادتي اصطيد السمك الصغير بينما السمك الكبير مطلق السراح - وصاح فجأة : « احذر مسحوق الفانيليا » - وجذبنى الى الخلف بعد أن خطوت خطوة أو خطوتين فى اتجاه المنزل وتشببت بى حتى لا يفقد توازنه . لقد تأكد لى الآن أنه مجنون تماما ولا رجاء فيه . قلت له بأقصى درجة استطعتها من الهدوء : « مسحوق الفانيليا ! » .

- « لا تنزعج يا صديقى العزيز فأنا لم أفقد عقلى - وضعك وهو يغلق أطراف ستريته - ألم أقل لك اننى قد اتخذت من الاحتياطات ما يمكننى من اقتفاء أثر أى من هؤلاء الرجال أو كلهم . ادفع للسائق وسأشرح لك » .

وبمزيد من الانزعاج جرجرت أذياالى الى العربة وأخذت حقيبتي ودفعت للسائق ، وبدأ عليه الارتياح للتخلص من صحبتي ، فلايد أنه قد اعتبر أن أخطار الضباب أقل بكثير من مخاطر الانتظار فى شارع مونرو . وخفت صوت عجالات المركبة حتى تلاشى وعدت الى حيث كان يقف صديقى منتظرا . وأخذنى من ذراعى وأمسك مقود توبى بيده الأخرى

وقادنا نحو المنزل الذى كان لا يزال غير مرئى ولكننى كنت قادرا على الشعور بوجوده *

ـ « انظر هنا تحت قدميك وشم الرائحة » وانبطحت لأشم حسب تعليماته واندفعت الى أنفى الرائحة النفاذة لمسحوق الفانيليا *

ـ « ما هذا ، يحق السماء ؟ » *

ـ « انه أفضل من القطران » ودعا توبى كى يشم الرائحة واستطرد : « انه ليس لزجا ولذلك لا يحس المنتعل بأن هناك شيئا ملتصقا بنعل حذائه وفأدته الأخرى أنه فريد من نوعه فهو قوى الرائحة ويظل أثره لمدة طويلة وأشك كثيرا أن توبى سيختلط عليه الأمر ـ الا اذا قادنا الأثر بالطبع الى أحد المطابخ ـ هيا شمه أيها الولد » *

وشجع الكلب الذى أخذ يستنشق البقعة الكبيرة من المادة بجانب الرصيف *

ـ واستطرد هولمز وهو مازال مستمرا فى ازالة آثار تنكره : « لقد رششت هذه المادة هنا قبل أن أغادر موقعى فى الليلة الماضية ، ولقد داسوا جميعا عليها موريارتى وعميلاه وعجلات المركبة التى أقلته منذ عدة ساعات » *

وحمدت ربى أننى قد غيرت حذائى هذا الصباح ونهضت على قدمى وسألته : « وما العمل الآن ؟ » *

ـ « الآن سيقتفى توبى آثار عجلات المركبة ولسوف تتنابه الحيرة عند نقطة معينة وهناك سنبحث نحن عن تلك الآثار سيرا على الأقدام فهل أنت مستعد ؟ » *

ـ « ألم يتأخر بنا الوقت ؟ » *

ـ « لا أظن فلا شك أن الضباب الذى آخر وصولك قد عاق أيضا هروبه ، هيا بنا » *

ودفع توبى بعيدا عن بقعة الفانيليا وانطلقنا وكانت الرائحة قوية واضحة ، ورغم استحالة الرؤية التى فرضها علينا الضباب مضى الكلب بخطوات ثابتة سريعة بحيث لم نستطع أن نكبح جماحه الا بالكاد . واستعاد هولمز حقيقته الحمراء التى يحملها فوق ظهره من السياج النباتى المخضر على الجانب الآخر من الطريق ، وتابعنا رحلتنا فى صمت نبذل جهدنا لنتابع الكلب الذى كان شده للمقود وصيحات الحماس التى يطلقها تدلنا على أن أبخرة الكبريت المؤذية المنتشرة فى الهواء ليس لها أى تأثير على حاسة الشم لديه .

وبدا هولمز هادئا ومتماسكا ، حاضر البديهة بحيث تساءلت بينى وبين نفسى اذا ما كنت قد وقعت فى خطأ فاحش ، فربما قد خدعنا موريارتى أنا ومايكروفت وكان هو فى الحقيقة رأس الأفعى ، وطردت الفكرة عن خاطرى باعتبار أن لا مكان لها فى هذه اللحظة وأسرعت أحث الخطى فى اثر هولمز والكلب ، ولقد كان لهذا الطقس آثار مؤلمة على جرحى ولم أكن كقاعدة عامة ، أمشى فى مثل هذا الطريق * وفى لحظة معينة أخرجت غليونى ولكن هولمز رفع يده محذرا « يكفى الكلب ما يلاقيه من آثار الضباب فلا ترهقه بمزيد من العقبات » *

وهزرت رأسى موافقا ومضينا نجوس خلال الشوارع التى لا تكاد ترى ونتفادى حركة المرور ، لأننا كنا مضطرين

أن نسير فى وسط الطريق متتبعين أثر العربة ، ومررنا بمحطة شارع جلوستر والتي كانت على يسارنا وكنت اسمع بوضوح صفير القطارات من خلال الضباب وكأنها أصوات خنازير عمياء تحاول البحث عن جرائها ، واسنمر الكلب يشدنا دون ان تبدو عليه أية بادرة لفقدان الطافه *

وقال هولمز مشيرا الى مسحوق الفانيليا : « قد اكذب مقالة (١) فى هذا الموضوع فان ميزاته لمثل هذا النوع من الاعمال متبايه * كما ترى فيها هو دليلنا لا يتردد لحظه ، وحتى خلال الطين والماء يعرف طريقه » وغمغمت بدلام معهم منه الموافقه وتنفست الصعداء لانى قد غيرت حذائى والا كانت تلك المادة قد قادت هذا الكلب النموذجى الى قبل أن نسير خطوتين وتنتهى اللعبة قبل أن تبدأ *

وتابعت سيرى السريع لمتابعة خطى الكلب ولم اكن أستطيع رؤية أين كنا كما كانت أصوات المدينة تطن فى أذنى ونحن نتابع بعضنا البعض بسرعة مدهشة ، وبدأت ساقى تؤلنى وكنت على وشك أن أقول ذلك عندما توقف هولمز وشد طرف سترتى :

— « ما الأمر ؟ » قلت وأنا ألهث *

— « أنصت » *

وأطعت ، محاولا تخطى صوت نبضات قلبى ، كانت هناك أصوات الخيل وصيل السروج * وأصوات المركبات وصفير القطارات *

(١) وقد كتب هولمز بالفعل هذا المقال « حول تتبع آثار الأقدام » وهو عمل رائد فى هذا الموضوع وكان هولمز أيضا أول من نادى باستخدام عحية باريس فى صلب قوالب تلك الآثار ، كما ألف عددا من المقالات التى طبعها على نفقته فى موضوعات مشابهة « نيكولاس ماير » *

وقال هولز بهدوء : « محطة فيكتوريا » .

وكانت بالفعل نهاية الخط الحديدي العظيم كما أدركنا
وغمغم هولز : « هذا بالضبط ما توقعته لقد أتيت بحقيبتك
معك لحسن الحظ » .

وخيل الى أن هناك نغمة ساخرة في نبرة صوته فذكرته
قائلا :

ـ « قلت فى برقيتك عدة أيام » .

ولم يبد عليه أنه سمع ما قلته وانما اندفع خلف توبى
الذى كان يسير فى خط مستقيم تجاه موقف العربات وتشمم
الأرض حول «الموقف» الذى كانت تصطف فيه عدة مركبات،
وكانت تتدلى من رقبة كل جواد مخلاة تمتلئ بطعامه وفجأة
تحول عنها كما لو كان يريد الخروج من المحطة .

ـ « كلا ، كلا ، يا صديقى ، لقد انتهينا من العربية
يا توبى ، خذنا الآن الى حيث الراكب » .

وقاد توبى الى الناحية الأخرى من « الموقف » وهناك
وبعد لحظة من التردد حل الكلب الالتياس الذى طرأ وبصيحة
نشطة اندفع الى الداخل وجاس خلال المحطة المزدحمة
ـ والتى زاد ازدحامها بسبب التأخيرات الناتجة عن رداءة
الطقس ـ متخطيا جماعات الركاب المتناثرة والتى بدا عليها
الضييق قافزا أحيانا فوق معطف يعترض طريقه حتى وصل
الى رصيف قطار أوربا السريع . وهناك توقف تماما قبالة
القضبان الفارغة مثلما توقف جلوسستر عند حافة صخرته .
لقد انتهت آثار الفانيلى ونظرت الى هولز الذى ابتسم
رافعا حاجبيه .

وقال بهدوء : « هكذا اذن » .

فَسأَلته : « ما العمل الآن ؟ » *

ـ « دعنا نستفسر كم مضى من الوقت منذ أن سافر
القطار السريع ومتى يقوم القطار الذى يليه » *

ـ « وماذا بشأن الكلب ؟ » *

ـ « سنأخذه معنا بالطبع اذ لا أعتقد أننا قد استنفدنا
كافة خدماته بعد » *

فيما بعد ، والقطار ينطلق بنا من لندن وهو يخترق
أستار الضباب فى الطريق الى دوفر ، التفت الى هولمز نائلا
وهو يبتسم : « ليس توبى بالطبع هو الوسيلة الوحيدة التى
أقتفى بها أثر البروفيسور موريارتى * ثلاث وسائل على
الاقل تمكننى من ذلك ، بدون خلاصة الفانيليا » *

أدى استنشاق الهواء النقى الى رفع معنوياتى والى تحسن
رئتى المحتقنتين وكان النهار فى هذه المنطقة الجنوبية
الشرقية من لندن لا يزال غائما ممطرا ، لكن الرؤية ممكنة ،
وكان اطمئنانى الى وجود هولمز بجانبى فعلا وانطلاقه فى
الطريق المرسوم يشيع الارتياح فى نفسى ويعوضنى عن
متاعبى *

وراح صديقى فى غفوة قلقة ، واستيقظ بعد ثلاثين
دقيقة متزعجا وهو ينظر الى نظرات غريبة * ووقف فجأة
واستند الى حاجز رف العفش ليحفظ توازنه « اسمح لى
يا صديقى العزيز » قالها بصوت متوتر ، ونظر الى نظرة
غريبة مرة أخرى ومد يده الى العفش وجذب حقيبته القماشية
الحمراء * وكان هولمز فى الفترة التى سبقت قيام قطارنا
من محطة فيكتوريا قد استخدم حمام المحطة ليزيل بقايا
تذكره ويعود الى حالته الطبيعية المعتادة ، مستخدما ملايسه
الموجودة فى تلك الحقيبة نفسها * وأدركت على الفور أين

سيذهب ، وماذا سيفعل ولماذا • وتراجعت عن أى اعتراض ،
ومهما كان الأمر فهذا هو السبب فيما أفعله ، فى اصطحابى
له الى النمسا ، دون أن يعلم شيئا عن ذلك بالطبع • ورفع
توبى رأسه من وضع النوم الذى كان فيه عندما تسلس هولمز
من أمامه خارجا من المقصورة • فربت على رأسه حتى هدا
فى مكانه •

وعاد هولمز بعد عشر دقائق تقريبا • وأعاد الحقيبة
بهدهوء الى مكانها وجلس ساكنا دون كلمة او نظرة الى •
وتظاهر بالانشغال الشديد بقراءة طبعة الجيب من مقالات
مونتاني • وانصرفت أنا الى التطلع من النافذة الى الحقول
التي تمر بسرعة بى وقد غطتها غلالة من الندى اللامع بينما
وقمت المشاية وقد ادارت ظهرها للريح •

وتوقف القطار فى ميعاده فى دوفر ليلاقى العبارة .
وترجلنا نلاثتنا وتمشيننا قليلا على الرصيف لننشط
عضلاتنا ، بينما أخرج هولمز قنينة بها بقية خلاصة الفانيلىا
ووضعها تحت أنف توبى وتحت ستار قيادة الكلب ليقضى
حاجته (وقد فعلها باغتباط شديد) ذرعا الرصيف جيئة
وذهابا حتى نستطيع أن نحدد ما اذا كان البروفيسور قد
نزل من القطار السابق عندما توقف فى تلك المحطة •
وكنت بالطبع أعلم أنه لم ينزل ، وهى النتيجة التى وصل
اليها توبى أيضا •

وقال هولمز ونحن نعب القنال: «أعتقد أنه لما كان قطارنا
هذا لا يقف الا فى المحطات التى تتوقف بها القطارات
السريعة ، فلن نفقد أية فرصة من فرص نزول البروفيسور
من القطار » •

وفى كاليه استخدم هولمز نفس الطريقة ، ووصل الى
نفس النتيجة • وانطلقنا فى الطريق الى باريس حيث وصلنا

بعد منتصف الليل • وكانت محطة الشمال (جاردى نور)
شبهه مهجورة فى متل تلك الساعة ، ولم نجد صعوبة فى
اقتفاء أثر خلاصة الفانيليا حتى وصلنا الى رصيف قطار
فيينا السريع •

وعبس وجه هولز عندما رأى لافتة الرصيف •

— ولماذا يذهب الى فيينا ؟

فقلت : « ربما نزل فى احدى المحطات الفرعية ، ويبدو
أن هناك الكثير من الوقفات » •

وأضفت : « أرجو ألا يكون توبى قد أخطأ » •

وابتسم هولز بعبوس : « اذا أخطأ ، فسوف يكون
موقفنا أسوأ بكثير من الموقف الذى حدث لنا عندما أخطأ
وتوجه الى برميل المازوت » — أضاف — « ولكنى عظيم الثقة
فى خلاصة الفانيليا ، ولقد أجريت عدة تجارب عليها —
ولكن اذا اتضح زيفها يا واطسون فسوف تكون هذه هى
القضية التى ستسلى قراءك بدلا من الاندهاش المعتاد » •

ولم أخبره أن تلك القضية هى الوحيدة التى لن أفكر
فى كتابة وقائعها • وضعك قائلا : « ستحل فيينا محل
نوربرى فى قائمة فشلى » وتوقف لينظر فى جدول مغادرة
القطارات ليرى ميعاد القطار التالى والرصيف الذى يقوم
منه ، وكان لحسن الحظ هو نفس الرصيف • وجادلنى هولز
والقطار ينهب الطريق عبر فرنسا فى الساعات التى تسبق
الفجر » عندما لا يستطيع الكلب اقتفاء أثر الرائحة فسوف
يتوقف • ولما كان لم يتوقف حتى الآن فأعتقد أن المعقول هو
أنه لم يفقد الأثر • ولما كانت الرائحة غير مألوفة — خارج

المنزل بالتأكيد - فاننا نستطيع أن نستنتج أيضا أنه يتتبع نفس الواجهة وليس برمبلا من الفانيليا صادفه في طريقه * .

وأومات برأسى والنوم يعترينى وعينائى لا تقويان على متابعة السطور فى الرواية ذات الغلاف الاصفر التى اشتريتها من باريس * . وسرعان ما استغرقت فى النوم * .

عندما استيقظت كان الوقت ظهرا وعباءة هولمز تغطينى ورجلاى ممدودتان على المقعد وكان صديقى يجلس قبالتى، كما تركته ، يحملق فى النافذة ويدخن الغليون * .

وتحول الى بعد لحظة وسألنى مبتسما : هل نمت جيدا ؟

وأجبتة بأننى على ما يرام فيما عدا بعض التصلب فى رقبتي وشكرته على العباءة * . ثم سألته متحرجا عن مدى تقدمنا * .

فقال : « توقفنا مرتين ، الأولى عند الحدود السويسرية والثانية فى جنيف لمدة تقارب الساعة ، وإذا صدقنا توبى فان موريارتى لم يغادر القطار » * .

وكان توبى صادقا طبعاً * . كنت متأكدا من ذلك ونهضت متوجها الى الحمام حيث حلقت ذقنى ثم صحبت هولمز بعد ذلك الى عربة الطعام ونشأت مشكلة بسبب الكلب - نفس المشكلة التى واجهتنا عند الحدود - وحل هولمز المشكلة بأن دفع الكلب الى أحد الفراشين وأعطاه بعض النقود وطلب منه أن يجد للكلب بعض بقايا الطعام من المطبخ - وكانت بطبعها قليلة - ولم أعلق بشئ * . ومرت بنا الساعات فوصلنا الى برن بعد جنيف ومن برن الى زيوريخ وفى كل محطة كان هولمز يقوم بصحبة توبى للقيام بنفس التمرين وفى كل مرة كنا نخرج بنتائج سلبية ، نعود بعدها الى مقصورتنا وعلائم الحيرة مرسومة على وجوهنا * . ويعيد هولمز ذكر تفسيراته المنطقية وأؤمن أنا عليها * .

وبعد زيورخ وصلنا الى الحدود الألمانية ثم ميونيخ
وسالزبورج ، وظلت آثار الفانيليا مختفية ولم تصادفها
على أى رصيف •

وقضيت ما بعد الظهيرة محمقا فى نافذة المقصورة
مسحورا بمناظر الطبيعة الخلابة - والمختلفة تماما عما
عهدته فى موطنى - ومنازلها الصغيرة التى تشبه منازل
قصص الأساطير والجنيات والاهالى يملأهم الطريفة
وقبعاتهم ذات الأطراف وقمصانهم الفضفاضة الزاهية الألوان
وستراتهم الجلدية القصيرة • وكان الجو مشمساً منذرا
بالدفء • وتعجبت كيف لا تسيل الثلوج عند قمم الجبال
المتناثرة على طريقنا فى مثل هذا الجو المشمس • وقلت
هذا لهولمز •

فقال وهو يميل لينظر من النافذة الى القمم المغطاة
باللون الأبيض : « انها تفعل ذلك يا واطسون وعندئذ يحدث
ما نسميه الانهيارات الجليدية » •

ولم تكن فكرة سارة ، وكان من المستحيل ألا أفكر فيها
مادامت قد حضرت الى ذهنى : ألا تحدث مثل تلك الانهيارات
نتيجة لذبذبات الصوت ، وألم يكن القطار يحدث ضوضاء
مزعجة ونحن نمر بجوار تلك الثلوج الهشة ، وماذا يحدث
إذا أدت تلك الأصوات الى حدوث الانهيار الذى يدفننا ؟ •

- هذا صحيح يا واطسون - « انها فكرة تبعث على
الخشوع والتواضع » ونظرت الى رفيقى الذى كان يزيح
قشة عن كفه ولم تكن بى حاجة لسؤاله عن كيف استشف
أفكارى فقد كنت أرى بسهولة كيف تسلسلت أفكاره •

- « نعم انظر الى هوان وضالة أفعالنا عندما نقارنها
بأفعال هى فعلا كذلك » واستمر بنوع من الحزن : « من الممكن
أن يوجد بهذا القطار اثنا عشر عبقرى يمتلك كل منهم سرا
هائلا قد يفيد البشرية فائدة لا حدود لها » •

– « ومع ذلك ففى لحظة بصر يأمر الخالق الذرى بأن
تنقض علينا • • فماذا سيكون من شأن الانسانية عندئذ ؟
هه يا واطسون • • ماذا ستكون النهاية ؟ » •

وبدا لى أنه فى حالة من حالات الاكتئاب التى رأيتها
تسيطر عليه فيما مضى • وبدلا من أن أراه يدفن تحت تلك
الثلوج التى تحدث عنها ، كان يغوص فى أعماق روحه ولم
يكن بيدي أى شىء أفعله لأحول دون ذلك •

فقلت بصوت منخفض : « لا شك أنه سيولد غيرهم من
العباقرة » •

– وهز رأسه بشدة وهو يقول : « يا عزيزى واطسون ،
أنت النقطة الثابتة الوحيدة فى هذا الكون من الانهيارات
الجليدية » •

ونظرت اليه ورأيت الدموع تترقرق فى عينيه •

ونفض فجأة وتناول حقيبته الحمراء وخرج ، ولأول
مرة شكرت المخدر • فليسوف يعيد اليه روحه المعنوية ، وحتى
أستطيع تركه فى رعاية الطبيب النمساوى العلامة كنت ،
ويا لسخرية الأقدار ، معتمدا عليه ! •

وعاد هولمز بعد فترة قصيرة • وطرق باب المقصورة
رجل انجليزى طويل القامة ذو شعر أحمر واستفسر منا فى
مهمة مشتتة اذا لم يكن لدينا مانع من جلوسه معنا حتى مدينة
لينز • فقد صعد الى القطار فى سالزبورج ولكن المقاعد
امتلات أثناء جلوسه فى عربة الطعام • وحشه هولمز على
الجلوس باشارة لا مبالية من يده • وبدأت عليه بعد ذلك
اللا مبالة التامة • وأصبح على أنا وحدى القيام بالحديث
المتقطع مع القادم الجديد الذى كان يواصل الحديث معى
بعبارات مبهمه ذات مقطع واحد •

— « لقد كنت فى التيرول » أجاب الرجل على سؤالى ،
ففتح هولمز عينيه قائلاً :

— « فى التيرول • لا بالتأكد ، فالمصقات على حقائبك
تشير الى أنك عائد من روريتانيا » •

وامتقع وجه الرجل الانجليزى الوسيم وأصبح فى لون
وجه هولمز نفسه • ونهض واقفا واستعاد حقائبه وهمهم
ببعض الاعتذارات قائلاً انه سيذهب لتناول شراب •

— وقلت بعد رحيله : « يا لسوء الحظ ، كنت أحب أن
أسأله عن حفل التتويج » •

— فقال هولمز : « لم يكن مستر راسنديل مستعداً لمناقشة
الموضوع ، والا لكان قد ترك معطفه معنا بدلاً من أخذه الى
عربة الشراب ، وبهذا الشكل لا يوجد مبرر لعودته » •

— « لكن شعره الأحمر غير عادى ، لقد كان سيمنحه
بالتأكيد عضوية الرابطة (١) أليس كذلك يا هولمز ؟
فأجاب بجفاء : « لا شك فى ذلك » •

— « لكنك قلت ان اسمه راسنديل ، بينما لم أستطع
قراءته على المصقات ؟ » •
— « وكذلك أنا » •

— « فكيف تمكنت باسم كل ما هو عجيب فى هذا العالم ؟ »
• • وقاطعنى بضحكة قصيرة وإشارة من يده :

— « لا أود أن أجعل من المسألة فزورة • • لقد تعرفت
عليه ، هذا كل ما فى الأمر ، انه الشقيق الأصغر للورد

(١) يشير والفسون هنا الى « رابطة ذوى الشعر الأحمر » وهى جمعية راثية ادعت
أنها تساعد وتوظف ذوى الشعر الأحمر الخالص • وقد ذكرها والفسون فى كتاباته
بعنوان « معامرة رابطة الشعر الأحمر » •

(نيكولاس ماير) •

برلسدون (١) وكنت قد تبادلته معه الحدين ذات مرة
فى حفلة لدى اللورد توبهام . ويبدو لى أنه من النوع
« الخسران » .

وصمت متناسيا الموضوع بينما بدت علائم تأثير المخدر
تظهر عليه .

كان الوقت ليلا عندما دخل القطار مدينة لينز .
وأخذنا توبى ليقوم بجولته المعتادة على الرصيف وكان هولمز
عندئذ قد أصبح مقننعا أن موريارتى قد قطع كل تلك
المسافة الى فيينا (ولو أن السبب كان لا يزال خافيا عليه)
ولذلك لم يدهش عندما فشل الكلب فى اكتشاف أى أثر
للرائحة فى المحطة .

وركبنا القطار مرة أخرى ، ونمنا حتى وصل الى فيينا
مع مطلع النهار . وقمنا بالطقوس المعتادة من حلاقة الذقن
وتغيير الملابس الداخلية ، ولكننا كنا نحس باضطراب فى
أعمقنا ، من انتظار اللحظة الموعودة عندما ينطلق توبى الى
الرصيف ليرى اذا ما كان هناك أى أثر للمفانيلىا .

وأخيرا جاءت اللحظة ، ونزلنا من القطار نحمل حقائبنا
ونمسك بمقود توبى . ومشينا ببطء من نهاية القطار الى
بدايته ولم يتبق أمامنا سوى عربة واحدة ، ومازالت لم تبد
على توبى أى علائم تبث فينا الأمل ، وطال وجه هولمز ونحن
نقترب من البوابة المؤدية الى نهاية الرصيف .

وفجأة تجمد الكلب فى موقفه ثم انطلق لقدم أو قدمين
وهو يدس أنفه خلال تراب الرصيف ويهز ذيله فى فرح .

(١) هذه واحدة من أغرب المصادفات فى التاريخ الاسجلى الحديث مليئة بالمفارقات .
ويبدو أن واطسون ذهب الى قبره دون أن يعلم قط من هو ذلك الشاب الانجليزى
الوسيم ذو الشعر الأحمر الذى صادفه فى القطار . وكان هذا الشاب - كما استندج
هولمز - عائدا لتوه من ريويتانيا وليس من التيرول وقد ذكر مغامراته فى تلك المملكة
ورؤيته لوقائع تتويج الملك الخامس فى كتابه الشهير « سجين زندا » الذى نشر عام
١٨٩٤ باسم مستعار هو أنتونى هوب (ن م) .

وصحنا فى نفس واحد : « لقد وجدته » وبالفعل كان
توبى قد عثر على الأثر وأخذ يزمر فى رضى وانتصار * ثم
سار فى طريقه بسرعة نحو البوابة *

وقادنا الكلب خلال محطة السكك الحديدية الغريبة
علينا ، كما لو كان يسير فى منطقة سكنه على بعد آلاف
الأميال فلم تكن الحدود أو حواجز اللغة لتقف عائقا أمام
توبى أو تتداخل بأى شكل فى اقتفائه لأثر الفانيليا * ولو
فكر البروفسور موريارتى فى القيام برحلة حول العالم فان
ذلك الكلب كان سيقضى أثره حتى آخر الدنيا *

وقادنا الكلب الى موقف العربات خارج المحطة وتوقف ،
وهو ينظر اليينا نظرة ألم ترجو الصفح ، ولكنها تلومنا فى
نفس الوقت باعتبارنا مسئولين بطريقة أو بأخرى عن ذلك
المأزق الذى وصل اليه ولكن هولمز لم يضطرب *

— وقال : « يبدو أنه استقل عربة من هنا والآن اصغ
الى يا واطسون فى انجلترا تعود العربات التى توصل
المسافرين الى موقعها بعد توصيل الراكب ، فلنر اذا كان
توبى يمكنه أن يجد شيئا فى تلك العربة » *

ولكن الكلب لم يجد شيئا يستحق اهتمامه * وجلس
هولمز بجوار حقائبنا على احدى الدكك الواقعة بقرب المدخل
وهو يفكر فى صمت « هناك عدة احتمالات تخطر ببالي ولكن
أبسطها هو أن نجلس هنا ونترك توبى يفحص كل عربة
تصل الى الموقف » *

ثم نظر الى قائلا : « هل أنت جائع ؟ » *
فأجيبته : « لقد تناولت افطارى فى القطار بينما أنت
نائم » *

— فنهض من مقعده وسلمنى مقود توبى : « حسنا
سأتناول قدحا من الشاى ، وسأكون فى البوفيه ، فقد يحالفنا
الحظ » .

استطعت الى غايته وعذب انا الى العربات وبدأت سسلى
السائقين علامات الاستغراب لسلوكى فكلما وصلت عربه
جديدة واخذت موقفها فى طابور الانتظار سرت انا وتوبى
تجاهها وساعدته على أن يشب على قدميه ويشم راسحها .
وأخذ بعض السائقين يتسلون بهذه المظاهرة التى اقوم بها
بينما اعترض أحدهم بشدة وكان وجهه سمينا أحمر اللون
يشبه الجزر ، واستطعت أنا رغم أن لغتى الألمانية كانت
تزيد عن لغة طلاب المدارس أن ادرك قلقه فقد كان يحشى
أن يسبرز الكلب (توبى) فى العربة . وقد بدت من توبى
فى احدى المرات علائم الرغبة فى ذلك الا أننى تداركت
الامر وسحبته بعيدا عن العربة .

ومضت نصف ساعة بهذه الطريقة وقبل أن تنتهى ظهر
هولز وهو يحمل حقيبتينا ووقف يراقب الموقف . ولم تدن
بنا حاجة الى الكلام ، وبعد فترة وجيزة اقترب منى وهو
يتنهد وقال : « لن تنفع الحكاية يا واطسون ولنذهب الى فندق
وسأحاول اجراء ترتيبات أخرى لا تبتئس يا صديقى » .
فقلت له لا بد أن هناك احتمالات أخرى . ونادينا على عربة .
وكانت آخر العربات التى تصل الى الموقف ، وكنا على وشك
ركوبها عندما صاح (توبى) صيحات الفرح وهو يهز ذيله
بشدة . ونظرنا أنا وهولز الى بعضنا البعض فى دهشة ثم
انفجرنا ضاحكين .

« من تأنى نال ما تمنى يا عزيزى واطسون » وتحول
الى سائق العربة . وكانت لغة هولز الألمانية أفضل من لغتى
ولكن بدرجة بسيطة . لقد كان يحفظ بالطبع نصوصا من
جوته وشيللر — منذ أيام الدراسة ولا نفع لها الآن — الا أن
معرفته بمعظم اللغات . فيما عدا الفرنسية التى كان

يتقنها) قاصرة على مفردات تتعلق بالجريمة . فكان يعرف ألفاظا مثل « جريمة » ، « قتل » ، « سرقة » ، « تزوير » ، « انتقام » وما الى ذلك فى مختلف اللغات بالاضافة الى بعض الجمل المتعلقة بهذه الأمور ، ولكن لا شئ بعد ذلك . وبدأ عليه الضياع وهو يتحدث الى سائق العربى محاولا وصف موريارتى ، وكان السائق مهذبا خاصة بعد أن منحه هولمز بعض النقود . وكان هولمز قد اشترى دليلا للغة الألمانية من احدى المنصات بجوار المقهى وراح يتصفحه عبثا لاستخراج الكلمات المناسبة . ولم تؤد جهوده الى نتيجة . وتقدم سائق آخر ممن كانوا جالسين يشاهدون حركاتى مع توبى قائلا أنه يعرف بعض الانجليزية ويمكنه المساعدة .

غمغم هولمز : « شكرا للسماء . . ان أقصى ما يوجد فى هذا الدليل هو « الجو جميل أليس كذلك ؟ » ووضع دليل اللغة الألمانية فى جيبه وتحول الى المترجم : « قل له أننا نريد منه أن يحملنا الى المكان الذى سبق أن حمل اليه راكبا آخر خلال الساعات القليلة الماضية » وأخذ يصف موريارتى وصفا تفصيليا . ونقل صاحبنا تلك الأوصاف الى السائق الآخر ، ولم يكد يمسى فى حديثه حتى أشرق وجه السائق وصاح : « آه نعم » وأشار لنا بالصعود الى المركبة .

وما أن جلسنا فى المركبة حتى قرقع بسوطه ، وانطلق بنا خلال الشوارع المزدحمة لمدينة يوهان شتراوس - أو متيرنيخ ، كل حسب تداعياته - ولم تكن لدى أية فكرة عن أين نحن أو الى أين نتجه ، فلم أذهب الى فيينا من قبل . ومررنا بميادين جميلة وتماثيل فخمة وأخذنا ننظر من النافذة الى أهل تلك المدينة المثيرين للاعجاب ، بينما هم لا يدرون بنا ولا بنظراتنا المتطلعة ويمضون فى حال سبيلهم .

استخدمت كلمة « نحن » فى وصف حالنا فى العبارة السابقة ، ولكنها فى الواقع لا تعبر الا عن ثلثي الحقيقة ، فقد كان الذى ينظر من النافذة هو توبى وأنا فقط ، أما هولمز فكان كشأنه فى تلك المناسبات ، لا يعير المناظر الطبيعية أى اهتمام مهما كان جمالها ورشاقتها ، واكتفى بملاحظة أسماء الشوارع التى نمر بها وأشعل غليونه واستند الى وسائد العربة وقد انشغل عقله بما نحن مقبلون عليه .

وانتبه عقلى فجأة ، اذ تذكرت أنا أيضا ما نحن مقبلون عليه . فبعد لحظات قليلة - اذا سار كل شيء على ما يرام - سنقف أنا وهولمز وجها لوجه مع الطبيب الذى اعتمد عليه اعتمادا كلياً فى شفاء هولمز . ترى ماذا ستكون استجابة هولمز ؟ هل سيتعاون ؟ بل هل سيعترف بما يعانيه ؟ هل سيقهر بالجميل أم سيثور غاضبا لتدخلنا فى شؤنه ؟ وكيف سينظر الى استخدامنا للحيلة فى استغفاله هو نفسه وسقياه من نفس الكأس التى طالما سقاها لغيره ؟

واستبعدت تلك الأفكار الأخيرة من ذهنى حالما خطرت به . فلم أكن أعول على عرفانه بالجميل ، ولن أندesh اذا لم يعبر عن ذلك فى ظل تلك الظروف . كلا لقد كان أهم ما يشغلنى هو أن يشفى ويتمافى ، واذا حدث ذلك فلن يضيرنى أن أتحمّل أى توبيخ أو ملام .

وتوقفت المركبة أمام بناية صغيرة ولكنها جذابة المنظر فى شارع جانبي لا يبعد الا عدة أمتار عن الشارع العمومى . وفاتنى فى غمرة انشغالى أن ألحظ اسم الشارع . وأشار لنا السائق بكل ما استطاعه من حركات أن هذا هو المنزل الذى حمل اليه الراكب الذى سألناه عنه .

ونزلنا من العربة ونقد هولمز السائق أجره بعد شيء من الجدل ، قائلا : « الاحتمال الأكبر أننا دفعنا أكثر مما ينبغى ولكن المسألة تستحق » وضعك بينما انصرف السائق الى حال

سبيله • وتحولنا الى المنزل وقرع هولمز الجرس ولاحظت
— بارتياح — وجود لافتة صغيرة تحمل اسم الرجل الذى
أتينا لرؤيته •

بعد لحظة فتحت لنا الباب خادمة جميلة ، ولكنها جفلت
عندما لاحظت وجود ذلك الكلب الغريب المنظر معنا •
وأخبرها شرلوك هولمز بهويتنا ، فأجابت بابتسامة ودعتنا
للدخول بلغة انجليزية « مكسرة » •

وانحنينا وتبعناها الى الداخل ، وجدنا أنفسنا فى بهو
صغير ولكنه أنيق ذو أرضية رخامية بيضاء • كان المنزل أشبه
بكمكة (فينواز) شوكلاتة مغطاة بكل أفانين حلويات
وزخارف درسدن وعلى أحد الجانبين سلم صغير ذو درابزين
أسود يؤدى الى بلكونة ظريفة المنظر تحيط بالبهو فى شكل
نصف دائرة فوق رؤوسنا •

— « تقدما من فضلكما » وأشارت الخادمة اليها كي نتبعها
وهي مازالت تبتسم • أدخلتنا الى مكتبة مكتظة يطل بابها
على الردهة • وبعد ما جلسنا عرضت علينا أن تأخذ توبى
لتوفر له شيئا من الطعام • ولكن هولمز رفض ذلك على الفور ،
برسمية وبرود ، ونظر الى نظرة ذات معنى من خلف الفتاة
وكانه يقول « أى طعام نتوقعه لبطلنا توبى تحت هذا السقف »
ولكننى قلت ان البروفيسور لن يجرؤ على القيام بحيلة
متهورة كهذه •

« حسنا ربما كنت على حق » وأخذ يقلب الأمر فى رأسه
وهو يبتسم فى برود الى الخادمة المبتسمة والتي ظلت واقفة
فى انتظار قرارنا • واستطعت أن ألاحظ أن علائم التعب
قد بدأت تظهر عليه مرة أخرى وأنه فى حاجة الى « حقنة »
وشكرت الخادمة وأسلمتها مقود توبى •

— « والآن يا واطسون • • ماذا يعنى كل هذا ؟ » وجه
هولمز الى السؤال بعد أن انصرفت الفتاة •

– « بصراحة لا أفهم شيئاً ومن قال لا أدرى فقد أفتنى » .
وتركت له حرية تفسير الموقف بطريقته .

– « ومع ذلك فالأمر واضح بما فيه الكفاية » ثم صحح نفسه « ولكنه شيطاني بدرجة مفرجة » وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو يتصفح الكتب الموجودة على الرفوف .
والتي رغم أنها كانت بالألمانية فقد كان من الواضح أنها ذات طبيعة طبية – على الأقل في الجانب الذي كنت أشاهده .

وكنت على وشك أن أسأل هولمز عما يعنيه بملاحظته تلك ، عندما فتح الباب ودخل الى الغرفة رجل ملتج، متوسط الطول ذو كتفين مائلتين الى الأمام وقدرت أنه في بداية الأربعينات من عمره – وقد علمت فيما بعد أنه في الخامسة والثلاثين . ومن خلال ابتسامته الضئيلة رأيت تعبيراً عن حزن لا نهاية له ، مقترنا – كما بدا لي – بحكمة بالغة .
وكانت عيناه أبرز شيء في ملامح وجهه ، لم تكونا واسعتين بشكل خاص بل كانتا داكنتين وغائرتين تظللهمما جبهة بارزة رفيهما نظرة شديدة النفاذ . وكان يرتدى حلة غامقة وتبدو من تحتها سلسلة ذهبية مشبوكة في صدره .

– « صباح الخير يا هولمز » قالها ولكنها واضحة ولكن بانجليزية سليمة .

– « لقد كنت أتوقع مجيئك وأنا مسرور لحضورك » وأضاف ملتفتاً الى وعلى وجه ابتسامة مشجعة ومد يده مصافحاً : « ومسرور لحضورك أيضاً يا دكتور واطسون » .
أما أنا فكنت أنظر الى هولمز وعيناي لا تبرحان وجهه .

– « تستطيع أن تزيل تلك اللحية المضحكة » قالها هولمز بذلك الصوت المرتفع الذي سمعته منه يوم اندفع داخلاً الى

منزلى بشكل ميلودرامى ، ثم سمعته فى اليوم التالى عندما
 زرتة فى منزله « ومن فضلك توقف عن استعمال تلك المكينة
 السخيفة التى تشبه الأوبرا كوميك » • « ألا تدرك بأنه ان
 لم تعترف فسوف تواجه موقفا صعبا • لقد انتهت اللعبة
 يا بروفيسور موريارتى » واستدار مضيفا ببطء موجهها
 اليه تلك النظرة النفاذة وقال بصوت ناعم : « ان اسمى هو
 سيجموند فرويد » •

الفصل السابع

تجربتان

انقضت فترة طويلة من الصمت ، أدى شيء فى سلوك الطبيب بهولمز الى أن يتوقف متمعنا * ومع أنه كان مهتاجا ، الا أنه سيطر على نفسه بمجهود واضح ، واقترب من الطبيب ، الذى كان قد استقر بهدوء على مقعد خلف مكتبه «المكركب» ، وأخذ ينظر اليه بثبات لعدة لحظات ثم أطلق تنهيدة وقال : « لا لست البروفسور موريارتى * * ولكن لقد كان موريارتى هنا فأين هو الآن » ؟ * *

أجاب الآخر وهو مازال محتفظا بجلسته : « فى فندق على ما أعتقد » : تلقى هولمز الصدمة ، واستدار وجلس على مقعد ، بينما علت وجهه تعبيرات عن الهزيمة لا يمكن وصفها * .

وتحول الى وقال : « وماذا بعد يا يهوذا الاسخريوطى هنيئا لك تسليمى الى الأعداء ، أرجو أن يجزلوا لك العطاء مقابل ما تكبدته من مشاق لأجلهم » * . كان يتكلم بلهجة فاترة ذات عزم وتصميم ، بحيث كادت تقنعنى لولا أنني أعلم علم اليقين أنه كان مخطئا * .

واحمر وجهى غضبا للصفة التى ألصقها بى وصحت فيه : « هذا لا يليق يا هولمز » * .

— « لا تقلب الآية يا واطسون ، ومع ذلك فلا داعي
للشجار لقد تعرفت على آثار أقدامك خارج منزل البروفسور
وعندما رأيت حقيقة السفر التي حملتها أدركت انك تعرف
اننا ذاهبون في رحلة » .

كما علمت من حجم ما حملته من أشياء انك كنت تعرف
مقدما الوقت الذي ستستغرقه الرحلة . انك قد استعددت
لرحلة طويلة هي تلك التي قطعناها بالضبط . وكل ما أريد
معرفته الآن هو أن تخبرني بخطتك بعد أن وقعت في
قبضتك . » .

— وتدخل سيجموند فرويد بهدوء قائلا : « لو سمحت لي
بكلمة ، أعتقد أنك تخطيء في حق صديقك خطأ كبيرا .
انه لم يحضر الى قاصدا اي قاع أى أذى بك » .

كان فرويد يتحدث بيسر واطمئنان وثقة رغم انه كان
يتحدث بلسان أجنبي . فعاد هولمز الى تركيز انتباهه عليه
واستطرد فرويد قائلا : « أما بالنسبة للبروفسور موريارتى
فقد دفع له أخوك والدكتور واطسون مبلغا كبيرا من المال
ليقطع هذه الرحلة على أمل انك ستتبعه حتى باب منزلي » .
— « ولماذا يفعلان ذلك ؟ » .

— « لأنهما اعتقدا أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي
تجبرك على رؤيتي » .

— « ولماذا كانا يتلهفان على ذلك ؟ » .

وأدركت أن هولمز كان مضطربا ولكنه كان يخفى ذلك
الاضطراب فلم يكن بالرجل الذي يقع في نفس الخطأ
مرتين .

– وواجهه الطبيب قائلا : ترى ماذا يخطر ببالك من أسباب ؟

على أى الأحوال لقد قرأت الحالات التى نشرتها ، كما رأيت لتوى لمحة من مواهبك المدهشة . والآن فلتقل لى . من أنا ولماذا تلهف صديقك على أن تقابلنى ؟ »

ونظر اليه هولمز ببرود *

– لا أستطيع أن أخبرك بشئ زيادة على الحقائق التالية ، فأنت طبيب يهودى لامع ولد فى المجر ودرس لبعض الوقت فى باريس ، وقد أبعدتك بعض نظرياتك الراديكالية عن الوسط الطبى بحيث دفعتك الى قطع علاقاتك بمختلف المستشفيات والجمعيات الطبية اضافة الى انك قد توقفت عن ممارسة الطب ونتيجة لذلك لا أستطيع أن أستنتج شيئا آخر *

أنت متزوج وتقدر قيمة الشرف وتعجب لعب الورق وقراءة شكسبير ومؤلف روسى آخر يصعب على نطق اسمه . ولا أرى مزيدا يمكن اضافته الى ذلك *

– وحملق فرويد فى هولمز وهو فى شدة الدهول ثم ، فجأة أشرقت ابتسامة على وجهه كانت مفاجأة لى اذ كانت أشبه بتعبير طفلى من الدهشة والاستمتاع *

– وصاح « هذا شئ مدهش ! » *

– أجابه هولمز : « هذا أمر عادى ، ومازلت أنتظر تفسيراً لهذه الخدعة الماكرة التى لا تطاق ، هذا اذا كانت خدعة على الاطلاق . ويستطيع الدكتور واطسون هنا أن يخبرك انه

من الخطورة بمكان أن أترك لندن لفترة طويلة من الوقت
اذ أن ذلك سيخلق لدى فئات المجرمين نوعا من النشاط
الضار عندما يكتشفون غيابي .

— وأجابه فرويد وهو لا يزال مبتسما من الاعجاب :
« ومع ذلك أنا في شدة الشوق لمعرفة كيف تمكنت من تخمين
تفاصيل حياتي بمثل هذه الدقة الرائعة » .

— وصححه هولز قائلا: « أنا لا أخمن قط فالتخمين عادة
كريمة مدمرة للمنطق » .

ونفض من مقعده ولمحت في كلامه بداية ذوبان الثلوج
رغم أنه حاول ألا يظهر ذلك . فقد كان هولز شديد الغرور
والاعجاب بنفسه كفتاة صغيرة عندما يتعلق الأمر بمواهبه
ولم يكن هناك شيء من شبه النفاق أو المن في اعجاب الطبيب
النمساوي ، بدا على هولز أنه مستعد أن ينسى الخطر الذي
يفترض أنه متعرض له وأن يستمتع حتى الثمالة بأخضر
دقيقة .

« ان المكتب الخاص هو مكان مثالي للملاحظة جوانب طبع
الانسان » هكذا بدأ هولز حديثه بلهجة أليفة ذكرتني بأستاذ
التشريح وهو يشرح دخائل وتفاصيل الهيكل العظمي أمام
طلبته ، « هذا المكتب يخصك انت تماما هذا واضح من الغبار
فحتى الخادم لا يسمح لها بالدخول والا ما كانت تترك
الأمر تصل الى هذا الوضع » ومر بأصابعه على كموب بعض
الكتب المجاورة له مبينا أثر التراب على أصبعيه ، وبدأت
على فرويد علائم الاغتياب وهو يقول : «استمر أرجوك» .

« حسن ، عندما يهتم شخص بالديانات ويمتلك مكتبة عامرة ، فانه عادة ما يحتفظ بكل الكتب التي تتناول موضوعا بعينه فى مكان واحد ومع ذلك فان القرآن والانجيل وكتاب المورمون وغير ذلك من الكتب المشابهة توجد متفرقة وبعيدة فى الواقع عن النسخة المجلدة الفاخرة من التلمود والانجيل العبرى . وعلى هذا فان هذين الكتابين لا يدخلان ضمن دراساتك فحسب وانما يحتلان مكانة خاصة ، وما دلالة ذلك ؟ الا أن تكون أنت من أتباع الديانة اليهودية . ويؤكد ذلك الاستنتاج الشمعدان التساعى على مكتبك ، انهم يسمونه المنارة . . أليس كذلك ؟ »

« اما دراستك فى فرنسا فقد استنتجتها من العدد الكبير من الكتب الطبية الفرنسية بما فى ذلك عدد من الكتب من تأليف من يدعى شاركوه . والطب ، كما تعلم ، موضوع معقد ولا يدرسه الانسان فى لغة أخرى لمجرد المتعة . أضف الى ذلك أن مظهر هذه الكتب يدل بوضوح على انك قضيت ساعات طويلة فى تصفحها . وأين يمكن لطالب ألماني أن يقرأ كتباً طبية بالفرنسية الا فى فرنسا ؟ واذا مضيت فى استنتاجاتى بعيدا فان مظهر كتب شاركوه بال من كثرة الاستعمال (ويبدو اسمه مألوفاً لدى) مما يجعلنى أخاطر بالقول انه كان مدرسك أو أن كتاباته لها جاذبية خاصة لديك وأعتقد أن لها صلة بتطوير أو نمو أفكارك أنت ويمكن التسليم بأنه لا يستطيع الا عقل فذ أن يجوس خلال ألفاظ الطب فى لغة أجنبية هذا اذا غضضنا الطرف عن الاهتمام بموضوعات متنوعة أراها متمثلة فى الكتب التى تمتلىء بها هذه المكتبة . »

وأخذ يجول فى أنحاء الغرفة كما لو كانت مختبرا
لا يلقي الينا بالا بينما هو يتابع محاضراته .

وكان فرويد يلاحقه بنظراته بينما دس أصابعه فى
صدير ريته دون أن يكف عن الابتسام .

— « أما انك قارىء لسكسبير فقد استدلت عليه من واقع أن الكتاب قد وضع على الرف مقلوبا بحيث يستحيل عليك أن تخطئه في وسط هذا الكم من الأدب الانجليزي . الا أن وضعه مقلوبا يجعلنى أظن انك تنوى بلا شك أن تعود اليه في القريب العاجل مما أدى بى الى الاعتقاد انك مغرم بقراءته . أما بالنسبة للكاتب الروسى . . — وقاطعه فرويد « دوستيوفسكى » نعم دوستيوفسكى — ان عدم وجود الغبار على كتبه — وبالمناسبة لا يوجد غبار أيضا على كتب شكسبير — يفصح عن اهتمامك المستمر به . أما انك طبيب فهذا واضح لى من شهادة بكالوريوس الطب المعلقة على ذلك الحائط . أما انك لا تمارس الطب فهذا واضح لى أيضا لوجودك فى المنزل فى منتصف النهار دون أن يندو عليك القلق بشأن مواعيدك . وقد وضع لى ابتعادك عن مختلف الجمعيات الطبية من وجود فراغات بين الأشياء المعلقة على الحائط والتي لا شك انها كانت مخصصة لشهادات أخرى ويبدو دهان الحائط فى هذه الأماكن باهتا كما يشير اطار من النبار الى الأمكنة التى كانت تلك الشهادات معلقة فيها . والآن ما الذى يجبر رجلا على ازالة مثل تلك الشهادات الدالة على نجاحه ؟ ولماذا توقف عن أن يربط نفسه بهذه الجمعيات والمستشفيات فقط . ولماذا يفعل ذلك بعد أن سعى لينضم اليها ؟ يَحْتَمِلُ أن واحدة أو اثنتين منها قد خيبت ظنك ولكن ليس كلها وفى نفس الوقت ولذلك فقد استنتجت أن تلك الجمعيات والهيئات هى التى لم تعبد ترضى بك يا دكتور وطلبت منك أن تستقيل من عضويتها . ولماذا يفعلون ذلك فمازلت تعيش فى نفس المدينة التى حدث فيها كل ذلك ؟ وهكذا فان موقفا اتخذته — ومن الواضح انه موقف مهنى — قد أسقطك من أعينهم وبالتالي فقد طلبوا منك جميعا أن تتركهم . ترى ما هو هذا الموقف ؟ ليست لدى أية فكرة ولكن مكتبتك ، كما سبق أن لاحظت ، تدل على عقلية بعيدة المدى متطلعة وثاقبة . ولذلك فقد أبحث لنفسي أن

يسرّض انك آتيت بنظرية زاديكالية ، أكثر تقدما ، أو صادمة بحيث لا تتقبلها عقلية الدوائر الطبية المعاصرة بسهولة . وربما تتعلق تلك النظرية بأعمال السيد شارحوه والدى يبدو ان له تأثيرا كبيرا عليك . غير أن هذا أمر غير مؤكد أما الشيء المؤكد فهو انك متزوج كما هو واضح من الخاتم الموجود فى يدك اليسرى ، كما أن لكنتك البلقانية تشير الى المجر أو مورافيا . ولا أعتقد اننى قد أغفلت أى شىء مهم فيما أدليت به » .

— فقال فرويد : « لقد قلت ان للمشرف عنيدى منزلة كبيرة » ، فأجابه هولمز « انى أمل فى ذلك فقد استنتجته من حقيقة انك كلفت نفسك عناء ازالة تلك الشهادات التى أصدرتها تلك الجمعيات التى توقفت عن الاعتراف بك . وقد كان من الممكن أن تبقيا داخل حجرتك الخصوصية ومنزلك الخاص لتستفيد منها ولكنك أبيت ذلك » .

— « وماذا عن حبى للعب الورق ؟ » .

— « آه هذه نقطة تحتاج الى مهارة شديدة ولكننى لن أقلل من شأن ذكائك بأن أصف لك كيف وصلت اليهبا . ولكننى أحب أن أتوجه اليك بكل صراحة وأسألك أن تخبرنى عما أتى بى اليك . أعتقد أننى لم آت الى هنا لأعرض براعتى فى الاستنتاج » .

وأجابه فرويد ولا تزال الابتسامة على شفثيه والاعجاب بهولمز مرسوما على وجهه : « لقد سبق أن سألتك ما هى فى رأيك الأسباب التى أدت الى الاحتياى عليك واحضارك الى هنا » .

— وأجابه هولمز وفى صوته نوع من الحدة : « ليست لدى أية فكرة ، فاذا كنت واقعا فى مشكلة فأخبرنى وسأفعل

كل ما فى جهدى لمساعدتك ، ولكن ما الذى يجعلك تتكلف كل هذا العناء لتأتى بى اليك بهذه الطريقة • •

— وقاطعه الطبيب قائلاً بلطف : « الآن أنت الذى أصبحت غير منطقي • فكما استنتجت ، باقتدار لست أعانى من مشكلة بعينها اللهم الا تلك المشكلة الهينة التى أشرت اليها » وأوماً بهزة بسيطة من رأسه الكبيرة فى اتجاه الشهادات المنزوعة : « وكما أشرت أنت فان الطريقة التى اتبعت لاحضارك الى هنا لم تكن تقليدية الى أبعد درجة • ومن الواضح اذن أننا لم نكن نعتقد أنك كنت ستأتى الى هنا طواعية • ألا يوحى هذا بشيء اليك ؟ » •

— وأجاب هولمز رغماً عنه : « اننى لم أكن أرغب فى المجيء • » •

— « بالضبط • ولماذا ؟ لن يكون ذلك بسبب انك تخشى أن تؤذيك — قد أكون أنا عدوك وقد يكون البروفسور موريارتى كذلك بل وحتى الدكتور واطسون ولكن هل من المحتمل أن ينضم أخوك الى صفنا ؟ هل من المحتمل أن نكون كلنا عصابة ضدك ؟ ولماذا ؟ فاذا لم نكن ننوى بك شراً فربما ننوى بك خيراً ، هل فكرت فى ذلك ؟ » •

— « وما هو ذلك الخير يا ترى ؟ » •

— « ألا تستطيع أن تخمن ؟ » •

— « أنا لا أخمن قط ولكنى لا أستطيع أن أفكر فى السبب • » •

— واضطجع فرويد فى كرسيه وقال : « لا تستطيع ؟ اذن فأنت لم تصل الى مستوى الصراحة المطلوب ، انت ياهر

هولمز تعانى من ادمان فظيع وقد اتهمت أصدقائك بالوقوع فى الخطأ وهم الذين تكاتفت جهودهم لمساعدتك على التخلص من هذا البلاء بدلا من أن تعترف بأنك مذنب . لقد خيبت ظنى فيك يا سيدى أهذا هو هولمز الذى قرأت عنه ؟ الرجل الذى أعجبت به لا بسبب ذكائه الفذ فحسب وانما لفروسيته النبيلة وحبه للعدل واحساسه بمعاناة المظلومين ؟ أنا لا أصدق انك قد استسلمت لسلطان هذا المخدر وانك فى أعماق نفسك لا تعترف بالمشكلة التى تعانىها بالاضافة الى نفاقك فى ادانة هؤلاء الأصدقاء العظام الذين لم يدفعهم الا حبهم لك واهتمامهم بأمرك ليتكلفوا مثل هذا العناء فى معاونتك »

— حبست أنفاسى فى رهبة فلم أسمع قط طيلة حياتى مع شرلوك هولمز شخصا يخاطبه بتلك الطريقة وخشيت للحظة أن ينفجر غضبه بعنف ولكنى لم أقدره حق قدره أما سيجموند فرويد فقد أبصر معدنه .

وران الصمت مرة أخرى لفترة طويلة . وجلس هولمز ساكنا وقد أحنى رأسه ولم يرفع الطبيب عينيه عنه وساد الغرفة سكون كسكون الموت .

وأخيرا تكلم هولمز . بصوت خافت يكاد لا يسمع :

— « نعم أنا مذنب ، ولا أدعى أعذارا . أما بالنسبة للمساعدة فيجب أن تنزعوها من رءوسهم تماما . لقد وقعت فى قبضة هذا المرض اللعين ولسوف يقضى علي . ولا تحاولوا ادخال الطمأنينة الى نفسى يجب ألا تفعلوا ذلك . لقد استخدمت كل ما لدى من ارادة وعزم للقضاء على تلك العادة ولم أستطع أن أفعل حيالها شيئا . واذا كنت أنا، بكل عزمى وتصميمى ، لم أنجح فهل ستكون لديكم أنتم الفرصة ؟ ان المرء ما أن يضع قدمه على هذا الطريق ويخطو تلك الخطوة

الخاطئة فانه لن يستطيع أن يحول نفسه عن ذلك المجرى المؤدى الى دماره ؟ » .

– و أدركت ، وأنا جالس في ركن الغرفة أن فمي كان مفتوحا من الدهشة وان صدرى كان ينتفض من الانفعال .
وتكهرب الجو ولم أجرؤ على التدخل الا أن الدكتور فرويد قطع الصمت .

– قال فرويد وهو يميل الى الأمام بجديّة شديدة .
وقد لمت عيناه :

« ان قدميك لم توضعا على هذا الطريق بطريقة لا رجعة فيها » . فالمرء يستطيع أن يستدير راجعا ويترك طريق الدمار صحيح انه سيحتاج لبعض المساعدة ولكن طريق الموت هذا يمكن الرجوع عنه .

– وقال هولز بصوت بائس مخنوق الأنين بحيث مزق نياط قلبى :

« كلا ان هذا الطريق محتوم فلم يفعل أحد قط ما تقول به » .

وقال فرويد :

– « لقد فعلت أنا ذلك » .

– « أنت ؟ »

وأوما فرويد برأسه : « لقد تعاطيت الكوكايين وتخلصت منه ، واذا سمحت لى فلسوف أساعدك على أن تتخلص منه أيضا » .

– وصاح هولز بصوت متقطع : « لا أظن أنك تستطيع ذلك » ورغم احتجاجه وعدم اقتناعه الا أن نغمة صوته أخبرتنى كم يأمل فى ذلك .

— بلى « أستطيع » •

— « كيف ؟ » •

— « سيستغرق ذلك وقتا » • ونهض واقفا • « وخلال تلك الفترة لقد رتبت لكما أن تعيشا فى منزلى كضيوف هل يناسبكما ذلك ؟ » •

— ونهض هولز بشكل أوتوماتيكي وخطا الى الأمام ولكنه فجأة دار حول نفسه وطرق جبينه بيده وصاح : « لا فائدة اننى أشعر الآن بهزيمتى أمام ذلك الالاحاح القهرى » •

— ونهضت من مقعدى وأنا أفكر فى محاولة النسرية عنه بعبارات التشجيع ولكنى توقفت مدركا عبث ما سأقوم به •

ودار فرويد ببطء حول مكتبه ووضع يده الصغيرة بلطف على كتف صديقى وقال : « سنستطيع ايقاف هذا الشعور القهرى ولو لفترة اجلس من فضلك » وأشار الى الكرسي الذى كان هولز قد نهض منه لتوه بينما جلس هو على حافة المكتب • وأطاع هولز فى سكون وجلس منتظرا وقد بانث عليه علائم التشاؤم والتعاسة •

وسأله فرويد : « هل تعرف شيئا عن التنويم ؟ » وأجابه هولز بملل : « هل ستجعلنى أنبح كالكلب أو أزحف على يدي وركبتي ؟ » •

— « اذا تعاونت معى ووثقت بى سأستطيع تخفيض درجة الاشتياق للمخدر عندك لفترة • وعندما تظهر عليك مرة أخرى علامات الاشتياق فسوف أنومك مرة أخرى وبهذه الطريقة المفتعلة ستخفض درجة الإدمان لديك ونترك

شرلوك - ١٢٩

لكيميائى جسمك اكمال المهمة » ، وكان فرويد يتكلم ببطء وهو يبذل جهده للسيطرة على الهلع والفرع الذى بدأ يظهر على هولمز .

وتفحصه هولمز لفترة من الوقت بعد أن فرغ من حديثه ثم هز كتفيه مستسلما فى كبرياء . وجلس الدكتور فرويد تنهيدة الارتياح فى صدره ، وكما بدا لى تحرك نحو النافذة وأسدل الستائر مغرقا الحجرة فى شبه ظلام .

وتحول الى هولمز وأتى بمقعد وضعه قبالتة ، وقال له : « الآن انظر بعينين ثابتتين فى هذه » وأخرج من جيب صدره ساعة مدلاة من سلسلة وأخذ يحركها ببطء الى الأمام والى الخلف أمام عينيه .

الفصل الثامن

اجازة في الجحيم

كانت معارضة البروفسور موريارتى ونفوره في البداية من أن يأخذ توبى معه ويعود به الى لندن نوعا من الموقف الكوميدي الذي يسرى عن النفس في نهاية أسبوع مزعج . فقد ألقى نظرة واحدة على الكلب عندما أحضرته اليه في فندقه ذلك اليوم - وأعلن انه رغم أنه رجل طيب (كما وضع من موافقته على السفر الى فيينا) ولكن هناك حدودا لكل شيء وان كرمه يستحيل أن يصل الى ذلك الحد .

- وقال وهو ينظر من فوق عويناته الى توبى ، الذي بادله النظرات معبرا عن رغبته وحماسه بطريقته الخاصة : « هذا يتعدى طاقتى أنا رجل صبور يائس صحيح ولكن صبور فقط يا دكتور واطسون . فلم أفتح فمى بكلمة بشأن خلاصة الفانيليا التي أفسدت زوجا جديدا من الأحذية ؟ ألم يحدث هذا ؟ ولكن هذا كثير ، أنا لن أنقل معى هذا الحيوان الى لندن ، كلا ثم كلا » .

- كنت في حالة مزاجية لا تسمح لى بمناقشة توافه الأمور ، وأخبرته بذلك وأن أقصى ما يمكننى السماح به هو أن يضع توبى مع العفش ، أما إعادة الكلب الى شارع بينشن فهذا أمر محسوم . وأشارت الى ما سيقوله مايكروفت هولمز . وتراجع موريارتى وهو مازال يئن ووافق بالفاظ وغمغمات غير مفهومة .

وكننت متعاطفا مع شكواه ولكن لم يكن بوسعى قبولها .
فقد كانت أعصابى قد وصلت الى درجة الانهيار ، وكان
الشيء الوحيد الذى هدأ روعى وصول برقية من زوجتى
تخبرنى بأن كل شيء على ما يرام ، ولكن كان هذا أقل من
المطلوب بكثير .

ربما كانت محاولة شلوك هولمز لكسر قيود الكوكايين ،
الذى كان قد غاص فى أحواله ، أشق مجهود بطولى شاهدته
فى حياتى . فلا أتذكر سواء فى حياتى المهنية أو خبرتى
الشخصية وسواء فى حياتى العسكرية أو المدنية أننى شاهدت
شيئا يقارب العذاب والألم الذى شاهدته .

كان اليوم الأول للدكتور سيجموند فرويد ناجحا . فقد
تمكن من تنويم هولمز ووضع فى سبات عميق فى إحدى
الغرف التى وضعها تحت تصرفنا فى الطابق الثانى من
منزله . وما أن رقد هولمز على السرير حتى جذبنى فرويد
من كمى وأمرنى قائلا : « هيا بسرعة يجب أن نفتش
أمثته » .

وأومات برأسى ، ولم تكن بى حاجة لأن أعرف ما الذى
سنبحث عنه . وبدأنا ، نحن الاثنين ، فى التنقيب فى الشنطة
القماشية الحمراء الخاصة بهولمز وكذلك فى جيوب سترته .
وكان ذلك ضد مبادئى فلم يسبق لى قط أن انتهكت حرمة
خصوصيات صديقى . ولكن الهدف كان ساميا والرهان
عاليا ، وقويت قلبى وأنا أقوم بتلك المهمة .

ولم نجد أية صعوبة فى اكتشاف قنينات الكوكايين .
لقد جلب هولمز معه الى فيينا كميات هائلة من المخدر .
وتعجبت وأنا أستخرجها من ثنايا حقيبتيه كيف لم أسمع
رئيسها وهى تحتك ببعضها أثناء الطريق ، ولكن هولمز كان
قد احتاط لذلك بأن لفها فى الغطاء المخملي الاسود الذى

يستعمله عادة ليغطي به الكمان (الاستراديوفاريوس) فى حقيقته . وكتمت الما فى صدرى وأنا أرى كيف أساء استخدام ذلك القماش وتابعت اكتشاف القنينات واعطاءها للدكتور فرويد الذى كان قد فرغ لتوه من تفتيش دقيق لجيوب الملابس وعباءة السفر حيث اكتشف بدوره قننيتين أخريين .

— وقال : « أعتقد أننا قد حصلنا على كل ما لديه » .

— فقلت : « لا تكن متأكدا هكذا فنحن لا نتعامل مع مريض عادى ؟ » . هز كتفيه وهو يراقبنى وأنا أنزع غطاء احدى القنينات وأبل اصبعى بالسائل الصافى الموجود بها وأذوقها بلف لسانى .

— وصحت : « ماء » .

— « أيمكن هذا ؟ » . واختبر فرويد محتويات بفيه الزجاجات ونظر الى فى دهشة بالغة بينما كان هولمز يتقلب فى فراشه خلفنا . « أين خباها اذن ؟ » .

وأخذنا نقدح زناد أفكارنا ونحن متوجسان خشية أن يستيقظ النائم وتبدأ مشاكلنا الحقيقية . لقد كان من المؤكد أن تكون هنا فى مكان ما . وأفرغنا كامل محتويات الحقيبة على السجادة الشرقية الفاخرة وفحصنا محتوياتها القليلة التى جلبها هولمز معه من لندن . وفتشنا ملابس الداخلية فلم نجد شيئا كما فتشنا علب وأدوات التنكر التى يحملها معه فى العادة . ولم يتبق أمامنا الا بعض العملات الانجليزية . ومجموعة غلايينه المعتادة . فكان هناك الغليون الأسود المصنوع من خشب الورد والآخر المصنوع من الخزف والثالث الطويل المصنوع من خشب الكرز وكانت كلها معروفة لى ، ولم يكن بها مكان يمكن اخفاء شيء فيه . الا ان

كان هناك غليون لم آره من قبل كبير الحجم نوعا ما وعندما تناولته فوجئت بأن وزنه أثقل مما يوحى به شكله . فنزعت سداده وقلبت فوهته فسقطت منها قنينة صغيرة .

ـ « الآن أدركت ما تعنيه ، ولكن أين البقية ؟ لا توجد غلايين أخرى » . ونظرنا الى بعضنا البعض وفى لحظة واحدة مددنا أيدينا الى جوف الحقيبة وكان فرويد اسبق منى فرفع الحقيبة بيده ليجس ثقلها وهو يهز رأسه . وناولها لى وهو يهمهم : « انها أثقل كثيرا » وطرقت بأصابعى على قاعها فصدر عنه صوت أجوف مكتوم . وصحت مندهشا « فاع مزيف » . وبدأت فى نزع القاع الخشبى وتبدى لنا تحته خزان الدوكاين حيث رفدت فوارير ملفوفة باوراق الصحف ومعها المحفن الذى لف بعناية فى قماش مخملى أحمر داخل صندوق صغير أسود ، ودون ان ننبس بكلمه استولينا على الكنز بما فى ذلك قوارير الماء ، وأعدنا القاع الخشبى الى ما كان عليه وكذلك محتويات الحقيبة وخرجنا من الغرفة ، حيث قادنى فرويد الى حمام صغير فى الطابق الأول فأفرغنا كافة المحتويات السائلة التى عثرنا عليها فى الحوض ووضع فرويد المحقن فى جيبه وصحبنى الى المطبخ ، حيث كانت الخادمة باولا التى أعطتنى مقود الكلب توبى وخرجت متجهة الى الفندق الذى ينزل به موريارتى .

ولابد لى من وقفة هنا لأصف المدينة ، التى وجدت نفسى فيها والتى قدر لى أن أقضى بها بعض الوقت .

فينا عام ١٨٩١ ، كانت العاصمة الامبراطورية فى نهاية عصر ازدهار وكانت مختلفة تماما عن لندن فى نفس الفترة اختلاف البحر عن الصحراء . فكانت لندن عادة رطبة يلفها الضباب ، تتصاعد منها روائح كريهة ، ويقطنها على

الأغلب ناس يتكلمون لغة واحدة ، ولم يكن بها أى شبه
بمركز امبراطورية آل هابسبورج الآيل الى الزوال •

فبدلاً من وجود لسان واحد • كان المواطنون يتخاطبون
بلغات متعددة مستمدة من كافة أرجاء المملكة النمساوية —
الهنغارية • ورغم أن هذه القوميات المتنوعة كانت تميل الى
العيش فى أحياء خاصة بها الا أن المناطق متداخلة • ومن
المعتاد أن ترى الباعة المتجولين من السلوفاك ينادون على
مشغولاتهم اليدوية فى الأحياء الراقية ، بينما تسير سريه
من المشاة البوسنيين فى طريقها الى استعراض عسكري ، وباعة
الليمون من مونت نيغرو (الجبل الأسود) وسنانى السكاكين
من الصرب ، هذا الى جانب أهل التيرول ومورافيا وكرواتيا ،
واليهود والهنغاريين والمجريين البوهيميين كل يسعى لما
جاء من جله •

أما المدينة نفسها فكانت تنمو فى دوائر مركزها
كاتدرائية سانت اسطفان • وفى هذا المركز توجد أقدم
(وأشيك) أحياء المدينة • فيه شارع جارين اشد الشوارع
ازدهاما وامتلاء بالمقاهى والمحلات ، والى الشمال منه يقع
شارع برجاس الذى يقطن فى ١٩ منه الدكتور فرويد •
الى يساره تقع قصور هوفبورج والمتاحف • والحدائق
الجميلة التى يعتنى بها أشد الاعتناء • وخارج تلك الدائرة
الداخلية ينتهى قلب المدينة • أما الأسوار التى كانت تحيط
بالمدينة للدفاع عن فيينا العصور الوسطى فقد تهدمت
وسقطت من زمن بعيد ، وامتدت المدينة الى ما بعدها بكثير •
ولكن آثارها باقية فى شكل شارع عريض يخترق المدينة
كلها وله فى كل منطقة اسم مختلف ولكنه يعرف عموما
بالطريق الدائرى وينتهى عند نهر الدانوب شمال شرق
كاتدرائية اسطفان •

وكانت المدينة — كما لاحظت — قد تخطت حدود العصور

الوسطى بكثير ، المتمثلة فى الطريق الدائرى ، وفى عام ١٨٩١ كانت قد تخطت ايضا « جورتل » وهو شارع واسع عريض آخر كانت أجزاء منه لا تزال تحت الاعداد عندما كنت هناك . وكان « الجورتل » يوازى بدرجة أو باخرى الطريق الدائرى ، وكانت نهايته الجنوبيه الغربيه تقع تقريبا فى منتصف المسافة بين كاتدرائية سانت اسطيفان وقصر شونبرون ، قصر الامبراطورة ماريا تريزا المقابل « الهابسبورجى » لفرساي .

والى شمال قصر شونبرون والى اشرق فليدلى الزمان الخامس عشر تقع « بايهوف » محطة السكك الحديدية ، التى زلنا فيها انا وهولمز عند وصولنا الى فيينا . وتوجد محطة اخرى اشرى واضمح الى الشمال الشرقي من المدينه فى الزمان الثانى عبر نهر الدانوب وتقع فى وسط حى يعلبه اليهود تسمى محطة ليوبولد (ليوبولد شتادت) . وفى هذا الحى تربى فرويد وهو صغير - كما أخبرنى - عندما سكنه ان فرويد عند نزوحهم اول مرة الى المدينه .

أما المنزل الذى يقطنه فرويد حاليا فهو اكثر ملائمة من الناحية المهنية (لقد أخطأ هولمز فى أحد استنتاجاته ، اذ كان فرويد لا يزال يمارس الطب) اذ كان قريبا من مستشفى كراكنهاوس ، أعظم مستشفى تعليمى فى فيينا ، والذى كان يعمل به من قبل ، اذ كان يعمل فى قسم الطب النفسى تحت رئاسة الدكتور ثيودور ماينرت ، والذى كان يكن له اعجابا شديدا .

وكان ماينرت - شأنه شأن فرويد - يهوديا ، ولم يكن هذا أمرا لافتا للنظر فى الدوائر الطبية فى فيينا ، والتى كانت - كما أخبرنى فرويد - مليئة باليهود . وبدأ أنهم يسيطرون على جانب كبير من الحياة الثقافية والعقلية فى المدينه . ولم أكن قد قابلت فى حياتى كثيرا من اليهود

وبالتالى فلا أعرف الكثير عنهم ، الا أننى أستطيع القول بصراحة اننى لا احمل فى نفسى أى تحيز ضدهم ، ذلك التحيز الذى يتشأ عادة عن الجهل • ولم يكن فرويد - كما احتشمت فيما بعد - شخصا ذكيا لماحا ومتقفا فحسب انما كان ايضا رجلا طيب القلب • وفيما يتعلق بى (رغم أنى كنت لا أوافق على بعض نظرياته التى وجدتتها - صراحة - صادمة) كانت تلك الفضائل أكثر وزنا بكثير من عقيدته ، والتى كانت - بالمناسبة - موضع شك منه •

اننى أدرك أننى قد شطحت بالفارىء وخرجت عن وصف المدينة • ولذلك لا بد من العودة الى قصتى ، وعلى اية حال فأنا لم اعرف فيينا دفعة واحدة وانما على اجزاء ، اما عن الاماكن والاجزاء التى جذبت انتباهى خلال افامتى فليسوف ننطرق اليها فى حينها •

بعد أن تركت توبى مع راعيه المنأف ، انطلقت فى طريقى الى «الجارين» حيث توجد مقهى «جرين شتيدل» والتى كانت تحتل موقعا متميزا فى منتصف الشارع ، وكنت على موعد مع الدكتور فرويد ، فى حالة بقاء صديقى هولمز نائما •

والحق أن وصف «جرين شتيدل» بالمقهى لا يفيها حقها أبدا لأنها لا تشبه بأية حال ما نعينه نحن الانجليز بهذه الكلمة • فالمقاهى فى فيينا أقرب الى نوادى لندن ، اذ انها مركز التبادل الثقافى والعقلى ، حيث يمكن للمرء أن يقضى فيها يوما طيبا ولا يذوق رشفة من القهوة • وكانت «جرين شتيدل» تعج بمناضد البلياردو ومجالس الشطرنج ورفوف الصحف والكتب • أما «الجرسونات» فكانوا فى غاية الكفاءة يغيرون كل ساعة كوب الماء الموضوع أمامك على الطاولة سواء طلبت أو لم تطلب • وكانت المقاهى هى المكان الذى يلتقى فيه الرجال ليتبادلوا الحديث والأفكار أو ليقروا أو

ينفردوا بأنفسهم كما كانت أيضا مكانا يزيد فيه وزن الانسان ، اذ أن قائمة الطعام كانت تشمل أفخم الفطائر والحلوى ويحتاج الأمر الى عزيمة قوية لمقاومة روائعها الزكية .

وكان فرويد موجودا فى « جرير شتيدل » عندما وصلت - ويزعم هذا المقهى بالمناسبة ، انه المؤسسة الثقافية الوحيدة من نوعها فى المدينة - وقادنى الخادم الى منضدته وقدم لى قدحا من البيرة واصغيت اليه فأخبرنى أن هولمز مازال نائما ، ولو أنه من الضرورى ألا نطيل المكوث ونذهب الى المنزل سريعا . ولم تبد على أى منا الرغبة فى الدخول مباشرة الى القضايا والموضوعات المختلفة التى تحتاج الى حلول اذا كان لنا أن نصل الى شفاء هولمز . وعندئذ أخبرنى فرويد بجزء من تاريخه ، وبالطبيعة الحالية لعمله . ولقد كان الكوكايين موضوعا جانبيا بدرجة أو بأخرى ولا يرتبط مباشرة بأبحاثه الحالية ، لقد اهتم هو واثنان من الاطباء بهذا العقار عندما اكتشفوا فائدته الثمينة كمخدر فى عمليات جراحة العين .

وكان فرويد قد تدرب فى مجال علم الأمراض العصبى (النيورولوجيا) وكانت لديه معرفة بالتشخيص الموضعى والمآل الكهربائى وهى مصطلحات لا قبل لممارس عام مثلى بها .

- وابتسم وقال : « نعم لقد قطعت شوطا طويلا ومررت بدروب متعرجة ابتداء من رسم الجهاز العصبى حتى وصلت الى ما أنا فيه الآن » .

- « أنت مغترب اذن » .

- هز كتفيه وقال : « الحقيقة انه لا يوجد وصف رسمى

لما أنا عليه الآن ، فكما استنتج الهر هولمز أنا مهتم بالحالات العصبية ، وهم يأتون الى في معظم الأحوال ، وأذهب أنا أحيانا لرؤيتهم في منازلهم * أما الى أين ستؤدى بي دراستي فهذا أمر لست متأكدا منه الا اننى قد حصلت الكثير من العلم بشأن مرضى الهستيريا الذين أدعواهم عصائين » *

وكنيت على وشك أن أسأله ماذا يعنى بهذا المصطلح الأخير وعما اذا كان استنتاج هولمز صحيحا بشأن ان بعض نظرياته لم ترق في عيون الدوائر الطبية ، عندما توقف فجأة واقترح ان نعود الى المنزل لنرى مريضنا * وبينما دنا نشق طريقنا بين المناضد وجماعات المتناقشين في الفن والادب اقترح على أن أصحبه في احدى جولاته بحيث أرى الاشخاص الذين يعالجهم واعراضهم بنمسي وقبلت بكل سرور وبدأنا السير خلال « الجارين » المزدهم وامتطينا عربه يجرها حصان وتجرى على قضبان مثل الترام *

وسألته بعد أن جلسنا : « هل تعرف طبيبا انجليزيا اسمه كونان دويل ؟ » فضم شفتيه في محاولة للتذكر * ثم سألتني بعد هنيهة « أكان من الضروري أن أعرفه ؟ » *

— « ربما فقد درس لبعض الوقت في فيينا وتخصص في طب العيون مثل زميليك » *

— « كونجشتاين كولر ؟ » *

— أجل ربما تكون قد تعرفت عليه عندما كان يدرس هنا » *

فقال باقتضاب : « ربما » ، ولم تحمل اجابته أى عرض من جانبه أن يسأل زميليه اذا كانا قد عرفا دويل * وربما كانا من بين زملائه الذين قاطعوه *

ـ وسألنى : « وما هى علاقتك بالدكتور دويل ؟ » قالها وكأنه يحاول ازالة انطباع الاقتضاب الذى خلقتة اجابته *

ـ « الحقيقة ان اهتمامى به ليس طبيا فهو يكتب كنبأ أكثر من ممارسة الطب هذه الايام ونتيجة لنفوذه لدى بعض المجلات الادبية بانجلترا أدين له بالفضل فى جعل تلك المجلات تنشر مذكراتى المتواضعة لمغامرات شرلوك هولمز ؟ » وتركنا عربة الترام عند تقاطع فارنجر وبرجاس وتوجهنا مشيا على الأقدام الى منزل فرويد *

وما ان تخطينا عتبة الدار حتى سمعنا جلبة فظيعة فى الطابق الاعلى * واندفعنا مارين فى طريقنا بالخادمه باولا وامراة اخرى قدمت لى فيما بعد على انها « فراو فرويد » ولاحظت بالكاد فتاة صغيرة تقارب الخامسة وهى تمسك بأعمدة السلم فى فزع * وقد أصبحنا صديقين فيما بعد أنا وأنا فرويد ولكن فى تلك اللحظة لم يكن هناك وقت للتعارف فقد اندفعنا أنا وفرويد الى الغرفة حيث كان هولمز ينشر محتويات الحقيبة فى جنون وصدرة مفتوح وشعره منفوش ، بالاضافة الى تقلصات جسمه وعضلاته بطريقة بدا منها انه فقد السيطرة عليها *

عند دخولنا الى الغرفة استدار الينا وعيناه تقدحان شررا *

وصرخ : « أين هى ؟ ماذا فعلتما بها ؟ » *

وتطلب الأمر جهودا مضنية من جانبنا لتهدئته واخضاعه وكنا كمن يخطو برجليه الى أعماق الجحيم *

كان التنويم ينفع أحيانا ولا ينفع أحيانا أخرى * وكان يمكن احداثه أحيانا عن طريق اعطاء مهدئات مسبقا الى هولمز ولكن فرويد كان ينفر من ذلك اذا كانت هناك فرصة للنجاح بدونه *

وفسر لى ونحن نتناول وجبة خفيفة فى مكتبه قائلاً :
« يجب ألا يبدأ فى الاعتماد على المهدئات » .

وكان من الضرورى بالطبع أن يظل أحدنا قائماً بحراسته حتى يحميه من ايداع نفسه أو ايداع الآخرين وذلك أثناء الفترات التى لا يمكن اعتباره فيها مسئولاً عن تصرفاته . شيئاً فشيئاً بدأ هولمز يكره رؤيتنا وكذلك رؤية الخادمة باولا التى كانت رغم خوفها منه تستمر فى أداء عملها بعزم وتصميم مبدية الاهتمام وحسن النية . وكان دكتور فرويد وعائلته يفهمون ثورات الغضب عند هولمز ولا يعبأون بها رغم سفالتها وانحطاطها ، ولكننى تأثرت أعظم التأثير لتلك الشتائم والاهانات فلم أكن أظنه قادراً على التلفظ بمثل هذه القبائح . وكنت عندما أدخل عليه الغرفة لمؤانسته وملاحظته يصب على من الشتائم ما يؤلمنى ولا يزال كما تذكرته اليوم . فكان يصفى بالغباء ويلعن نفسه لاحتماله صحبتى وأنا المتخلف العقل والأحمق المأفون . ومن الطبيعى أن تتصوروا مدى ما كنت أعانى لأتحمل تلك الاهانات والشتائم والبذاءات ، ولكن حز فى نفسى انه فى اليوم الثالث حاول أن يدفعنى ويخرج الى الممر وكنت مضطراً أن أمنعه بضربة قوية على أم رأسه وأعترف ان السبب لضربى له بهذه الشدة هو ذلك الغضب الذى كان يعتمل فى نفسى ، فقد كانت الضربة من الشدة بحيث أغمى عليه . . الأمر الذى أفرغنى وصحت فى طلب النجدة وأنا أدق على صدرى لفشلى فى التحكم فى أعصابى .

وقال فرويد وهو يربت على كتفى بعد أن حملنا هولمز الى فراشه : « لا يحزنك الأمر يا دكتور واطسون فكل ساعة يقضيها غائباً عن الوعى تزيد من فرصتنا . لقد أنقذتنى من جلسة تنويم ، ويبدو مما وصفته لى أن جلسات التنويم لن تصبح مجددة بعد ذلك » .

وفى تلك الليلة استيقظ هولمز وقد ارتفعت درجة حرارته وأخذ يهذى ، وجلسنا أنا وفرويد بجانبه على السرير نحاول التحكم فى حركاته العصبية وهو يهذى عن كيف ان المحار البحرى سوف يغزو العالم وما شابه ذلك من خرافات بينما فرويد ينصت الى هذيانه بانتباه كامل .
وسألنى خلال احدى فترات السكون : « هل هو مغرم بالمحار ؟ »
فهزرت كتفى فى حيرة لا أدرى كيف أجيب (١) .

وخلال ملاحظته فى الليل كنا نتناوب مع باولا كما حظينا بليلة سهرت فيها فراو فرويد وكانت امرأة جذابة ، لها ، مثل زوجها ، عينان سوداوان حزينتان لا تخلوان من دعاية وفم رقيق ينم عن الحزم وقوة الشكيمة . وفى احدى المرات اعتذرت لها عما نسببه لها ، أنا وصديقى من ازعاج .

فقال ببساطة : « لقد قرأت أنا أيضا رواياتك عن قضايا الهر هولمز ، ومن المعروف أن صديقك شخص فائق الشجاعة عظيم القدر وهو يحتاج الى مساعدتنا الآن مثلما احتاج اليها صديقنا السابق - وافترضت انها تشير الى صديق فرويد التيس الذى ذكره فى مقالته التى نشرت بمجلة « لانست » - « وأعتقد اننا لن نفشل هذه المرة » .

استمرت الحمى والهذيان عند هولمز ثلاثة أيام متتالية أخرى ، كان من المستحيل خلالها أن ندخل الى جوفه أى غذاء . وكان البقاء بجانبه جهدا مضنيا - حتى ولو نلنا قسطا من الراحة - فقد وصلت تشنجاته وهذيانه ، بعد أن استمرت لمدة

(١) يلعب المحار دورا كبيرا فى لا شعور هولمز اذ أنه عندما تصنع الهذاء فى مغامرة « وفاة المخبر السرى » كان يهذى بفكرة أن العالم سيفزوه المحار ومن المعروف أنه كان يحب تناول المحار فهل كان هذا الهذاء محاولة منه للسيطرة على مخاوفه ؟ هذا امر متروك لاصحاب علم النفس كى يدرسه (نيكولاس هاير) .

ست ساعات فى الليلة الثالثة - وصلت الى درجة أزعجتنى بحيث اعتقدت أنه على وشك الاصابة بحمى فى المخ . وعندما عبرت عن رأيى هذا لسيجموند فرويد هز رأسه بالنفى وقال : « الأعراض متشابهة جدا ولكنى أعتقد أننا لا نخشى حدوث حمى فى المخ ، ان ما نراه هو الخلجات الأخيرة لسيطرة المخدر عليه ، ان التعود على المخدر ينتزع انتزاعا من جسمه . فاذا مرت تلك الأزمة بسلام ، أى اذا عاش ، فاننا سنكون قد وصلنا الى نقطة التحول فى طريق التعافى » .

— « اذا عاش ؟ » .

— « نعم الناس يموتون فى مثل هذه الأزمات » .

وجلست بجانب سريرى أراقبه وأنا عديم الحيلة بينما تنتابه التشنجات ويستمر صراخه بلا هوادة الا من فترات قليلة كانت كل وظيفتها فيما أرى هى زيادة قدرته على الصراخ . وحوالى منتصف الليل أصر الدكتور فرويد على أن أذهب الى سريرى لأنال قسطا من الراحة مشيرا الى ضرورة استجماع قوتى حتى أكون ذا نفع لصديقى فى محنته الكبرى . وذهبت الى غرفتى على كره منى .

كان النوم مستحيلا ، وحتى لو استطعت ألا أسمع صرخات هولمز وأنينه الذى كان يخترق الحوائط فان مجرد ممرفتى بالعذاب الذى يمر به كان كافيا ليقض مضجعى . فهل يا ترى كان الأمر يستحق كل ذلك العناء . ألا توجد وسيلة أخرى لانقاذه دون المرور بهذا العذاب الأليم والذى قد يؤدى الى موته ؟ ورغم أننى لم أكن من معتادى الصلاة ومع ادراكى أن ما أقوم به هو نوع من النفاق فلم أستطع أن أمنع نفسى من الركوع والتضرع الى الخالق العظيم بمنتهى الخشوع والخضوع أن ينقذ صديقى . ولم أكن متأكدا من نتيجة صلاتى ولكنها على الأقل دفعتنى الى النوم العميق .

وفى اليوم الرابع منذ بدأت الحمى والذهيان ، استيقظ
شرلوك هولمز تبدو عليه السكينة وحرارته طبيعية •

وعندما دخلت غرفته لأحل محل باولا ، نظر الى نظرة
حزينة وسأل بصوت ضعيف كان يستحيل على التعرف عليه :
« أهذا أنت يا واطسون ؟ » فأجبتة بالايجاب وسحبت مقعدا
لأجلس الى جانب سريريه وفحصته وأخبرته أن الحمى قد
انقشعت •

وأجابنى بلا مبالاة : « حقا » •

— «نعم أنت فى طريقك الى الشفاء يا صديقى العزيز» •
— « حقا » •

واستمر يحملق فى أو بالأحرى فيما ورائى وقد امتلأ
وجهه بتعبير يدل على الخواء ولا تبدو عليه أية معرفة بالمكان
ولا أى فضول بشأن ما أتى به الى هنا •

ولم يعترض عندما جسست نبضه وكان ضعيفا جدا
ولكنه منتظم ، كما لم يقاوم تناول الطعام الذى أتت به فراو
فرويد بنفسها على صينية • وتناول كمية ضئيلة من الطعام
تحت الالاحاح والتشجيع • وكانت تبدو عليه الرغبة فى
تناول الطعام الا انه كان يجب تذكيره بأن الطعام موجود
أمامه ، وكان هذا التحول الى الهمود بعد ما سبقه من هبات
عنيفة وهذاء وحمى من أغرب ما مر بى فى تلك الحالة •

ولم يرض فرويد عن ذلك الوضع أيضا عندما عاد من
جولته لعيادة مرضاه وفحص المريض المقيم لديه ، وعبس
وجهه وسار الى النافذة التى كان يرى من خلالها النهايات

المديبة لأبراج كاتدرائية سانت اسطيغان - وهو منظر
بالمنااسبة يكرهه أشد الكره - وربتت على يد هولمز وانضمت
الى فرويد عند النافذة :

- « ماذا ترى ؟ » *

- « يبدو أنه قد عبر منتصف الطريق في التخلص من
الادمان * ويمكن بالطبع أن ينتكس في أية لحظة ، هذه هي
لعنة الاعتماد على المخدرات » *

وأضاف بلهجة يبدو فيها عدم الاهتمام ، « سيكون من
المهم أن أعرف كيف تعرف على الكوكايين » *

وأجبتة بصدق : « لقد وجدته في مسكنه منذ أن
تعرفت عليه ، ويقول انه يتعاطاه بسبب الملل وقلة
النشاط » *

وتحول فرويد الى مبتسما وقد بدت على ملامحه علائم
العطف والحكمة التي لاحظتها فيه منذ أن وقعت عيناي
عليه :

« هذا ليس سببا كافيا ليسيير المرء في طريق الدمار *
على أية حال » *

وسألته محاولا اخفاء القلق في صوتي : « ماذا يقلقك ،
لقد قلت اننا قد تمكنا من انتزاعه من براثن المخدر
الشرطاني » *

- « مؤقتا ولكن يبدو أننا انتزعنا منه أيضا روحه
المعنوية * وهناك حكمة قديمة تقول بأن الشفاء قد يكون
أحيانا أمر من المرض » *

— « ماذا نفعل اذن ؟ هل نسمح له بقتل نفسه بهذا السم ؟ » *

وتحول فرويد الى وقد وضع اصبعه على شفثيه وربت على كتفى وقال « صبرا » وسار الى سرير هولمز وسأله بلطف وهو يبتسم : « كيف حالك ؟ » *

ورماه هولمز بنظرة ولكن عينيه كانتا تسبحان فى اللانهاية : « لست فى حالة حسنة » *

— « هل تتذكر البروفسور موريارتى ؟ » *

— « العبقري الشرير ؟ » ولاح على شفثيه شبح ابتسامة :

— « ماذا بشأنه ؟ » *

— « أعلم ماذا تريدنى أن أقوله يا دكتور * حسنا سأرضيك ان المرة الوحيدة التى شغل فيها البروفسور موريارتى دور العبقري الشرير فى حياتى كانت عندما استغرق منه الأمر ثلاثة أسابيع ليشرح لى غوامض وألغاز حساب التفاضل والتكامل » وأجابه فرويد بهدوء : « ما يهمنى ليس قولك اياها وانما ادراكك لها كحقيقة واقعة » *

وسادت فترة صمت *

— « أنا أفهم ذلك » همس هولمز بتلك العبارة التى كانت تحمل منتهى الذل والمعاناة التى يمكن لكائن انسانى أن يمر بها * وحتى فرويد الذى كان عناده لا يقل عن عناد هولمز ، كره أن يقطع ذلك الصمت الطويل الذى تلا الاعتراف الرهيب *

وكان هولمز نفسه هو الذى قطع حبل الصمت ، ودار ببصره فى الحجرة ورآنى ودب فى ملامحه نبض الحياة *

— « واطسون ؟ اقترب منى يا صديقى العزيز . أنت صديقى القديم أليس كذلك ؟ » .

« أنت تعلم ذلك جيدا » .

— « أجل أجل » واضطجع على الوسادة التى وضعها خلف رأسه ونظر الى وفد بدأ الانزعاج على ملامحه وقال : « أنا لا أذكر الكثير مما دار خلال الأيام القليلة الماضية . » وقاطعته بإشارة من يدي :

— « لقد ذهب الماضى الى غير رجعة فلا تستعده . لقد انتهى الأمر » .

— فأصر على متابعة كلامه : « أقول اننى لا أذكر الكثير ولكننى أتذكر اننى صرخت فى وجهك وانهلت عليك بكافة أنواع الشتائم » وابتسم ابتسامة من يقلل من شأن نفسه وقال : « هل فعلت ذلك حقاً يا واطسون أم أننى أتخيل ذلك ؟ » .

« أنت تتخيله فعلاً يا صديقى العزيز . والآن ارقد واسترح » .

واستمر فى الحديث : « واذا كنت قد فعلت ذلك فأرجو أن تعلم أننى لم أقصده . هل تسمعننى يا عزيزى ؟ انى أتذكر بوضوح أننى وصفتك بيهودا أرجو أن تصفح عنى لهذا القول الشنيع هلا صفحت عنى » .

— « أرجوك يا هولمز . » .

وتدخل فرويد : « من الأفضل أن نتركه الآن انه سيخلد الى النوم » ونهضت وأسرعت خارجا من الغرفة وعينائى مليئتان بالدموع .

الفصل التاسع

الكمان ولعبة التنس

حذرني سيجموند فرويد ألا نفقد صبرنا في مراقبة هولز ، فرغم انه قد بدا عليه انه قد فقد اشتياقه للكوكايين فان اليقظة فيما يتعلق بالمنذر وطرق الحصول عليه يجب أن تظل صارمة كما كانت . كانت قد راودتني فكرة العودة الى انجلترا ، باعتبار أن أسوأ الفترات قد مرت وهو الأمر الذي أكدته لي فرويد ولكنه رجاني أن أبقى اذ مازالت معنويات هولز منخفضة بشكل مزعج ، فكان من الصعب اقناعه بتناول الطعام ، كما كان من المستحيل أن نعيده الى عالمه ، لقد كان في أمس الحاجة الى صديق ، وهكذا وافقت على البقاء لفترة .

وتبادلت البرقيات مع زوجتي أوجزت فيها الموقف ورجوتها أن تصبر على واستجابت هي بكل عطف وتشجيع وأخبرتني أن دكتور كولينجورث يراعى العيادة وأنها ستخبر مايكروفت هولز بأنباء تقدم أخيه .

وكان تقدم هولز بطيئاً جداً . واذا كان قد فقد اهتمامه بالمنذر فلم تبد عليه علائم الاهتمام بأي شيء آخر . وكنا نرغمه على تناول الطعام ونتحايل عليه حتى يرضى أن يتمشى في الحدائق بجوار هولبورج . وفي تلك المناسبات التي كان يتنزه فيها معنا في الحديقة كان يظل شاخصاً الى الأرض ولا ينظر في أي اتجاه آخر . ولم أدر هل أحزن أم أفرح بهذا التقدم ، وكنت أعلم الناس بطباع هولز وأدرك

انه نادرا ما كان يلقي بالا الى المناظر الطبيعية وكان يفضل دراسة آثار الأقدام * ولكن كلما حاولت أن أجره الى الحديث عن الموضوع وأسأله ماذا استنتج من ملاحظة الأرض كان يستجيب بلهجة متعبة طالبا مني أن أكف عن رعايته ثم يصمت *

وأصبح الآن يتناول وجباته مع بقية الأسرة صامتا رغم كل المحاولات التي نبذلها لجره الى الحديث ولا يتناول من الطعام الا اقله * وكانت مناقشات الدكتور فرويد لحالات مرضاه لا تجذب انتباهه أيضا ، وأخشى أنني أيضا نادرا ما كنت أسمع شيئا من حالات الدكتور بسبب انشغالي بهولمز وحالته * الا أنني أتذكر بشكل دائم انه أشار الى تلك الحالات بأسماء غريبة فأحيانا يشير الى الرجل الفأر أو الرجل الذئب وأحيانا كان يشير الى شخص أطلق عليه « (Anna O) أنا أو » وقد أدركت انه يخفى شخصيات هؤلاء الناس بسبب الأمانة المهنية ، الا أن اختياره لتلك الأسماء المستعارة ينم عن روح فكاهية كامنة أو على الأقل ، عن موهبة في تشبيه الصفات الانسانية * كثيرا ، عندما كان يغلبني النوم وتحلق أفكاري هنا وهناك كنت أتذكر تلك اللوحات من الحديث على مائدة فرويد وأبتسم وأنا أفكر في الرجل الذي يشبه الفأر والآخر الذي يشبه الذئب أما « أنا أو » فهل يا ترى كانت مستديرة أو بيضاوية الشكل ؟ *

ومن الغريب أن العضو الوحيد في الأسرة الذي بدا انه يستثير استجابة من هولمز هو « أنا » أخرى ، ابنة فرويد الصغيرة وكانت طفلة رائعة - ولست عادة من الذين يحبون الأطفال - (١) تلفت النظر * وبعد اليوم الأول ، لم تعد نوبات هولمز تثير خوفها وأصبحت تعامله بحرية * ولعل غريزتها هدتها الى أن تتعامل معه بهدوء ، ففي ذات

(١) هل يعنى هذا التصريح ان ذلك ربما كان سببا في أن واطسون لا يذكر أطفاله أبدا بل لا يذكر أنه أنجب *

يوم بعد العشاء عرضت عليه أن تريه غرائسها وقبل هولمز بطريقة جادة مفردة فى الأدب ، واتجهت الى الصيوان الذى تحتفظ فيه بعرائسها وكنت على وشك النهوض من مقعدى لاتباعها عندما أشار الى فرويد بيده أن أبقى فى مكانى ، وقال مبتسما : « يجب ألا نكتم أنفاسه برعايتنا له » ، وأضافت فراو فرويد « وكذلك أنا » وطلبت لنا مزيدا من القهوة .

وفى الصباح التالى كنت راقد فى سريرى ، أفرك النوم من عيني عندما تناهت الى أصوات صادرة من الحجرة المجاورة . ونظرت فى ساعتى وتأكدت ان الوقت لم يقارب الثامنة بعد كما تناهت الى أصوات من الطابق الأرضى أدركت منها أن باولا لا تزال فى المطبخ وان بقية الأسرة لا تزال نائمة فما الأمر يا ترى ؟

وتسللت بهدوء متجها الى الباب المشترك بين غرفتيما ونظرت من ثقب الباب ، واذا بهولمز يجلس على السرير فى هدوء مع انا الصغيرة ، وكانت جالسة فى نهاية السرير . ولم أستطع أن أسمع ما يدور بينهما ولكن بدا لى انه حديث ممتع ، فكانت الطفلة تلقى أسئلة على هولمز وهو يحاول جهده أن يجيب عليها . وسمعتة يضحك ، وانسحبت بهدوء بعيدا عن الباب حتى لا تفسد أية حركة منى التجاوب الذى كان يدور بينهما .

وبعد تناول الافطار ، اختار هولمز أن يبقى فى المكتبة بهدف قراءة بعض أعمال ديستويفسكى بدلا من أن يصاحبنا الى مومبرج ، نادى فرويد الخاص الذى يمارس فيه لعبة التنس فى الصالة المغلقة .

وحاولنا اغراءه بالانضمام اليانا ونحن على وشك المغادرة فقال متوجها بالحديث لفرويد : « سيؤكد لك واطسون أنني لا أهتم البتة بالرياضة من أجل الرياضة ، ويجب ألا تعزو تخلفى الى أية دوافع أخرى خاصة بمرضى » .

وقرر فرويد ألا يضغط عليه وتركناه فى رعاية السيدات - فراو فرويد وبابولا والصغيرة أنا - وانطلقنا .

كان نادى مومبرج الذى يقع جنوب هوفبرج يختلف عن أندية لندن التى أعرفها . فقد كان مكانا مخصصا للرياضة، بينما كانت المقاهى تكمل الجانب الاجتماعى والثقافى الذى ينقصه .

وكان النادى يحتوى ، طبعا ، مطعما وبارا ، ولكن فرويد لم يكن معتادا على ارتيادها ، أو على إقامة علاقات اجتماعية مع الأعضاء . وأخبرنى انه يستمتع بلعبة التنس ولا يستخدم من مزايا النادى سوى ملاعب التنس بقصد الترويح لا أكثر ولا أقل . ولم أكن أنا نفسى أمارس هذه اللعبة ولكنى رغبت فى أن أشاهد النادى وأهرب لفترة من التأثير الممل للمعركة هولمز التى تجعلنى دائم اليقظة والاكتئاب . ويبدو أن فرويد قد أحس بذلك ومن هنا كانت دعوته لى .

وكانت ملاعب التنس تقع داخل هيكل كبير من الحديد أنسبه بالصوبة سقفا مغطى بالزجاج ليسمح لضوء الشمس بالدخول ، وفى الداخل كانت هناك مدافىء لتدفىء المكان فى الاشهر الباردة . أما أرضية الملاعب فكانت من الخشب المصقول اللامع ترن فيه أصوات الكرات أثناء ارتطامها به .

ودخلنا غرفة الملابس حيث كان فرويد يحتفظ بملابس اللعب ومررنا بجماعة من الشباب يحتسون البيرة فى أكواب من الزجاج الرقيق وقد مدوا أرجلهم على المقاعد ووضعوا المناشف على رقابهم ، وعندما مررنا بهم سمعت واحدا منهم يغص بشرابه ويضحك ضحكة مكتومة وهو يقول : « يهودى فى المومبرج لقد أصبح هذا المكان مأوى للسكلاب منذ أن زرتة لآخر مرة » .

وكان فرويد يسير أمامى فتوقف وواجه الشاب الذى

تظاهر بأنه منهمك فى الحديث مع زميل له - ولو انهما الاثنان لم يكفا عن الضحك - وعندما استدار الينا وعلى وجهه علامة الاستفهام دهشت لمراى ملامحه * كانت تقاطيع وجهه جميلة وكان مظهره الخارجى باردا زاد من بشاعته ندبة لضربة سيف قبيحة على خده الأيسر * والواقع أن وجهه كله بدا بتأثير هذا الجرح المخيف غاية فى البشاعة ، بينما كانت عيناه الباردتان اللتان لا تطرفان تعطيانه مظهر الطيور الجارحة * ولم يكن يتعدى الثلاثين الا أن النخب الذى فى وجهه يرجع الى آلاف السنين *

- وسأله فرويد بهدوء وهو يخطو نحوه : « هل كنت تعينى ؟ » *

- « أرجو المَعذرة » وتحول الى شخص يسيل براءة وعذوبة بينما فمه القاسى يمتلىء بالابتسام الا أن عينيه ظلتا بلا تعبير *

وقال فرويد : « قد يهملك أن تعلم ، يا سيدى ، أنه منذ أن وطئت قدماك هذا المكان آخر مرة - ويبدو لي انك لم تطأه قط أو تبدو جاهلا تماما بطبيعة تكوين هذا النادى وكذلك بأداب السلوك فيه - ان أكثر من ثلث أعضاء النادى من اليهود » *

ودار على عقبيه منصرفا تاركا خلفه عاصفة من الضحك * وتحول لون الشاب ذى الندبة الى لون أحمر قان ، بينما أحنى رأسه ليستمع الى بعض الهمسات من زملائه وهم يتتبعون بأعينهم شخص فرويد وهو يتحرك منصرفا *

وصاح الشاب فجأة من خلفه : « أنت الدكتور فرويد ؟ أظنك نفس الشخص الذى طلب منه مستشفى كرانكنهاوس أن يستقيل من عضويته بسبب تأكيد «الظريف» ان الأطفال

الصغار يضاجعون أمهاتهم ؟ وبالمناسبة يا دكتور هل ضاجعت أمك ؟ » .

وتجمد الدكتور فى مكانه ثم التفت الى محدثه وقد امتقع وجهه امتقاعا شديدا :

ـ « انت شخص سخييف » وتحول مرة أخرى لينصرف بعد ان رد الالهانة ولكن ذلك الشخص نهض على قدميه والذى بكأسه على الأرض لتتحطم شظايا وصاح فى غضب : « هل لك أن تبارزنى يا سيدى ، سأرسل اليك شاهدين » . ونظر فرويد اليه ، من فوق لتحت ، وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة وقال : « وبعدين معاك انت تعلم ان السادة لا يتبارزون مع اليهود أم انك لا تعرف قواعد الاتيكييت ؟ » .

ـ « أنت ترفض اذن ؟ هل تعرف من أنا ؟ » .

ـ « لا أعلم من أنت ولا أهتم بذلك . اسمع سأطرح عليك بديلا : أراهنك على أن أهزمك فى مباراة التنس هل يرضيك هذا ؟ » .

وعند هذه اللحظة تدخل بعض أصدقاء الشاب ولكنه دفعهم بيده بقوة دون أن يحول ناظره عن فرويد الذى جلس بهدوء يستبدل حذاءه ويتناول مضربه للتنس :

ـ « حسنا يا دكتور سوف أقابلك فى الملعب » .

وأجاب فرويد دون أن يهتم بالنظر اليه : « سأوافيك حالا » .

وسرعان ما انتشرت قصة المباراة خلال النادى حتى اننا عندما وصلنا الى الملعب كان حشد من الناس قد اجتمع ، والتف حول الشاب ذى الندية عدد من زملائه وأخذ بعضهم يفحص كرات التنس كما لو كانت رصاصات .

وحاولت أن أحذر فرويد ونحن نرتقى السلم : « ألا تجد هذا الأمر سخيفا ؟ » •

— فأجاب دون تردد : « اننى أجده سخيفا أشد السخافة ، ولكنه على كل حال لا يبلغ فى سخافته مبلغ محاولة قتل بعضنا البعض » •

— « ألا تخشى أن تهزم فى المباراة ؟ » •

— « يا عزيزى الدكتور انها ليست الا لعبة » •

ربما بدا الامر لعبة فى نظر فرويد ، أما خصمه فقد كان يأخذ الامر بجديه شديدة • واتضح ذلك من اللحظة الاولى فى اللعب • كان اكبر جسما واغوى واختر تدريبا من الطبيب وكان الاثنان يعلمان ذلك • وكان الشاب يضرب كراته فى العمق وبدقة كبيرة ، وكان فرويد يحاول صدها بأقصى ما يستطيع ولكن لم تكن تبدو عليه مظاهر الاحباط عندما كان يفشل فى صدها • وبهذا الشكل فقد اول شوطين فى المباراة اذ لم يحرز فيهما الا نقطة أو نقطتين •

وفى الشوط الثالث تحسن قليلا ووصل الى التعادل قبل أن يهزم فيه • وقمت باحضار بعض الماء للدكتور خلال الفترة التى يتم فيها تبادل الأماكن وقلت له مشجعا وأنا أناوله الاسفنجية : « لقد تحسن أدائك فى الشوط الأخير » •

— « مازلت أمل فى أن أتحسن أكثر » قالها فرويد وهو يمسح بالاسفنجية حول رقبته • ان طريقة لعبه هجومية فقط كما انه لا يستخدم ظاهر اليد ألم تلاحظ ذلك ؟

وهزرت رأسى بالنفى :

— « ولكن هذا هو الواقع فكل نقطة كسبتها منه كانت موجهة الى ظاهر اليد لاحظ اللعب » •

واخذت الاحظ الشوط ساني شان المائتين (١) من المتفرجين المنحمرسين وتحول المد الان ببطء ولكن بعزم وبدا فرويد يكسب نقطة بعد نقطة من خصمه الشاب وهى البدايه لم يستوعب خصمه ماذا كان يحدث ولم يدرك اسنراتيجيه فرويد المتعمدة الا بعد الشوط الثالث ، وأدرك نقطة ضعفه وأخذ يقف فى شمال الملعب محاولا مواجهة تكتيكات الدكنور * واستطاع بذلك ان يكسب نقطه او نقطتين الا ان فرويد أدرك مقصده فاخذ يوجه ضرباته الى الجانب الايمن بعيدا عن موقف خصمه * ولحق كلما سارع الخصم بصد تلك الكرات اليمينية كان يكشف نقطة ضعفه فيرد فرويد بتوجيه الكرة الى اليسار مرة اخرى * لم يكن اللعب سهلا ولكن الشاب ذا الندبة وضع فى موقف لا يحسد عليه * فقد أجبر على أن يتخذ موقفا دفاعيا وأخذ فرويد يدفعه الى الجرى ، من اليمين الى اليسار بينما وقف هو فى موضع ثابت واستولى الغضب على الشاب الشرس مما أوقعه فى أخطاء لم تكن لتحدث لو كان متمالكا لأعصابه وأخيرا انتهت المباراة بعد أن استمرت ما يقرب من ساعة وكانت النتيجة ستة أشواط لفرويد مقابل ثلاثة لخصمه *

واقترب فرويد من الشبكة بهدوء واستفسر من خصمه قائلا : « هل سلم الشرف الرفيع من الأذى ؟ » وأعتقد أن الشاب كان على وشك الامساك بخناق فرويد لولا أن تدخل أصدقاؤه وحالوا بينهما بالقوة *

وفى غرفة الملابس استحم فرويد وبدل ملابسه دون أن ينبس بأية كلمة اللهم الا الشكر على تشجيعى له ، وانطلقنا عائدين الى ١٩ شارع برجاس *

(١) يبدو أن ذاكرة واطسون قد خالته بمراجعة مساحة صالة المومبرج اتضح لى انها لا تستوعب أكثر من مائة وعلى أية حال فإن هذه الواقعة غير معروفة فى حياة فرويد ولم يدونها أرنست جولز مؤرخ لفرويد *

ونادى فرويد على عربة وهو يقول : « على الأقل لقد حصلت على مباراة التنس ولم أنتظر حتى أجد ملعبا خاليا » .

وسأله بعد أن جلسنا فى العربة ، وبعد تردد : « وماذا عن التعليق الذى ذكره ذلك الرجل . . أتزعم فعلا أن الأولاد . . » وابتسم لى بينما ساد وجهه ذلك التعبير الحزين الذى أصبح أعرفه جيدا :

— « فليهدأ بالك يادكتور أنا لا أزعم ذلك على الإطلاق » ، واستندت بظهرى الى مساند العربة وأنا أتهد ارتياحا . وعندما رجعنا الى المنزل نبهنى ألا أذكر شيئا عن مباراة التنس لهولمز . فلم يكن يرغب فى تشتيت انتباه صديقى بهذه الواقعة ووافقته على ذلك .

ووجدنا المخبر السرى الشهير حيث تركناه ، منكبا على بعض الكتب فى غرفة المكتب غير مبال الى الحديث . وكانت رؤيته مهتمة بشيء ما علامة مشجعة لى . فانسحبت الى غرفتى وجلست أستعيد تلك الوقائع الغريبة التى حدثت فى مومبرج . ولم تتح لنا قط معرفة اسم « الرذيل » الا أن وجهه ، ذلك الوجه اللئيم ، الذى تشقه تلك الندبة القبيحة ، ظل يراود مخيلتى طوال ما بقى من اليوم .

وخلال العشاء ، بدا أن هولمز قد عاد سيرته الأولى ، فرغم جهودنا لجره الى الحديث كانت اجاباته كلمات قصيرة ومبتسرة . ونظرت الى فرويد فى قلق ولكنه تجاهل نظراتى وأخذ يثرثر كأن شيئا لم يكن .

وبعد العشاء نهض فرويد واستأذن ثم عاد بعد لحظات يحمل طردا بين يديه :

— « هر هولمز ، معي شيء هنا . أعتقد أنك ستستمتع

به ، وناولوه الطرد البيضاوى الشكل * وتناول هولز الطرد وتركه فى حجره ، لا يدري ماذا يفعل به * واستطرد فرويد وهو يأخذ مقعده ثانياً : « لقد أبرقت الى انجلترا طلباً لهذا » وظل هولز ساكناً ينظر الى الصندوق *

وتطوعت آنا : « هل أساعدك فى فتحه » ومدت يديها لتفك خيوط الطرد * وأجاب هولز : « ساعدينى من فضلك » وناولها الصندوق *

وانضم اليها أبوها ، بينما أصابعها الصغيرة تحاول فك العقدة ، وقدم لها مطواة جيب صغيرة قطع بها الخيوط بينما أزاحت آنا أوراق التغليف وأخرجت الصندوق وحبست أنفاسى رغماً عنى عندما رأيت ما بداخله * وصاحت آنا : « هناك صندوق آخر » *

وقالت فراو فرويد : « فلندع هر هولز يفتح هذا الصندوق بنفسه » *

وشجعت آنا قائلة : « هيا افتح الصندوق » *

ودون أن يجيب ، استخرج هولز من الحشو الذى يملأ الصندوق ، ببطء ولكن بطريقة أوتوماتيكية ، صندوقاً آخر وأعمل يديه فى الأقفال واستخرج الكمان «الاستراديافاريوس» ثم نظر الى الطبيب النمساوى وقال بتلك اللهجة الهادئة التى تخيفنى : « هذا كرم وعطف منك » وصفقت آنا الصغيرة بيديها وهى مبتهجة وصاحت : «انها كمان * * هل تستطيع أن تعزف عليها ؟ أرجوك * * هلا عزفت عليها من فضلك » *

ونظر هولز اليها ، وعاد ببصره الى الآلة فى يديه وكانت تلمع فى ضوء المصباح الغازى وجذب الأوتار بأطراف أصابعه وعيناه ترمشان عند سماع الصوت ، ثم أحكم وضع

الكمان تحت ذقنه وهو يحرك عنقه ارتفاعا وانخفاضا حتى يضع الكمان فى مكانها الملائم ثم بدأ يضبط الأوتار . وما أن انتهى من ذلك ونحن جميعا نشاهده وقد توقفت أنفاسنا - كما لو كنا نشاهد تلك الحركة التى يقفز فيها لاعب السيرك من ارتفاع عال والناس جميعا تترقب - واستخرج القوس ومر على شعيراته بقطعة من الشمع الراتنجى وهو يشد خيوطه المصنوعة من ذيول الخيل .

وبدأ العزف بشكل تجريبيى أولا ، ولم تكن تلك طريقته المعتادة ، وشيئا فشيئا ارتسمت ابتسامة على ملامحه ، لعلها أول تعبير سعيد صادق رأيته على وجهه منذ أمد بعيد .

ثم بدأ فى العزف بشكل جاد .

ولقد سبق لى أن أشرت - فى كتابات أخرى - الى مواهب صديقى الموسيقية ، ولكنى لم أره يتفوق على نفسه ويسحر سامعيه بمثل ما رأيته فى تلك الليلة .

لقد حدثت معجزة أمام أعيننا ونحن نرى تلك الآلة تنطق بالحياة وتبعث فى صاحبها حياة أخرى .

ونهض هولمز - دون وعى كما يبدو - وأزاح مقعده الى الخلف مستمرا فى العزف وقد صار أكثر حيوية وأكثر اندماجا . لقد نسيت أسماء الألحان التى بدأ بها - فكما يعلم قرائى لست ذا دراية كبيرة بالموسيقا - ولكنى أظن أنها كانت بعض التدريبات والتأليفات المرتجلة .

الا أننى عرفت فورا المقطوعات الموسيقية التى بدأ يعزفها بعد ذلك . وكما تعلمون لقد كان لهولمز بعض الاتجاهات الدرامية كما كان مدركا لوضعه فى تلك اللحظة .

وبدأ فى عزف فالسات شتراوس . . . ويا للروعة ، ايقاع مرح صاخب ثرى ، يحرك جوارح الانسان ، وسرعان

ما نهض الدكتور فرويد ووضع يده حول خصر زوجته وبدأ يرقص معها الفالس في أنحاء غرفة الجلوس ، وتبعناهما هولمز يعزف ، وأنا وباولا معي ، ولقد أخذتنا النشوة ونحن نرى ذلك المنظر وأنا أرمق صديقي من طرف خفي . لم تفارق البسمة وجهه وبعد لحظات أحسست بيد صغيرة تجذب كم سترتي ونظرت الى أسفل ورأيت أنا وهى تمد يديها نحوى تطلب مراقبتي .

لم اكن طيلة حياتي من النوع المحب للرقص ، اذا أضفنا الى ذلك العرج الخفيف فى ساقى ، فلا شك أننى لم ت أبعد الناس عن ذلك الفن ، ولكنى رقصت . وأعتقد أنه م يكن رقصا رشيقا ولكنى كنت ممثلا حيوية وحسن نية وتتالت ألحان شتراوس : « قصص من غابات فيينا » و « الدانوب الأزرق » و « الخمر والنساء والأغاني » ، عزف هولمز جميعا بينما نحن الأربعة ندور فى أرجاء الغرفة نضج بالضحك والمتعة . وبعد فترة تبادلنا أنا وفرويد فرقصت مع فراو فرويد بينما رقص الدكتور مع أنا الصغيرة . بل لقد بلغت بنا المتعة أقصاها حتى وجدت نفسى أجذب باولا أراقصها والجميع يضج بالضحك ازاء احتجاجاتها .

وعندما انتهى الأمر فى النهاية ، ارتمينا على المقاعد تتلاحق أنفاسنا ونتبادل الضحك والابتسامات رغم أن الموسيقى التى بعثتها كانت قد توقفت . وأزاح هولمز الكمان من تحت ذقنه وأخذ يحملق فيها لفترة طويلة . ثم حول ناظريه عبر الغرفة الى فرويد .

فقال له الطبيب : « لقد فاقت مواهبك كل ما لدى من دهشة » .

ورد عليه هولمز : « أما أنا فقد بدأت أندesh من مواهبك » ولاحظت ، وأنا قرير العين عودة لمعة الحياة والحيوية الى عينيه .

أويت الى سريري تلك الليلة وأنا أعجب لسلطان
الموسيقا . وأظن أن شكسبير قد أشار في موقع ما من
« يوليوس قيصر » الى أن للموسيقا القدرة على تهدئة العواطف
الجياشة ومواساة الروح القلقة ، ولكن لم تتح لى قط
مشاهدة تلك الظاهرة الا فى تلك الليلة .

ولقد استمرت تلك الظاهرة بعد أن هجع أهل المنزل
ولاً بالـنوم ، أما أنا فقد تناهت الى مسامعى ، من خلال
الك جز الرقيق الذى يفصل بين غرفة هولمز وغرفتى ، ألحان
الك ان الى ساعة متأخرة من الليل . فعندما اختلى هولمز
بنـبيه لجأ الى عزف تلك الألحان الحاملة الممتلئة بالشجن
وأنى كان يرتجلها ارتجالاً . كانت ألحانا حزينة يائسة
ـملتنى على أجنتها الى عالم النوم العميق ، وأنا أتساءل
ـستستمر تلك الشرارة التى أشعلناها فى أعماق روح
ـمديقى الباردة أم أنها ستخمد وتموت مع طلوع النهار !
ـقد بينت لى هذه الواقعة أن روحه لم تفقد بعد تلك الجذوة
رأنه يمكن اشعال النار فيها من جديد . أما هل ستكفى
الموسيقا فى حد ذاتها للقيام بتلك المهمة فهذا هو ما كنت
أشك فيه . وخلال نومي المتقطع كنت أرى فى أحلامى ذلك
الوجه الشيطاني الذى يحمل آثار جرح على وجنته ، كنت
أراه يتمشى فى أحلامى .

الفصل العاشر

دراسة فى الهستيريا

جلس هولمز الى مائدة الافطار فى اليوم التالى ساكنا تماما . ولم تتضح عليه أية آثار فيما يتعلق بالواقعة الموسيقية فى الليلة الماضية ، وهل وضعته فعلا على بداية طريق التعافى . وظل وجه الدكتور فرويد جامدا لا يمكن استكشاف كنهه فى مواجهة السلوك المحايد للمريضه . وسأل ، بطريقة طبيعية كالمعتاد كيف كان نوم هولمز ، وما اذا كان يريد قدحا من القهوة .

وقد منعنى ما حدث بعد ذلك - الى الأبد - من التأكد هل كان للكمان وحدها الدور الحاسم فى استعادة صديقى لنفسه . فقد دق جرس الباب ، ومن لحظتها دخلنا فى مغامرة جنونية ما كانت لتحدث لولاه ، ومع ذلك ، ورغم ما تلا ذلك من أحداث ، فقد كنت سعيدا عندما وصل رسول يحمل رسالة الى الدكتور فرويد . وأعتقد أنه لولا ذلك لكان صديقى قد انتكس ، بالكمان أو بدونها .

كان الرسول مبعوثا من مستشفى كرانكنهاوس ، المستشفى التعليمى الذى كان فرويد عضوا به ، ومعه رسالة من أحد الأطباء يسأل فيها هل يتكرم الدكتور فرويد ويأتى ليرى مريضا دخل المستشفى فى الليلة الماضية . وقرأ فرويد الرسالة علينا :

« سأكون شاكرا اذا سمح وقتكم وتبادلتم معي المشورة

بشأن حالة غاية فى الغرابة ، فالمريضة لا تستطيع أو لا ترغب فى الكلام ورغم هزالها البادى فانها تبدو فى تمام الصحة فهل لديك لحظات للمرور علينا وتفحصها ولو بسرعة •
 أنا أعلم أن طرقك غير تقليدية ولكننى احترمتها دائما •
 « التوقيع شولتز » •

— قال فرويد وهو يبتسم ويطوى الورقة : « أترى ان الى
 أى حد أنا منبوذ ؟ — هل تحبان مصاحبتى يا سادة لرؤية
 تلك المرأة الممتنعة ؟ » •

— ورد هولز بنشاط : « سيكون هذا من دواعى اهتمامى »
 وأخذ يطوى فوطه المائدة • واستعددت أنا أيضا • وسألته
 بمرح أننى لم أعرف عنه الاهتمام بمثل تلك الحالات •

— وضحك هولز قائلا : « آه أنا لا أهتم بالمريضة
 ولكننى مهتم بالدكتور شولتز ، ألا يبدو لك شبيها بصديقنا
 القديم لستراى (١) ؟ لقد قررت الذهاب تعاطفا مع الدكتور
 فرويد » •

لم يكن المستشفى بعيدا عن المنزل • وعندما وصلنا
 أخبرنا بأن الدكتور شولتز موجود مع مريضته فى جناح
 الطب النفسى • ووجدناه فى الفناء الخارجى للجناح ، وهو
 فناء لا يوجد له إلا مدخل واحد وفيه يسمح للمرضى بالتنزه
 والجلوس — تحت اشراف — والتريض فى الشمس • كما
 كانت هناك بعض الألعاب الرياضية ، وكان بعض المرضى
 يلعبون الكروكيت • ولو أنهم كانوا يلعبونها بجنون ، وسط
 الصياح والهرج والمرج ومراقبة المرضى •

(١) يشير هولز الى مفتش بوليس سكوتلانديارد ج • لستراى الذى كان مغرما
 شأنه شأن عدد آخر من ضباط البوليس — بالتهوين من شأن هولز وأساليبه ونظرياته
 والذى كان يضطر فى نهاية الامر الى طلب معونته عندما يتسعى احدي القضايا على
 فهمه "الشاذج" •

وكان الدكتور شولتز شخصاً يديناً (مربع الجسم) يضيف على نفسه سمات الأهمية * يقارب الخمسين من العمر به شارب رفيع وعارضان كثيفان لا يتناسقان معه * وسلم على فرويد بشكل رسمي متحفظ ، وعلى أنا وهولمز دون اعتناء * ولما كان المستشفى تعليمياً الى جانب قيامه بعلاج الجمهور ، فانه لم يمانع عندما طلب منه فرويد أن نصاحبه * وأعتقد أنه استشف أنني طبيب ، وافترض أن لدينا أسباباً تدعونا لرؤية المريضة *

وأوضح شولتز الأمر ونحن نسير بجانبه قائلاً : « الحقيقة أن المسألة ليست من اختصاصي ، ولكننا يجب أن نفعل شيئاً من أجل هذه المريضة * فقد أمسك بها بعض الناس وهي تحاول القاء نفسها من على جسر أوجارتن في النهر ، ولكنها غافلتهم وأفلتت وألقت بنفسها في الماء ربما تعاني من سوء تغذية » * واستطرد قائلاً بعد تفكير : « ولكن عندما أحضرتها الشرطة ، أكلت شيئاً طفيفاً * والمسألة الآن هي أننا نريد معرفة شخصيتها فإذا ساعدتنا على معرفة ذلك أو أى شيء عنها سيكون ذلك دينا في عنقى لا أنساه » *

ولم ينم صوته عن أنه سيهتم بأن يكون في عنقه دين لفرويد * ونظر اليه فرويد مبتسماً بدلاً من أن يرد عليه * وقد شدهت - مثلما شده هولمز لرسالته - للشبه الواضح بين نغمة صوته كطبيب محترف وبين نغمة صوت لستراود مفتش بوليس سكوتلانديارد المحقق المحترف * ومهما كانت نظريات فرويد فانها كانت تشبه نظريات هولمز من حيث ما تثيره من شك في الأوساط الرسمية والفكر المحافظ *

- « ها هي - تحت تصرفكم * واعذرني فأنا مطلوب في قسم الجراحة ، من فضلك اترك ملاحظتك في مكتبي اذا تكرمت ، وسأنظر في أمر المريضة مرة أخرى غدا » *

• وغادرننا شولتز في طريقه الى قسم الجراحة ، تاركا أماننا امرأة شابة تجلس على مقعد من الفس ، تنظر الى الحديقة بعينين زرقاوين مفتوحتين لا تطرفان رغم ضوء الشمس الساطع ، وكانت امارات الهزال بادية عليها بينما كانت بشرتها ذات لون أزرق خفيف خاصة حول العينين • وربما بدا وجهها متميزا لولا أن صروف الزمان تركت آثارها عليها • وبدأت لي مجعدة منهكة لولا أن شكل جلستها كان ينبئ أنها واقعة تحت ضغوط شديدة •

• ودار فرويد حولها ببطء ، بينما نراقبه أنا وهولمز • ومر بيده أمام عينيها ولكنها لم تستجب ، ولم تقاوم عندما أمسك برسغها ليقبس النبض ، وعندما ترك يدها سقطت على حجرها كما لو كانت شيئا ميتا • وكان وجهها نحيفا • بل أنحف مما كان يفترض فيه اذا حكمنا من هيئة تركيبها العظمى • ولم نستطع تقدير وزنها نظرا لأنها كانت ترتدي رداء المستشفى الفضفاض • وبدأ على هولمز شيء من الاهتمام بالمرأة ووقف يشاهد بانتباه الفحص الذي يجريه فرويد •

— وقال فرويد بهدوء : « هذا هو السبب الذي استدعوني من أجله • • انهم لا يدرون كيف يتصرفون مع الحالة • لا يمكنهم تحويلها الى أى مكان آخر نظرا لتعاسة الحالة التي هي عليها » •

— فسألت : « وما الذي جعلها هستيرية ؟ » •

— « ليس من الصعب استنتاج السبب • الفقر واليأس وفقدان الأحبة • ولما وصلت بها الفاقة الى منتهائها قررت إنهاء حياتها ، ولكنها حرمت ذلك أيضا فنكصت الى الحالة التي نشاهدها عليها الآن » •

وأخذ فرويد يبحث في حقيبته السوداء حتى أخرج في

النهاية قنينة ومحققنا بينما جلس هولمز بجانبه وسأل « ماذا تفعل ؟ » بينما لم يحول عينيه عن المرأة التعميسة التي جلست أمامه .

– « سأفعل ما أستطيع » ورفع كم الرداء عن ساعد المرأة بينما طهر بقعة من الجلد بقليل من الكحول وقال : « سأحاول تنويمها . ولكي أتمكن من ذلك لابد من اعطائها شيئاً يجعلها تسترخي ويساعدني على جذب انتباهها » .

وهز هولمز رأسه ونهض على قدميه بينما غرس فرويد الحقنة في ذراع المرأة .

وبدأ يهز ساعته ممسكا بسلسلتها جيئة وذهابا متحدثا بصوته القوي الحانى – الذى سمعته كثيرا قبل ذلك – وألقيت نظرة سريعة على هولمز . متسائلا بينى وبين نفسى عن التداعيات التى يجلبها هذا المنظر الى عقله ، ولكنه كان مستغرقا فى ملاحظة استجابات المرأة للساعة ولصوت فرويد .

وأشار إلينا الطبيب بيده الأخرى أن نبتعد قليلا الى الخلف خارج دائرة نظر المريضة واستمر فى الحديث إليها بهدوء يطلب منها أن تنصت إليه وأن تسترخي وأن تدرك أنها بين أصدقاء وهكذا .

فى البداية كنت واعيا بلعبة الكروكيت التى تجرى فى الملعب وأصوات اللاعبين ، ولكن مع استمرار فرويد فى الحديث اختفت الأصوات ، شيئاً فشيئاً ، كان صوته لينا موحيا حتى خيل الى أننا نجلس فى غرفة مكتبه بشوارع برجاس رقم ١٩ .

وبدأت عينا المريضة ترمشان بشكل لا يكاد يلحظ ثم تتابعان حركة الساعة وكانتا فى البداية لا تكادان تلحظانها .

ولمح فرويد ذلك التغير ، فغير من حديثه وأمرها بنفس
النغمة أن تسترخي وتنام

وترددت الفتاة لحظة ، ورمشت عيناها مرة أخرى ، ثم
استجابت وأغمضت عينيها •

— وسألها فرويد . « لا تزالين تسمعين صوتي • - أليس
كذلك ؟ هزى رأسك اذا كنت تسمعينني » هزت الفتاة رأسها
بتباطؤ ، بينما انخفضت كتفها •

— فقال لها فرويد : « ستستطيعين الكلام الآن ، وستجيبين
علي بعض أسئلة بسيطة ، هل أنت مستعدة ؟ اذا كنت مستعدة
هزى رأسك من فضلك فهزت الفتاة رأسها

— « ما اسمك ؟ »

مضت لحظة صمت طويلة • وتحركت شفتاها ولكن لم
يصدر عنهما صوت •

— « من فضلك تحدثي بوضوح أكثر • سأسألك مرة
أخرى وسوف تجيبين بوضوح • ما اسمك ؟ » •

— اسمي نانسي •

أجابت بالانجليزية •

وعبس فرويد قليلا مندهشا وتبادل نظرة لا ارادية
خاطفة معني ثم تحول انتباهه الى الفتاة مرة أخرى •
وصدرت عنه نحنة بسيطة ثم سأل الفتاة باللغة الانجليزية :
« والآن يا نانسي ما هو اسمك بالكامل ؟ »

— « بي اسمان

— « اسمان ! ما هما ؟ » •

سلاتر ، نانسى سلاتر • نانسى أوسبورن سلاتر فون
لينسدورف •

— « حسنا ، يا ناسى سلاتر •• استرخ أنت فى أمان
•• أخبرينى من أين أنت ؟ » •
— « بروفيدانس » •

ونظر فرويد الينا ، متحيرا ، وأعترف أننى أحسست
أننا وقعنا ضحية لنكتة عملية أو « مقلب » •• أم أن خيال
المريضة قد خلق بها فى سماء الأوهام الميتافيزيقية •
وحل لنا هولز المشكلة • لقد كان يقف وراء كرسي
المريضة ، وتحدث الينا بهدوء بحيث لا يسمعه سوانا : « ربما
تشير الى بروفيدانس عاصمة رود أيلاند ، التى هى على
ما أعتقد أصغر ولايات أمريكا » •

وهز فرويد رأسه موافقا ، ثم هز كتفيه معبرا عن
استغرابه ، ثم انحنى أمام الفتاة مرة أخرى. وكرر العبارة :
« من بروفيدانس رود أيلاند ؟ » واستطرد قائلا :

« وماذا تفعلين هنا ؟ » •

— « لقد قضيت شهر العسل فى سقيفة » •

كانت ضرورها تمضغ بشدة وبشكل تشنجى ، وعندما
تكلمت كان بها اعاقة فى النطق لم تسمح لنا بفهم ما تقول
ولقد حيرتنى حالتها وعدم قدرتها على النطق ، ومال قلبى
اليها ، هذه التعيسة ، البتائية •

— « حسنا •• حسنا • استرخ الآن » •

ونفض فرويد وواجهنا « ليس لهذا أى معنى » *

— ورد عليه هولمز بهدوء : « اسألها بعض الأسئلة الأخرى ، وكانت عيناه تختفيان خلف حاجبيه الكثيفين منل رأس الكوبرا ، ولكنى كنت أعلم علم اليقين أنه أبعد ما يكون عن النوم . لقد كان مظهره الحالم هذا ينم عن رضى تام ، بينما كان دخان الغليون هو الدليل الوحيد على وعيه التام بما يجرى . » وحث هولمز فرويد مرة أخرى : « وجه إليها مزيدا من الأسئلة . » اسألها أين تزوجت ؟ » *

— فردد فرويد عليها السؤال

— « فى مجزر » * كانت اعاققتها الكلامية تجعل من الصعب علينا فهم ما تقول *

— « مجزر »

فهزت رأسها * ونظر فرويد من فوق كتفها الينا فى حيرة ، فأشار اليه هولمز أن يستمر فى السؤال *

— قلت لى ان اسمك فون لينسدورف * * فمن هو فون لينسدورف ؟ أهتو زوجك ؟ » *

— « نعم » *

— « البارون كارل فون لينسدورف » لم يستطع فرويد أن يخفى نبرة التحدى فى صوته *

— « نعم » *

— فقال لها : « لقد مات البارون » ولكنه لم يكمل كلامه فقد نهضت المرأة التى تسمى نفسها نانسى ، فجأة بحركة

عنيفة ، وما زالت عيناها مغلقتين ولكنها تجاهد لتفتحهما
وصاحت : « لا » •

– « اجلسى يا نانسى •• اجلسى •• هذا أفضل ••
استرخى ثانية •• استرخى » •

– ونهض فرويد مرة أخرى واجهنا : « هذا من أغرب
ما يكون • من الواضح أن ضلالاتها مستمرة حتى وهى تحت
تأثير التنويم – وهو أمر غير معتاد » •

فقال هولز وهو يفتح عينيه « ضلالات » •• وما الذى
يجعلك تستنتج أنها ضلالات •

– « لأنه لا معنى لها » •

– « هذان أمران مختلفان •• من هو البارون فون
لينسدورف ؟ » •

– « انه أحد أمراء المقاطعة ، عم الامبراطور على
ما أعتقد • ولقد مات منذ عدة أسابيع » •

– « هل كان متزوجا ؟ » •

– « ليست لدى فكرة وأعترف أننى فى حيرة من أمرى •
لقد حاولت التواصل معها ولكن ما قالت لا يفيدنا فى مسألة
ماذا نعمل بشأنها ؟ » •

وأخذ فرويد يفرك قبضتيه فى حيرة ، بينما نحن ننظر
الى المريضة الغريبة • والتى بدأ فمها يتحرك ويتلوى مرة
أخرى •

– « هل تسمح لى بسؤالها سؤالا أو اثنين ؟ » وأوما
هولز الى المريضة •

— وصاح فرويد مندهشا « أنت » وبدأ عليه أنه أكثر
اندهاشا مما وشى به صوته •

— « اذا لم يكن لديك مانع ، فربما أستطيع أن ألقى
قليلا من الضوء على هذا الظلام الذى يحيط بنا »

فكر فرويد فى الأمر ، وهو يتمعن فى هولز • الذى كان
ينتظر اجابته وقد أحاط نفسه بمظهر اللامبالاة ، الا أننى
عرفت من مئات العلامات التى لا يعرفها سوى كيف أنه كان
يتحرق شوقا لموافقة الدكتور على طلبه

وتدخلت فى الحديث قائلا : « لن يكون هناك ضرر
خاصة أن الأمر غامض كما اعترفت وبالتالي فلا ضرر هناك
من بعض المساعدة • وأنا خير العارفين بما يمكن أن
يستخرجه صديقى من المعانى فى مواقف أقل وضوحا بكثير •

وتردد فرويد قليلا • وأعتقد أنه لم يكن مستعدا
للاعتراف بالهزيمة أو الاقرار بحاجته الى العون • ولكنه
كان محتاجا للعون ، وأظن أنه قد استشف ما يغنيه ذلك
لهولز ، الذى لم تظهر عليه هو الآخر علائم الحيوية الا مؤخرا •

— « حسنا ولكن أسرع فان آثار المنوم تزول وسوف نفقد
السيطرة مرة أخرى » ولمعت عينا هولز لحظة من فرط
الاستثارة ولكنه سرعان ما أسدل جفنيه وتبع فرويد فورا
ووقف أمام المريضة •

— « هناك من يريد التحدث اليك يا نانسى • ويمكنك
التحدث بحرية اليه كما فعلت معى هل أنت مستعدة ؟ » •

— « نعم » •

وأوما فرويد الى هولز الذى جلس على العشائش عند

قوائم الكرسي ونظر اليها من أسفل • وكانت يداه تسترخيان على حجره ولكن أطراف أنامله كانت تضغط على بعضها بطريقته المعتادة حين يصفى الى تقرير من أحد زبائنه •

— « نانسي • • قولى لى من الذى قيد رسغيك وساقيك » •
ولم تكن به حاجة الى صوت فرويد الهادئ ، إلا أننى لاحظت —
لدهشتى — أن صوت هولز عندما كان يواسى مرضاه ويطيب خاطرهم فى منزلنا بشارع بيكر لم يكن يفترق عن صوت فرويد •

— « لا أعلم » •

ولأول مرة لاحظت أنا وفرويد الآثار الزرقاء على رسغ وساق المريضة •

— « لقد استخدموا رباطا من الجلد أليس كذلك ؟ » •

— « نعم » •

— « ووضعوك فى سقيفة » •

— نعم •

— « كم لبثت فى ذلك المكان ؟ »

— « أنا • • أى • • » •

ورفع فرويد اصبعه محذرا هولز وأوما الأخير برأسه •

— « حسنا يا نانسي ، دعك من هذا السؤال وأخبرينى

كيف هربت ؟ كيف غادرت تلك السقيفة

« كسرت النافذة »

« برجليك » •

— « نعم » •

ولاحظت في تلك اللحظة آثار الجروح في بطن ساق الفتاة •

— « ثم استخدمت قطع الزجاج المكسور لقطع قيودك؟ » •

— « نعم » •

— « ثم تسلقت المواسير » •

وفحص يديها بلطف • ولفت هولز نظرنا الى الأظافر المكسورة وآثار الجلد المجلوط في راحة اليد • وكانت يداها في غاية الجمال طويلتين ، رشيقتين جميلتي التكوين •

— « ثم سقطت • • أليس كذلك ؟ » •

— « نعم » وطفى على صوتها نبرة انفعال وأخذت شفتاها تدميان من ضغط الأسنان عليها •

ووقف هولز وقال : « انظروا هنا أيضا أيها السادة » ، وأزاح بيده الى الخلف خصلة من شعرها الكستنائي قبانت لنا كدمة زرقاء قاتمة •

وخطب فرويد الى الأمام وأشار الى هولز أن يتوقف عن استجوابه ، فانسحب الى الخلف وهو ينفذ التبغ من غليونه •

وقال فرويد للفتاة : « والآن يا نانسي • • استرخي ونامي • • نامي » واستجابت الفتاة وغرقت في النوم •

الفصل الحادى عشر

زيارة الى الأوبرا

جلسنا فى مقهى صغير فى سنسان جاس ، يقع الى شمال المستشفى ومعهد الباثولوجيا وأخذنا نحتسى قهوة فيينا اللذيذة ونحن نتدبر مشكلات تلك المرأة التى تسمى نفسها نانسى سلاتر فون لندسورف • وقال فرويد : « ماذا يعنى هذا كله ؟ » فأجاب هولمز بهدوء « يعنى الشر والحب • • نحن لا نعلم الى أى حد هى صديقة فى روايتها ، ولكن الذى لا شك فيه أن تلك السيدة قد أوثقت أطرافها وتركت جائعة فى غرفة تواجه بناية أخرى فى حارة ضيقة • وأنها قد هربت بطريقة لا تختلف عما وصفته لنا • ومن المؤسف أن المستشفى قد تخلص من ملابسها • والا كنا قد علمنا الكثير عن حالتها الأصلية » •

واختلست نظرة الى فرويد ، مؤملا ألا يأخذ كلام هولمز على محمل الغلظة لقد أدرك المخبر السرى بجانب من عقله ضرورة العناية بالمرأة والاهتمام بها وأنها غارقة حتى أذنيها وتحتاج للعون والمساعدة • ولكن الجانب الآخر بشكل أوتوماتيكى يصنف البشر باعتبارهم أجزاء من مشكلة ، وفى هذه اللحظة فان اشارته اليهم — أمام هؤلاء الذين لا يعرفون طريقته بـ ستبدو غاية فى الغرابة •

الا أن الدكتور فرويد ، على أية حال ، كان منشغولا بمتابعة فكره هو نفسه.

— « .. والأدهى من ذلك أننى كنت على وشك أن أحرر شهادة باعتبارها مجنونة .. وأننى لم أر .. »

— وقاطعه هولمز : « لا .. لقد رأيت ولكنك لم تلاحظ الفرق شاسع بين الاثنين وأحياناً يكون عاملاً حاسماً » .

— « ولكن من هى ؟ هل هى فعلاً من بروفيديانس ؟ رود ايلاند . أم أن ذلك من وحى خيالها » .

— فقال هولمز : « من أكبر الأخطاء أن نضع النظرية قبل تمنعنا الواقع ، فلا شك أن ذلك سيجعل حكمنا منحازاً » .

وأشعل هولمز غليونه ، بينما أخذ فرويد يحملق فى فنجانه . لقد انقلب وضع الرجلين خلال الساعتين الماضيتين . فمن قبل كان الطبيب هو المعلم والمرشد ، أما الآن فقد اتخذ هولمز هذا المقام — وهو دور أسهل عليه وأكثر ألفة من دور المريض العاجز . ورغم أن ملامحه ظلت مستفلة على الفهم ، فقد أدركت كيف ابتهج وانشرح لعودته الى ذاته المألوفة القديمة بينما فرويد — والحق يقال — لم يكن نافراً من القيام بتدوير التلميذ .

— وسأل : « ما العمل الآن ؟ هل نبليغ الشرطة ؟ » .

— « لقد كانت فى يد الشرطة عندما اكتشفت الحادثة .. »
فاذا لم يكونوا قد فعلوا لها شيئاً عندئذ فما الذى يدفعهم الى ذلك الآن ؟ وما الذى سنخبرهم به ؟ نحن لا نعلم الا أقل القليل ولن يجديهم ذلك — وأضاف — ولو أن ذلك قد

ينفع فى لندن • فضلا عن ذلك ، اذا كان هناك لأمر ضلع
فى الموضوع ، فقد لا يحبون التعمق فيه » •

— « ماذا تقترح اذن ؟ » •

اضطجع هولز الى الخلف فى مقعده ، واتخذ مظهر من
يتأمل نقوش السقف •

— « هل لديك مانع من تولى الأمر بنفسك ؟ » •

— « أنا » وبذل هولز قصارى جهده لتبدو عليه الدهشة ،
ولكن الدور كان « متفصل عليه » وأظن أنه فى هذه المرة قد
بالغ فى دهشته • وقال : « ولكن حالتى لا • • » •

— « من الواضح أن حالتك لم تؤثر على قدرتك — قالها
فرويد بنفاد صبر — فضلا عن أن العمل هو بالضبط
ما تحتاج اليه » •

وتخلى هولز عن المناورة وجلس فى مقعده منتصب
القامة وقال : « حسنا أول شئ نفعله هو أن نتحرى عن
البارون فون لينسدورف ، من هو ؟ وما الذى سبب موته ؟
ومتى • • الخ • وبالطبع هل كان متزوجا ؟ واذا كان فما
جنسية الزوجة ؟ ولما كانت مريضتنا لا تستطيع الاجابة على
تلك الأسئلة فعلينا أن نتناول القضية من طرفها الثانى » •

— وسألته : « ما الذى يجعلك تقول ان الغرفة الضيقة التى
حبست بها المرأة كانت تواجه بناية أخرى وبينهما حارة
ضيقة ؟ » •

— « هذا بديهى يا واطسون • • فقد كانت بشرة
المريضة بيضاء مثل بطن السمكة ، الا أننا نعرف مما قالته

أنه كان توجد نافذة فى هذا السجن وأنها كانت كبيرة بما فيه الكفاية لتسمح بهروبها • والنتيجة : أنه رغم وجود النافذة كان هناك شئ ما يحول دون دخول كمية كبيرة من أشعة الشمس ، لأنه اذا كانت الشمس تدخل فلن تصبح المريضة بهذا اللون الأبيض الممتقع وما الذى يفعل ذلك سوى بناية كبيرة أخرى ؟ ودعنا نذهب الى أبعد من ذلك ونقول ان تلك البناية أحدث من تلك التى وجدت بها مريضتنا • لأن المهندسين لا يفتحون النوافذ عادة أمام الحوائط » •

— وصاح فرويد « ممتاز » وبدأ عليه الرضى والأمل من كلمات هولز ومن طريقته الهادئة المطمئنة •

— « انها مسألة الربط بين الاحتمالات بطريقة منطقية • انظر مثلاً الى مسرحية العاصفة لشكسبير حين حطمت العاصفة سفينة الدوق وألقت به وبزملائه الى شاطئ جزيرة بروسبيرو دون أن تبطل ملابسهم • لقد ظل النقاد والمفسرون يتجادلون لسنين طويلة حول تلك العاصفة الغريبة • فمن قائل انها عاصفة ميتافيزيقية ، ومن قائل انها عاصفة رمزية وغير ذلك من التفسيرات الرامية الى تفسير كيف تغرق العاصفة رجال البحر دون أن تبطل ملابسهم • ولكن لو نظر هؤلاء الى أن الملابس كانت هى الجانب الأعلى ثمناً فى تقاليد المسرح الأليزابيثى ، وان ادارة المسرح لم تكن لتستطيع تحمل المخاطرة بتعفن الملابس فى كل مرة تعرض فيها المسرحية ، دعك من احتمال اصابة الممثلين بالالتهاب الرئوى ، لأدركوا السبب فى أن العاصفة لم تبطل ملابس الدوق • ومن السهل أن نتصور — متى ما عرفنا هذه الحقيقة — أن أصحاب المسرح قد طلبوا من المؤلف أن يشير الى جفاف الملابس بعد هذه العاصفة • وغالباً ما سيكون هناك مقابل نمساوى لأصحاب شكسبير — وربما استفدنا من عصر هذا اليوم اذا حاولت يا دكتور فرويد أن تبحث عن بعض التفاصيل الخاصة بالمرحوم البارون فون لينسدورف » •

واستدار هولمز الى ، بعد أن انصرف فرويد ليقوم
بالتحرى عن حياة البارون ، وقال : « دعنى أستخدامك
يا عزيزى واطسون مرآة لى ، فعلى أن أخطو بحذر - لا بسبب
اننا نواجه لغزا غامضا - ولكن لأننى أشعر كالملاح الذى
قضى وقتا طويلا على الشاطئ وعلية أن يستعيد مهارة
امتطاء ظهر السفينة ، وبهذه المناسبة ما رأيك فى أن نترى
قليلا » *

دفعنا الحساب ، واتخذنا طريقنا الى فارينجر ستراس
حيث اتجهنا يميننا وكان هولمز قد حشا غليونه مرة أخرى
وتوقفنا لحظة ريثما يشعله فى وجه النسيم ، وقال :

- « هناك احتمالان يا واطسون ، الأول أن تكون
هذه المرأة هى فعلا من تدعى والثانى ، أنها تعيش فى أوهام
أو حريصة على أن تضللنا ، لا تنظر الى نظرة الاندهاش
يا عزيزى ، نحن لا نستطيع أن نستبعد هذا الاحتمال فى
هذه المرحلة فربما كان تصنعها لمصلحتنا وعلى أية حال سنترك
مسألة هويتها هذه ، حتى نحصل على معلومات جديدة ، أما
بقية عناصر القضية فمن حقنا أن نخمن * * فلماذا حبست
تلك المرأة فى سقيفة ، مقيدة الأطراف ؟ وسواء أكانت أميرة
أم متسولة * فهناك احتمالان فقط ، اما أن خاطفيها يرغبون
أن تقوم بعمل ما * واما يرغبون فى منعها من القيام
بعمل ما » *

فجازفت بالقول : « طالما هى مقيدة اليدين والرجلين
فان الاحتمال الأخير هو الأرجح » *

ونظر هولمز الى وهو يبتسم :

- محتمل ، يا واطسون محتمل * ولكن اذا افترضنا
انها متسولة ، متسولة تتكلم الانجليزية بلكنة أمريكية -

فما الذى يمكنها أن تفعله ، وتجاه من بحيث يخشونها ؟ وإذا كانوا يخشونها ويرغبون فى منعها من القيام بأى شىء فلماذا تركوها حية على الإطلاق ؟ لماذا ؟ » •

— وقاطعته : « ولكن ياهولمز فلنفترض أن هؤلاء الناس — آيا كانوا — رغبوا فعلا فى التخلص منها — ألا يحتمل انهم دفعوها عمدا لارتكاب محاولة الانتحار فى النهر ؟ » •

— « تعنى انهم سمحوا لها بالهرب ؟ لا أظن ذلك يا واطسون ، فلقد كان هروبها جريئا ومبتكرا بحيث لم يتوقعه خاطفوها وتذكر انها انزلت على مواسير المجارى بحيث هشتت رأسها » •

ومشيننا بعض الوقت فى صمت • ولاحظت أننا تجاوزنا منزل الدكتور فرويد فى شارع البرجاس واتجهنا ببطء صوب النهر ، فسألته :

— « هل تنوى الذهاب الى مكان الحادث على جسر أوجارتن ؟ » •

— فأجابنى بنفاد صبر : « وما الذى سنستفيد من الجسر الآن ؟ نحن نعلم أن الشرطة وجدوها هناك وفشلوا فى منعها من القاء نفسها من فوقه • كلا الأفضل أن أحاول البحث عن المبنى الذى حبست فيه • انه شىء يثير الغيظ عندما يكون عميلك غير قادر على الكلام » •

— وما الذى يجعلك تظن انه سيكون بوسعك العثور على المبنى ؟ قد يوجد فى أى مكان فى فيينا •

— كلا يا عزيزى واطسون ، انه ليس فى أى مكان فى فيينا • تذكر أن هذه السيدة وهى فى حالتها الواهنة تلك لم تكن لتستطيع المشى مسافة كبيرة • لقد استنتجنا أنه موجود

فى حارة ، ألا توجد الحوارى عادة قرب الشواطىء ؟ ربما
فى مخزن تقابله من الناحية الأخرى مسلخ أو ما شابه * على
آية حال أنا لا أتوقع أن أجد البناية ، وإنما أحاول ببساطة ان
أكون فكرة عن مكان الأحداث بشكل عام .

وخلد الى السكون * تاركا اياى لأفكارى والننى ذبذبت
مشوشة تماما * ولم أشأ أن أقطع عليه تأملاته ، ولكن كلما
زاد تفكيرى فى الامر زادت دهشتى وحيرتى *

— « ولكن يا هولز * لماذا تجشم المرأة نفسها كل هذا
العناء للهرب نم تلقى نفسها فى النهر عند أول فرصة ؟ » *
— « سؤال معقول يا واطسون ، بل سؤال فاتح للشهية
ولعله اكثر الاسئلة حسما لقضيتنا ، ولو أنه يوجد حاليا
عدد لا نهائى من الدوافع وكلها تعتمد ، فيما اظن ، على
تحديد شخصية عميلتنا » *

— « ربما نحن نجعل ، من الحبة قبة » خاطرت بقولى
هذا ، لأننى ورغم رغبتى فى ألا أحرم صديقى من العلاج
الذى تتضمنه القضية ، كنت لا أريد بناء آمال زائفة وتابعت
قولى : « ربما كانت ضحية تعيسة لشخص ما ، عاشق مختل أو *

— فقاطعتنى هولز ضاحكا : « لا ينفع هذا الكلام
يا واطسون ، فأولا المرأة غريبة عن هذه البلاد ، وتحت تأثير
التنويم كانت تجيب على الأسئلة بانجليزية أمريكية *
ثانيا جاء ذكر البارون فون لينسدورف ، وهو شخصية كبيرة
كما يبدو * وأخيرا « وفيها ايه يعنى » فحتى لو كانت القضية
بسيطة وصغيرة ، فلها طعمها الخاص ولا يوجد سبب يجعلنا
لا نقدم لتلك المرأة حقها مثل ما تستحقه أية أنثى أخرى ذات
جاء ومال » *

ولم أنبس ببنت شفة وإنما سرت بجانبه فى صمت حتى
دخلنا قطاعا من المدينة كان من الواضح أنه أقل شأنا من
الأحياء التى صادفناها حتى الآن *

كانت المنازل منخفضة لا يزيد علو الواحد منها عن طابقين ، مبنية من الخشب لا من الحجر ، تبدو عليها المداره ويحساج معظمها الى طلاء . وجميع ازقتها تنحدر نحو الساطىء حيث تنهى المنازل قريبا من حافة المياه . وهناك على الساطىء الصخرى تنتشر قوارب صيد رنه متداعية كأنها حيتان صغيرة ممددة وامتدت اعمدة التلغراف القصيرة واسلاكها متدليه لتكمل الصورة الموحشة الكئيبة أما القناة بمسها فكانت تالئة الاتافى ، شاطئها موحل ومياهها راكدة ومحتشدة بسفن قبيحة المنظر - حيث ان فيينا تستقبل كافة احتياجاتها عن طريق البحر - كان المنظر يذكرنى بأجزاء من نهر التايمز أكثر مما يذكرنى بنهر الدانوب الجميل الذى كان يقع على بعد عدة أميال الى الشرق . خارج مرمى النظر .

وهنا وهناك كانت تتناثر مستودعات ، ثم رصيف قصير يحاذى الامتداد البلامتناهى للمساكن والبنائيات . وتتصاعد بين الحين والآخر موجات من الصخب والضحك واصوات الاكورديون مما ينبىء بوجود حانات وملاه فى الجوار - وشتان ما بينها وبين فخامة مقهى جرينشيتدل وعلى بعد مسافة ربع ميل تقريبا الى اليمين يقع جسر أوجارتن حيث تمت الواقعة .

وعلق هواز وهو يمسح المكان بناظريه : « هذه جيرة مقبضة ، ان أية بناية من تلك البنائيات تفى بمواصفات السجن الذى وضعت به نانسى سلاتر » .

— نانسى سلاتر ؟

— « نعم يا واطسون ، سنستخدم هذا الاسم مؤقتا . وأنا لست طبيبا ولذلك لا أستطيع الاشارة اليها بوصفها مريضة ، كما أن كلمة « زبونة » لا تبدو ملائمة فى الظروف

الحالية • فهي ليست فى وضع يمكنها من الحديث إلينا • فضلا عن أن تستأجر خدماتنا • هلا عدنا أدراجنا ؟ أعتقد أن الدكتور فرويد قد رتب لنا الليلة حضور الاوبرا • وأنا أتشوق لسماع فيتللى ، رغم ما يقال من أنه « راحت عليه » وفى كل الأحوال لا بد لى من التأكد من أن ملابس السهرة التى اشتريتها لى تلائمنى » •

غادرنا ذلك المكان الكئيب وعدنا أدراجنا • ولم يقل هولمز شيئا ونحن فى طريق العودة ، ولو أنه توقف عند مكتب تلغراف حيث أرسل برقية • ولما كنت أعرفه معرفة جيدة ، فلم أحاول أن أقترح عليه أفكاره وإنما شغلت نفسى بالمشكلة التى تواجهنا ، محاولا ، دون أى نجاح ، أن أمنع نفسى عن الاستنتاج والتوقع متخطيا الوقائع • ولكنه كان جهدا ضائعا وسرعان ما انصرفت عنه • لقد كان عقلى غير مرتب وغير منطقى ، مثله مثل عقل صديقى ، فقد كان يسرح فى شطحات خيالية ، مبتكرا حلولا لا منطقية تماما ، حتى انى لا أجد الشجاعة لذكرها •

ولكننى نجحت تماما فى مهمة أخرى وهى شراء ملابس السهرة لهولمز ، فقد كنت أعرف مقاساته وعدلت قليلا فيها لتناسب ما طرأ عليه من هزال ، وطلبتها من محلات هورنى ، الخياط الأنيق المعروف فى ميدان ستيفان (ستيفان بلاتز) • وكانت لائقة عليه بشكل رائع •

كان الدكتور فرويد فى المنزل عندما وصلنا ، ومعه المعلومات التى كان هولمز نفسه سيحصل عليها لو كان ذا معرفة بالمدينة واللغة • ولقد استغرقت منه تلك المعلومات بحثا ليس بالقصير • ومع ذلك فقد بقى لديه من الوقت ما يكفى ليقابل مريضا بعد الظهر ، الرجل الذئب ، أو الرجل الفأر لا أدرى •

كان البارون كارل هلموت ولفجانج فون لينسدورف (كَمَا اخبرنا فرويد) خلا تانيا للامبراطور فرانز جوزيف • وهو ينحدر من مقاطعة بافاريا ، وليس النمسا ، وكانت معظم ممتلكاتهم - والتي تشمل عدة مصانع لصناعة الذخيرة والأسلحة - تقع في وادي الرور في ألمانيا •

وكان نجما من نجوم مجتمع فيينا - رغم انعزاليته - ومن كبار عشاق المسرح • وقد تزوج مرتين ، الأولى من إحدى أميرات بيت هابسبورج الأقل شأنا والتي توفيت من حوالي عشرين عاما وتركت ولدا واحدا هو الوارث الوحيد •

أما البارون الشاب مانفريد جوتفريد - كارل ولفجانج فون لينسدورف فيتمتع بسمعة أقل احتراما مما كان يتمتع بها والده المتوفى • فكان مبذرا متلافا • وبلغت ديونه في القمار مبالغ طائلة • وكانت طباعه - خاصة فيما يتعلق بالنساء - لا تتورع عن اتيان أى فعل • وقد التحق بجامعة هيدلبرج لمدة ثلاث سنوات ولكنه تركها فى ظروف مريبة • أما آراؤه السياسية فمحافظة جدا ويحيد العودة الى ...

- وقاطعه هولمز بهدوء : «وماذا عن زواجه الثانى؟» •

- « ثم تمت زيجة أخرى قبل شهرين من وفاته ، أثناء رحلة لأمريكا • فقد تعرف على وارثة لأحد مصانع النسيج فى بروفيديانس وهى نانسى أوسبون سلاتر وتزوجا على الفور » •

- وتعجب هولمز قائلا : « وفيم كانت العجلة ؟ مثل هؤلاء الناس من ذوى الثروة والجاه عادة ما يطيلون فترة الخطبة والزواج حتى يستمتعوا بمباهجها وحفلاتها » •

- فأجاب فرويد وهو يهز كتفيه : « لقد كان البارون

يناهز السبعين • ربما - بالنظر الى وفاته التي أعقبت الزواج مباشرة - ربما أحس بدنو أجله » •

- علق هولمز : « صحيح • • صحيح وأغرب فأغرب » واضطجع على كرسيه مرتديا ملابس السهرة وقد مد رجله الطويلتين نحو المدئة فى مكتب فرويد وعيناه تلمعان تحت جفونه شبه المغلقة • وكانت أطراف أنامله تتشابك كما كانت عادته عندما يرغب فى التركيز •

- واستمر فرويد فى حديثه : « ثم عاد الى أوروبا على ظهر السفينة « اليسيا » فى حوالى منتصف مارس • وذهبا مباشرة الى فيلا البارون فى بافاريا - وهو مكان منعزل فعلا يصعب الوصول اليه كما قيل لى - وهناك توفى البارون منذ حوالى ثلاثة أسابيع » •

- وتمعن هولمز فى الأمر : « أكثر قليلا من شهرين » ثم فتح عينيه وسأل : « هل استطعت أن تحدد سبب الوفاة ؟ » • - وهز فرويد رأسه بالنفى : « لم يعد شابا كما قلت لك » •

- ولكنه كان فى صحة جيدة •

- « هذا صحيح فى حدود ما علمته » •

- « هذا أمر مثير للاهتمام » •

- فتدخلت قانلا : « ولكنه لا يؤدى الى شىء » فعندما يتزوج رجل عجوز حتى ولو كان متمتعا بالصحة - من امرأة عمرها أقل من نصف عمره • • » •

- وأجاب هولمز : « هذه نقطة وضعتها فى اعتبارى » ثم استدار الى فرويد « وما الذى حدث لأرملته ؟ » •

- وتردد فرويد ثم قال : « لم أستطع أن أعلم شيئا عنها ، ويبدو أنها تعيش هنا فى فيينا كما يبدو أنها أشد انعزالية من زوجها الراحل » •

فقلت : « مما قد يعنى أنها لا توجد هنا اطلاقا » •

وساد صمت ، كان هولمز خلاله يتدبر تلك المعلومات ويخزنها فى المكان الملائم فى عقله الجبار . ثم قال : « ربما كان لمثل هذا الانعزال ما يبرره ، فهى فى حالة حصاد . ولا تعرف الا عددا قليلا من الناس فى هذا البلد ما لم تكن جاءت هنا من قبل - ولا تتكلم الألمانية . . وبالتأكيد انها لم تزر فيينا » .

ثم وقف ونظر فى ساعته وقال : « يا دكتور هل السيدة زوجتك مستعدة لمرافقتنا ؟ أعتقد أنك ذكرت أن الستار ترفع فى الثامنة والنصف » .

لقد كتب الكثير عن دار أوبرا فيينا الأسطورية وبأقلام أبرع من قلمي بكثير ، مما يثنينى عن محاولة وصف تلك الدار الخرافية . ومع ذلك فان زيارتى لها وهى فى اوج مجدها ورشاقتها وفيينا فى قمة ثرائها وعزها ، تجعلنى أقول اننى لم أشاهد الفخامة فى أجلى صورها مثلما رأيت فى تلك الليلة . كانت الثريات المتدلية المتلاثة لا يضاهيها الا الجواهر اللامعة على صدور الفاتنات اللاتى تزيين بأبهى الحلل . وكم تمنيت لو كانت مارى الى جانبى ! كانت الماسات تلمع على الدانتيل والمخمل والأنجسام الحريرية ، بحيث كان النظارة - يحق - لا يقلون بهاء عن المنظر .

وكانت الأوبرا المقدمة فى تلك الليلة من أعمال فاجنر، ولكنى لا أتذكر اسمها الآن . وكان هولمز يعبد موسيقا فاجنر . ويقول انها تساعد على التأمل، ولو أننى لا أستطيع أن أفهم كيف يحدث ذلك . وكنت أكره تلك الموسيقا من أعماقى . لم يكن بوسعى الا أن أفتح عينى وأسد أذنى وأنا أجاهد حتى تمر تلك الليلة التى لا تلوح لها نهاية . أما هولمز، الجالس على يمينى، فقد انسجم مع الموسيقا منذ لحظة بدايتها . ولم يتكلم الا مرة واحدة ليلفت انتباهى الى فيتلى العظيم ، وكان شخصا قصير القامة على رأسه « باروكة » شقراء فضيحة المنظر ، ذا ساقين سمينتين وظهر فى الجزء الأوسط من

الأوبرا • وأستطيع أن أقرر بكل تأكيد أن رجلية كانتا
سمينتين لأن جدد الكاب الذي كان يرتديه كان يعريهما تماما ،
لقد ولي زمنه بكل تأكيد •

— وعلق هولز فيما بعد : « ما كان يجب عليه أن يقدم
فاجنس » « لا تليق به » وسواء اذانت تليق به ام لا فقد مضى
زمنه • ومهما كان الأمر فان هولز قضى ساعدين بالسمام والدمار
فى عالم اخر غير عالمنا هذا • وكانت عيناه مغلقتين معظم
الوقت ، ويداه « تنقران » على ساقيه مع الموسيقى ، بينما
راحت عيناي تجوبان الدار بحثا عن شيء أتسلى به من هذا
الملل المميت •

واذا كان هناك شخص آخر أسقمته الأوبرا سوى فلم
يكن سوى فرويد • كانت عيناه مغلقتين لا بدافع التركيز
وانما بسبب النوم • الأمر الذي حسدته عليه •

وبين الفينة والفينة ، كان شخيرہ يتصاعد وذن ذراو
فرويد كانت تلكره فيستيقظ مذعورا ينظر حوله فى
دهشة • ولم يكن اهتمامه بالموسيقا يتعدى الفانس وبضعه
اشياء اخرى • وكانت رغبة هولز فى حضور الاوبرا هى
التي دفعته لدعوتنا • ولا شك أنه رغب فى تشجيع اول
بادرة تبدو من مريضه وتنم عن اهتمامه بالعالم الخارجى •
ولكنه — أى فرويد — ما أن وصل الى الأوبرا حتى وجد انه
غير قادر على الاستجابة للفتاء أو المؤثرات المسرحية ، وكان
بعضها مسلليا جدا • وأخذ يشاهد فى تبرد تنينا ظهر على
المسرح وقد أحكم صنعه وتحركه آليات ماهرة • وبينما كان
فيتللى العظيم يستعد لذبحه (١) بدأ التنين فى الغناء مما
دفع بفرويد الى أحضان النوم ثانية ، ولا بد أننى استسلمت
لنوم كذلك • اذ لم أدر الا والأنوار تضاء والناس ينهضون
من مقاعدهم •

(١) أغلب الظن انها كانت اوبرا سيدهريد (نيكولاس ماير) •

كانت هذه الاستراحة الأولى • وقدمت ذراعى لفراو
فرويد وخرجنا نحن الأربعة الى الردهة بحثا عن المشروبات •
وعندما مررنا بقرب المقاصير فى الطابق الاول ، توقف
هولمز وتطلع اليها ، ثم قال بهدوء : « ألم يكن البارون فون
لينسدورف راعيا للأوبرا ؟ اذن سنكون هناك مقصورة باسمه
بالتأكيد » مشبرا بطرف عينه الى المقصورات دون ان يميل
برأسه •

فوافقه فرويد وهو يغالب التثاؤب : « بالتأكيد •
ولكننى لم أحصل على معلومات مؤكدة بشأن هذا الموضوع » •
واقترح هولمز : « فلنحاول معرفة ذلك » وتحرك صوب
الدھليز •

كانت الأسر الارستقراطية والعائلات الثرية لها حظ
اقتناء مقصورة فى الأوبرا • ولم يكن بها حاجة الى التدافع
للحصول على ما تريده من مشروبات ، فقد كان هناك الخدم
ذوو الملابس المزركشة يحملون اليهم فى مقصوراتهم
ما يحتاجونه • أما بقية الناس فكان عليهم أن يتبعوا أساليب
بهلوانية ليشقوا طريقهم من خلال حلقة من السيدات حتى
يصلوا الى الدائرة الضيقة المحيطة بالبار •

وتركت فرويد وزوجته يتجاذبان أطراف الحديث
وغامرنا أنا وهولمز بالمرور فى ذلك الزحام ورجعنا منتصرين
ولو أننى سكبت نصف كأسى تقريبا عندما انحرفت لأتفادى
شابا مندفعاً فى الطريق المضاد •

ووجدنا فرويد يتحدث مع سيد طويل القامة فى ثياب
أنيقة يبدو لدى النظرة الأولى شابا ولكنه لا يبدو كذلك لدى
النظرة الثانية • وينظر الى العالم من خلال نظارات أنفية
سميكة لا أظن أنى رأيت أسمك منها فى حياتى • وكانت

ملاصحه وسيمه متناسقه وشديده الجدية ولو أنه يتسم
ابتسامه خفيفه عندما قدمنا فرويد اليه :

— « دعونى أقدم لكم هوجو فون هوفمانستال - هذه
زوجتى التى تعرفها وهؤلاء السادة ضيوفى هر هولز ودكتور
واطسون » •

وبدت على فون هوفمانستال الدهشة :

— « أنتما هر شرلوك هولز ودكتور جون واطسون
بعينهما ؟ •• هذا شرف عظيم ! » •

— وأجاب هولز بلطف : « لا يقل عن تشرفنا بك — ومال
برأسه قليلا — اذا كنت أنت مؤلف « جسترن » •

— وانحنى الرجل انحناءة كبيرة بينما اندفعت حمرة
النجل حتى قمة رأسه • وكانت استجابة احراج مشوب
بالسرور • لم أكن أتوقعها منه • ولم تكن لدى فكرة عن
« جسترن » التى أشار اليها هولز • ولهذا لذت بالصمت •

ووقفنا سويا عدة دقائق نحتسى الشمبانيا ، بينما دخل
هولز مع فون هوفمانستال فى مناقشة حامية عن أوبراته
وسأله عن زميله الذى يتعاون معه فى تلك الأوبرا وهو من
يدعى ريتشارد شتراوس • والذى لم أستطع ايجاد صلة بينه
وبين شتراوس صاحب الفالسات الذائعة الصيت (١) • وكان
صاحبنا الجديد يحاول الاجابة على أسئلة هولز بقدر ما يمكنه
بلغة انجليزية « مكسرة » متجاهلا الأسئلة الأكثر صعوبة
التي وجهها هولز بشأن الايقاع الشعري الذى يفضلها فى
كوميدياته • ثم سأل عن السبب فى وجودنا فى فيينا •

(١) يبين اهتمام هولز بفون هوفمانستال ومعرفته بالتعاون بينه وبين شتراوس بأنه
كان على اللفة بالمحاولات الفنية المحددة • وقد اكتسح هذان الرحلان ، بعد عدة عقود ،
العالم عندما قدما أوبرا « الفارس الوردى » (نيكولاس ماير) •

— « هل السبب أنك تبحث قضية جديدة ؟ » تساءل في دهشة وعيناه تلمعان بفضول التلميذ .

— وأجابه هولمز « نعم ولا » ثم استطرد قبل أن يتابع الآخر الحديث « هل البارون فون ليسندورف الجديد، له نفس الاهتمام الذي كان لوالده بالأوبرا ؟ » .

— وكان السؤال مفاجئاً حتى ان فون هوفمانستال ذهل للحظة وظل يحملق في صديقي ببساطة . ولكنى فهمت المنطق الكامن وراء السؤال . اذ لما كان فون هوفمانستال من نجوم الحياة الفنية الأوبرالية في فيينا فلا بد أن معرفته بمن يرعونها ستكون وثيقة بلا شك .

— وأجابه الشاعر ببطء وهو يدير ساق كأسه في يده سارح البال : « ان سؤالك هذا من أغرب الأمور » .

— فسأله فرويد الذي كان يتابع الحديث باهتمام : « وما وجه الغرابة ؟ » فرد فون هوفمانستال بسرعة وبأغة ألمانيا فصيحة : « لأنه حتى هذه الليلة كانت اجابتي ستكون لا . . فلم أعرف عنه قط أن له أى اهتمامات بالأوبرا . وبصراحة لقد خشيت أن الموسيقى بوفاة البارون الكبير قد فقدت واحدا من أقوى أنصارها » .

— وقال هولمز : « والآن ؟ » .

— « والآن » رد عليه الشاعر بالانجليزية : « انه اليوم في الأوبرا » .

— « البارون هنا الليلة ؟ » .

فهز فون هوفمانستال رأسه وهو في حيرة من أمره ويشتم رائحة قضية جديدة وقال : « تعال . . سأريك اياه » .

كان جمهور الرواد يعود عندئذ الى الداخل بعد أن رن الجرس المؤذن ببدء الفصل التالى * وقادنا فون هوفمانستال الى مقاعدنا فى الصالة - رغم أن مقعده لم يكن معنا - (وكان فى الحقيقة قد ذهب الى « البوفيه » ليحضر شمبانيا لمن معه ولكنه لم يوصلها قط - لأن فرويد استوقفه) ثم التفت الى الخلف نحو المقاصير متظاهرا بأنه يبحث عن شخص ما ولكن هولمز فى جنبه قائلا : « هناك المقصورة الثالثة الى اليسار » *

ونظرنا الى حيث قال فرأينا مقصورة يجلس فيها شخصان * ولاحظ لنا للوهلة الأولى سيدة تلبس ملابس فاخرة بينما تلمع حلى من الزمرد فى شعرها الداكن المصفف * وكانت تجلس بلا حراك الى جانب سيد وسيم يطالع جمهور الرواد بقلق من خلال منظار الأوبرا الذى يحمله وكانت تزين وجهه لحية منمقة تحيط بذقن قوية وشفاه رقيقة وكان بوجهه شيء ، وتصورت للمحظة أن الشخص ينظر اليينا ، فقد كانت محاولة فون هوفمانستال للتخفى مليئة بالزهو والتفاخر *

لقد كان مؤلفا للدراما ، وكان يعتقد أنه يؤدى خدمة الى هولمز فى بحث جنائى ما (وهذا صحيح) ، الا أن الموقف جعله يتصرف بشكل ميلودرامى * ولو أنه كان حسن النية بالطبع *

وفجأة أنزل الرجل فى المقصورة منظار الأوبرا عن عينيه ، وشهقت أنا وفرويد * لقد كان ذلك الشخص الشرير ذو الندبة الذى هزمه فرويد شر هزيمة فى ملاعب التنس فى مومبرج * وعلى أية حال فلم يبد عليه أنه تعرف علينا - اذا كان قد رآنا - وكذلك لم يبد شرلوك هولمز - اذا كان قد لاحظ استجابتنا - أى تغير *

وسأل هولمز : « من هذه السيدة ؟ » *

— « آه هذه زوجة أبيه على ما أعتقد » الوارثة
 الأمريكية نانسي أوسبورن سلاتر فون ليسندورف وكنت
 لا أزال أحملق في ذلك الجمال الباهر عندما أطفئت أنوار
 الصلاة وأحسست بهولمز يجذبني من كم سترتي حتى أعتدل
 في جلستي وأذعنت ، ولكني لم أستطع منع نفسي من أن ألقى
 نظرة أخرى على ذلك الثنائي الغريب — البارون الوسيم
 ورفيقته الساكنة كأنها تمثال بينما تلمع ماساتها في الظلام
 والستار يرفع عن الفصل الثاني *

الفصل الثانى عشر

كشف السر

لا يحتاج الأمر الى القول ان ما صرح به هوجو فون هوفمانستال قد أطاح بأية متعة كنت أتوقعها من مشاهدة الجزء الثانى من الأوبرا • اذن فقد كانت المرأة الجالسة فى مقصورة البارون فون لينسدورف هى أرملته ١٩ • ودار عقلى فى محاولة استيعاب تلك المعلومة وفهم مغزاها • أما هولمز فلم يكن منه رجاء على الاطلاق ، وحاولت أن أهمس فى أذنه خلال العرض الا أنه أسكتنى واضعا اصبعه بوقار على شفتيه واستسلم للموسيقا تاركا اياى غارقا فى تأملاتى •

لقد نشأت مجموعة أخرى من الاحتمالات • فالمرأة الجالسة أمامنا اما أن تكون الأرملة الأسطورية للملك السلاح والذخيرة واما أن تكون مدعية • فاذا كانت هى من تدعى - ولم يكن هناك بد من الاعتراف بأنها تبدو كذلك - فمن بحق السماء تكون المرأة الأخرى ، عميلتنا التى كان لديها تلك المعلومات الحميمية والتى تم اختطافها نتيجة لذلك ؟

واختلست نظرة الى فرويد ورأيت أنه كان هو أيضا غارقا فى تأملاته • وبدأ للوهلة الأولى أنه مهتم بمشكلة المغنى الذى يرتدى فراء الدب ، ولكن اختلاجات جفنيه دلت على أن أفكاره تسرح بعيدا •

وفى العربة التى أقلتتنا بعد ذلك الى المنزل ، كان هولمز لا يزال سابحا فى ملكوته رافضا أن يناقش أى أمر ومقتصرًا على بعض الملاحظات عن العرض •

وعندما استقر بنا المقام أخيرا فى مكتبة فرويد ١٩
بشارع برجاس • ودع زوجته متمنيا لها نوما هنيئا ، ودعانا
الى تناول البراندى وتدخين السيجار • وقبلت الاثنين • اما
هولمز فقد اكتفى بوضع قطعة من السكر فى فمه التقطها من
الاناء الصينى الأبيض المدور فى المطبخ وجلسنا فى مقاعدنا
مستعدين لمناقشة خطواتنا التالية - ، عندما همهم هولمز
يعتذر قائلا انه سيعود حالا • وعبس وجهه فرويد عندما
غادر هولمز الغرفة وزم شفتيه ونظر الى فى حزن • ثم قال :
« اسمح لى يا دكتور أنا الآخر ، أو ربما كان الأفضل ان تأتى
معى » وتبعته وأنا فى حيرة من أمرى ، بينما انطلق فى
خطوات سريعة خارج المكتب واندفع يقفز فوق الدرج ، ودون
استئذان دفع باب غرفة هولمز بقوة • ورأيناه جالسا يحملق
فى « حقنة » وقنينة صغيرة ، أدركت أن بها كوكايين ،
موضوعتين على المنضدة ، ولم تبد عليه الدهشة لرؤيتنا ،
ولكنى انزعجت للمنظر لدرجة أننى فتحت فمى من الدهشة •
وظل فرويد بلا حراك • وتبادل هو وهولمز النظرات كأن
بينهما تواصلا صامتا • وأخيرا قطع هولمز الصمت وعلى
شفتيه ابتسامة حزينة : « لقد كنت أفكر بالأمر » •

— « هذا ما توقعته عندما رأيته تتناول السكر • ان بعض
أساليبك لها صلة بالملاحظة الطبية ، كما تعرف • وعلى أية
حال عليك أن تتدبر الموقف بعناية : فلن تستطيع أن تساعد
السيدة التى أخذت على عاتقك مساعدتها هذا الصباح فى
المستشفى ان عدت الى سيرتك الأولى » •

— « أعلم ذلك » •

ونظر هولمز مرة أخرى الى القنينة على المنضدة بينما
استندت ذقنه الى راحتيه • وبدا الكوكايين والحقنة كما لو
أنهما قرابين على مذبح أحد الآلهة • وارتعدت وأنا أفكر
كيف أن الكثيرين من هؤلاء التمساء يجبرهم الادمان على أن

يعتبروا المخدرات عقيدتهم واللاههم ، وأدركت عندما قام هولمز وأدوار ظهره للحقنة أنه لم يعد ينتمي الى تلك الزمرة *

وجمع الحقنة والقنينة فى يده وأعطاهما الى فرويد (ولم أعلم قط كيف حصل عليهما) وتناول غليونه الأسود وتبعنا ونحن نخرج من الغرفة وأغلق بابها بحرص *

عدنا الى مقاعدنا فى مكتب فرويد ، الذى امتنع عن التعليق على الواقعة * وبدلاً من ذلك قص على هولمز مقابلتنا للبارون الشاب فى مومبرج ، بينما أنصت البوليس السرى دون تعليق اللهم الا ملاحظة واحدة : « لا يستطيع أن يستخدم ظاهر اليد ؟ هذا مثير للاهتمام * * وكيف كانت رمية الارسال لديه ؟ » *

وقاطعت هولمز وسألته ان كان قد وصل الى أى استنتاجات *

فقال : « لقد وصلت الى الأشياء الواضحة فقط ، وهى مؤقتة فى انتظار المزيد من المعلومات والبراهين » *
— فقال فرويد « وكيف نميزها ؟ » *

— « أخشى انها لن تثبت الا فى المحكمة ، فقد نصل الى أى استنتاجات نشاء ، ولكن ما لم نبرهن عليها فالأفضل لنا أن نظل فى أسرتنا » وضحك وهو يصب لنفسه قدحا من البراندى الذى كان قد رفضه قبل ذلك « لقد كانوا شديدى المهارة ، بل ان مهارتهم شيطانية * وحيثما لم تساعدنا مهارتهم ، أتت الطبيعة لنجدتهم بأن قدمت لنا شاهدة قليلة القيمة بل ومشكوكا فيها ان لم تكن غير صالحة على الاطلاق لتقديمها فى المحكمة » *

وجلس يفكر فى صمت ، ينفث دخان غليونه بين الفينة والفينة بينما نحن نراقبه دون أن نجرؤ على قطع حبل تأملاته *

— وتنهد أخيرا وقال : أخشى أن معرفتي بالسياسة الأوروبية ليست بالعمق اللازم فهل لك أن تساعدني يا دكتور فرويد ؟

— « وكيف أساعدك » •

— « أريد بعض المعلومات العامة •• ألا يزال الأمير أوتوفون بسمارك حيا » ؟ •

— « أعتقد ذلك » •

— ولكنه لم يعد مستشار ألمانيا •

— ونظر اليه فرويد مندهشا وقال : « كلا بالتأكيد •• منذ ما يقرب من عام الآن » •

— « آه » وعاد الى صمته العميق مرة أخرى بينما تبادلنا أنا وفرويد النظرات في حيرة •

— وصاح فرويد : « ولكن ياهر هولمز •• أية علاقة لفون بسمارك بذلك » ؟ ••

— « ألا يمكنك أن ترى العلاقة ؟ ، ونهض واقفا وأخذ يذرع الغرفة : « كلا •• لا أظنك تستطيع أن ترى •• » ثم عاد الى مقعده وقال : « هناك حرب أوروبية يعد لها •• هذا واضح تماما » •

• ونظرنا اليه مصعوقين •

وشهقت قائلا : «حرب أوروبية» فأومأ برأسه ، وهو يفتش جيوبه بحثا عن ثقب « وذات أبعاد مخيفة أيضا اذا صدق حدسي » •

— « ولكن كيف استنتجت ذلك مما رأيته اليوم » وكانت لهجة فرويد توحى بأن هناك شكوكا تدور فى رأسه بشأن حالة هولمز العقلية .

— « من التجاوب بين البارونة فون لينسدورف وابن زوجها » .

— « ولكنى لم ألاحظ أى تجاوب » .

— « طبعا فلم يكن هناك شىء من ذلك » .

ووضع كأسه على المنضدة ونظر إلينا بعينيه الرماديتين متمعنا : « يا دكتور فرويد أيجاد هنا مكتب لتسجيل الوصايا ؟ » .

— « الوصايا .. آه نعم هناك مكتب بالتأكيد » .

— « اذن سأكون ممتنا لك اذا استطعت غدا صباحا أن تتنازل عن شىء من وقتك لتبحث لى فى ذلك المكتب عمن يتولى ادارة شئون أملاك البارون فون لينسدورف » .

— ورد فرويد محتجا : « لدى مريض فى العاشرة صباحا » ولكن هولمز ابتسم ورفع يده قائلا :

« هل تصدقنى اذا قلت لك ان هذه المهمة تتوقف عليها حياة الملايين لا حياة شخص واحد ؟ » .

— « حسنا سأفعل ما تريد ، وماذا ستفعل أنت ؟ » .

— « سأبحث ، بمساعدة صديقى الدكتور واطسون ، عن شق فى جدار الأعداء » ونفض رمال غليونه ثم سأل « هل تستطيع مريضتنا أن تسافر غدا ؟ » .

— « تسافر ! أين ؟ وما طول المسافة » .

« ليس لمسافة بعيدة ، داخل المدينة فحسب ، أريدها أن تقابل شخصا ما . تمنع فرويد الأمر للحظة ثم قال بلهجة متشككة ، لا بأس . . انها تبدو لى فى صحة جيدة بصرف النظر عن حالتها والضعف الناشئ عن سوء التغذية ، وأعتقد أن هذا الوضع قد تحسن الآن » .

ونفض هولز وهو يتثاءب ويفعل فمه بظاهر يده قائلا : « لقد كان يومنا طويلا وتبدو لى الأيام المقبلة أكثر طولا . ولذلك فهيا الى النوم » وانحنى لنا وغادر الغرفة .
وتساءلت بصوت عال : « ما الذى يراه هولز فى ذلك الأمر ؟ » .

ورد فرويد : « ليست لدى أية فكرة ، وعلى أية حال لقد حان وقت النوم ، لا أذكر أننى أجهدت كما أجهدت الليلة » .

وكنت أنا أيضا قد بلغ بى الاجهاد مداه . ولدن عفى ظل يقظا يضرب أخماسا فى أسداس حتى بعد أن غرقت فى النوم ، محاولا ان افك طلاس هذا اللغز الذى صادفناه على غير توقع خلال زيارتنا لهذه المدينة الجميلة ولكن بالغة الغرابة . حرب أوروبية (وملايين الأرواح) صحيح أننى كنت دائما مشدوها بالقوى العقلية الخارقة لصديقى ولكنى لم أشاهده قط يستنتج شيئا بمثل هذه الضخامة من معلومات بالغة الضالة . .

ويا للهول ! ماذا اذا صحت أقواله ؟ . لم أدر كيف قضى فرويد ليلته ولكن أحلامى كانت أكثر فزعا من مخاوف يقظتى . ولم تعد مدينة شتراوس الممتعة البهيجة ترقص على ألحان فالساته البديعة ، ولكنها كانت تفور وتمور على صرخات كابوس فظيع .

وتناولنا افطارا سريعا فى صباح اليوم التالى قبل أن

ينطلق كل منا الى مهمته • وأكل هولمز بشهية كبيرة بينت
انه استعاد صحته • أما فرويد فقد اكل بنوع من الحسـم
ولكنه لم يكن ميالا الى الحديث وبينت تعبيرات وجهه القلقه
انه قضى — مثلى — ليلة ليلاء •

كنا على وشك الافتراق عند الباب الامامى ، عندما
وصل رسـول يحمل برقية الى شرلوك هولمز • فتناولها وفتح
المنظروف وقراها بشغف قبل ان يدسها فى جيب معطفه ،
بدون تعليق ، وأشار الى الرسول بالانصراف فلم يكن هناك
رد والتفت الينا قائلا : «ما زالت خططنا كما هي»، وانحنى
لفرويد متجاهلا نظرات الفضول الواضح فى أعيننا •
وانصرف الطبيب مستاء متجهما ، واستدار هولمز الى :
« والآن يا عزيزى واطسون فلننصرف الى مهمتنا نحن
أيضا » •

استأجرنا عربة اتجهت بنا الى المستشفى ، وهناك
أبرزنا مذكرة كتبها لنا فرويد بخط يده مكنتنا من اصطحاب
المريضة • وبدأت متحسنة من الناحية الجسمية ولو أنها كانت
لا تزال شديدة النحافة ولم تنبس ببنت شفة • ومضت معنا
دون مقاومة وركبت العربة التى كانت فى انتظارنا بالخارج •
وانطلقت العربة ، وكان هولمز قد كتب العنوان على أسورة
قميصه ، وسارت بنا العربة الى غايتنا الغامضة •
ولم يكن هولمز على استعداد للافصاح عن شىء أمام الراكبة
الجالسة معنا وقال لى : « كل شىء بأوان يا واطسون • • كل
شىء بأوان » •

وأصررت على المضى فى محاولتى فسألته : « ماذا تتوقع
أن يجد دكتور فرويد فى السجلات ؟ » •
— « سيجد ما أعرف أنه سيجده » •

وتحول الى عميلتنا وابتسم لها مطمئنا ، ولكنها كانت

تنظر أمامها ولم يبد عليها أى وعى بإيماءاته وكانت عيناها
الزرقاوان الرماديتان خاليتين من أى تعبير .

وعبرت العربية قناة الدانوب ودخلت الى قطاع من
المدينة تحتله منازل ، بل قصور ، واسعة . وكانت حلها
تحيط بها أسوار عالية الشجيرات كما كانت المنازل نفسها
بعيدة عن الطريق لا تكاد تلمح منها الا أطراف أبراجها
وحداتها الفخمة المهيبة .

وتوقفنا أخيرا فى شارع فالنشتاين ودارت العربية الى
مدخل واسع يؤدى الى منزل قبيح المنظر يقع على رتبة مرتفعة
قليلا وكانت المساحة التى تقع امامه مباشرة تحتلها حديقة
واسعة حسنة التنظيم .

وكانت هناك عربة أخرى تقف أمام المدخل المسقوف
للبنية ، وبينما نحن نساعد عميلتنا على النزول ، فتح بوابة
المنزل وخرج منها سيد متوسط الطول مشدود الظهر شديد
الاستقامة . مع أنه كان يرتدى معطفا وملابس مدنية فان
حركاته كانت تنم عن النظام والدقة المشهود بهما للعسكريين
عامة وللتدريب البروسى الشاق بخاصة . الا أن ملامحه لم
تكن بروسية . وذكرنى وجهه ، الذى بدا مألوفاً الى بشكل
غامض ، بالمنظر المعروف للكتبة أو الموظفين الانجليز .
وكانت على عينيه نظارة أنيقة وبدت سوائفه مشدبة بأناقة
وبدا عليه مشغول البال كأنه لا يعرف بالضبط أين هو .

وانحنى لنا ، أو على وجه الدقة للسيدة التى كانت
تستند الى ذراعى ، ولس قبعته بأصابعه فى تحية كريمة ،
واختفى داخل العربية التى انطلقت فورا دون أى اذن منه
أو على الأقل لم أسمع .

وحملق هولمز فى العربية التى سارت للحظة وهو مقطب

الجبين وسألنى : « هل تتذكر رؤية هذا السيد فى الأيام الأخيرة يا واطسون ؟ » .

– « أجل ولكنى لا أتذكر أين . . ولكن يا هولز منزل من هذا ؟ » .

– ونظر الى مبتسما وجذب الجرس وقال : « انه مقر البارون فون لينسدورف فى فيينا » .

– « ولكن يا هولز هذا شيء مفزع » .

– « لماذا ؟ » وخلص ذراعه بلطف من قبضتى « ان البارون ليس هنا الآن » .

– « ولكن اذا عاد ؟ أنت لا تدرك أى أذى يمكن أن ينتج عن تلك المواجهة » مشيرا الى رفيقتنا « الخرساء » – « أعتقد أنه كان يجب عليك مشاورة الدكتور . . » .

– فقطاعنى بجديّة : « يا عزيزى واطسون أشكر لك عواطفك النبيلة ونصائحك الغالية . ولكن الوقت له قيمة كبرى ، واذا استطعنا أن نفرض أنفسنا فلنفعل . وعلى اية حال لا يبدو عليها أية استجابة لم رأى المنزل . ومن يدرى ؟ ربما اذا استجابت تكون هذه هى الصدمة التى تعيدها الى رشدها » .

وانفتح الباب الكبير وخرج الينا خادم فى بزة رسمية ، ذو مظهر جامد لا يبدو عليه أى انفعال وسألنا عن مبتغانا . فأعطاه هولز بطاقته ، وطلب منه بالألمانية – التى تحسن أدائه فيها منذ اقامتنا فى فيينا – أن يقدمها الى سيدة المنزل .

وتراجع الخادم الى الخلف دون أن يغير من سمته بعد

أن سُمح لنا بالبقاء فى غرفة للانتظار ذات سقف مقبب عال،
ومن خلالها رأينا قاعة مستطيلة ضخمة باذخة ولكن قبيحة
المنظر مثلها مثل المظهر الخارجى للمنزل * كانت جدرانها
مغطاه بخشب البلوط وأرضيتها مكسوة بالسجاد وعلى
الحائط أسلحة من العصور الوسطى وصور فى إطارات مذهبة
لم أستطع تبين موضوعاتها من موقعنا فى الردهة * وانساب
ضوء ضئيل من خلال نوافذ زجاجية ضيقة *

وهمهم هولمز فى أذنى : « هل رأيت مكانا أبشع من
ذلك ؟ » * انظر الى تلك السقوف » *

— « يا هولمز لا بد لى أن احتج على تلك الطريقة ، قل لى
يا رجل على الاقل ماذا يدور * * من سيحارب فى تلك الحرب
المقبلة ؟ » *

— « أخشى أن أقول انه ليست لدى أدنى فكرة » ،
أجابنى بفتور وهو لا يزال يحملق فى الزخارف الخشبية
المحيطة بنا :

— اذن كيف بحق الآلهة استنتجت ؟ *

— فأجاب بشيء من الهدء : « انظر هنا * * لدينا منافسة
لامتلاك ضيعة تحتوى على مصانع ضخمة لانتاج الذخيرة * *
لن يكون استنتاج الأمر صعبا * * » وقطع حديثه اذ لمح
الخادم قادما من القاعة ؟ *

— وأشار الخادم اليها : « اتبعونى اذا سمحتم فسأقودكم
الى البارونة » *

واتضح لنا أنه كان لابد من دليل * اذ كان المكان فسيحا
مليئا بالممرات والدهاليز بحيث كان من المستحيل أن نستدل
على صالون استقبال البارونة *

كانت الغرفة مؤثثة بذوق أكثر حداثة من الغرف التي لمعناها في طريقنا اليها ولكن الذوق كان واحدا * * شنيعة للغاية * * الكسوة من قماش رخيص ذي لون أحمر زاه بينما غطت ظهور المقاعد ومساندها وكل قطع الأثاث مفارش من الدانتيل * .

وجلس على الأريكة وسط هذا الكم الهائل الموحد اللون - كطير جميل وسط عشه - المرأة الجميلة التي لمعنا طرفا منها في الليلة الماضية * ونهضت عندما دخلنا الغرفة وحادثتنا بلغة انجليزية ذات لكنة أمريكية * .

— « السيد شرلوك هولمز على ما أعتقد ؟ الام نعزو شرف هذه الزيارة » * .

وتوقفت فجأة وأطلقت صيحة تنم عن التعرف بينما ضمت يديها الى صدرها بحركة لا ارادية واتسعت عيناها الجميلتان من الدهشة وصاحت : « الهى * * هل هذه نورا ؟ » * .

وأسرعت بخطاها ، متجاهلة وجود هولمز ووجودى وجذبت ذراع عميلتنا بلطف بحيث أوقفتها فى الضوء حيث أخذت تتفحصها بتمعن * أما عميلتنا فقد ظلت على حالها مستسلمة ولا مبالية وتحملت فحص البارونة لها وهى فى حالة من اللامبالاة والملل * .

— وصاحت البارونة وهى تنقل نظراتها من الواحد منا الى الآخر فى حالة من الاضطراب المتعجرف : « ماذا حدث ؟ * * انها متغيرة تماما » * .

— وسألها هولمز بهدوء وهو يراقبها بعناية ، بينما عادت البارونة الى الاعتناء بالمرأة التى سمته نورا : « هل تعرفين هذه السيدة ؟ » * .

ـ « أعرفها * * بكل تأكيد هذه خادمتى الخصوصية نورا
سيمونز ، لقد فقدناها منذ عدة أسابيع دون أى اثر * *
يا للسماء يا نورا ماذا حدث وكيف تمكنت من الوصول الى
فينا ؟ » *

كانت ملامح وجهها تنم عن الدهشة البالغة التى تحولت
الى عطف واهتمام خلال تفحصها للوجه الدابل للمرأة
الآخري *

ـ « أعتقد أنها غير قادرة على الاجابة عن أسئلتك ،
وتقدم منها وساعد نورا سيمونز .(اذا كان هذا هو اسمها
فعلا) على الجلوس * وشرح للبارونة باختصار كيف عثرنا
على خادمتها * »

وصاحت السيدة بعد أن انتهى من حديثه : « ولكن هذا
امر مروع * * أتقول انها اختطفت ؟ » *

ـ أجابها المخبر السرى بنبرات محايدة : « هذا ما يبدو
* * هل أفهم من حديث سيادتكم أنها قد صاحبتك الى
بافاريا ؟ » *

ـ « طبعا ، انها لم تفارقنى منذ أن أبحرنا - اللهم
الا فى أيام اجازتها « وبان على وجهها غضب فيه شئ من
النبيل واستطردت : «وقد اختفت منذ حوالى ثلاثة أسابيع » *

ـ وقال هولز : « يوم وفاة البارون ؟ » *

واحمر وجه البارونة بشكل عميق وأصابعها تتشابك
مع بعضها البعض :

ـ « نعم ، لم تكن نورا فى الفيلا عندما وقع الحادث
المشئوم ، فقد كانت فى القرية المجاورة ، أرجولدزيخ ،

أعتقد أن هذا هو اسمها • وفي غمرة الاضطراب الذي حدث ، لم يفتقد لها أحد • وعلى أية حال فقد كان يوم اجازتها • وعندما لم تعد في الصباح التالي • ظننت انها ربما ، عندما علمت بالمأساة ، انتابها الفزع • وكانت طبيعتها من النوع العصبى ، كما أعلم تماما » وتوقفت لحظة ثم استطردت : « كما ترى ، كنا قريبتين من بعضنا جدا - كانت العلاقة بيننا أكثر بكثير من علاقة سيدة بخادمتها • • ولكن عندما غابت بعد ذلك • دون ارسال أى رسالة ، بدأت أخشى أن يكون حدث لها مكروه فأبلغت الشرطة • وربما كان على أن أبلغ الشرطة قبل ذلك ولكن وفاة زوجى المفاجئة قد أفسدت كل شيء » •

— « قلت انك خشيت أن يكون حدث لها مكروه ، فهل تشكين فى وجود غدر ؟ » •

— « لم أدر وقتها كيف أفكر • • كانت قد اختفت » وانهارت البارونة فى يأس واستسلام بينما ارتسمت على وجهها علائم الأسى فى رشاقة ولطف • وكان من الواضح أن مشاعرها قد طغت عليها بل ان مجرد الذكرى كان كافيا لذلك ومع ذلك فقد ألح هولمز فى سؤالها :

— « ألم تستطع الشرطة أن تخبرك بتحركات خادمتك ؟ » •

هزت رأسها نفيا ، ثم اندفعت لتمسك بيد المرأة الأخرى تضغطها فى حنان : « يا فتاتى العزيزة كم ارتحت لرؤيتك مرة أخرى ! » •

— وسألها هولمز وهو يرمقها بانتباه : « هل لى أن أستفسر عن الطريقة التى لقي بها زوجك حتفه ؟ » •

تلون وجه البارونة بشدة مرة أخرى وأخذت تنقل
بصرها بيننا نحن الاثنين في حيرة شديدة * ثم قالت ببساطة
في همس لا يكاد يسمع «قلبه» * كان الموقف محرجا * ونهض
هولمز واقفا وقال : «أسف لسماع ذلك * * يبدو أن عملنا هنا
قد انتهى يا واحسون * * لقد حللنا اللغز الصغير * ومد يده
ممسكا بذراع نورا سيمونز والتفت الى البارونة قائلا *
« سيدتي * نأسف لزعاجك والحضور في وقت حزنك
ونشكرك على وقتك الثمين » *

— ونهضت البارونة كذلك قائلة : «هل ستأخذونها مني
مرة أخرى * * انني لم أكد أهنأ بلقيها * * وأؤكد لك
يا مستر هولمز ان وجودها ضرورى لسعادتي » *

— « انها ، في حالتها الراهنة ، لا تصلح لأى شىء » ثم
بجفاف : «انها تحتاج لتلقى الرعاية لا أن تبذلها للآخرين ،
ومد يده الى البارونة مرة أخرى ، ولكنها قالت بنوع من
التأكيد :

— « ولكنى سأعتنى بها بنفسي * * ألم أقل لك انها
رفيقتى مثلما هى خادمتى ؟ » كان فى لهجتها نوع من التوسل
حتى اننى كنت على وشك أن أرجو هولمز أن يترك لها الفتاة *
لأن الحب قد يكون أحيانا أفعال من الدواء * ولكنه سارع الى
القول بحسم : «أخشى ألا يكون ذلك مستطاعا ، فان خادمك
تحت رعاية ومسئولية الدكتور سيجموند فرويد فى مستشفى
كرانكهاوس ، وقد سمحنا لأنفسنا أن نصطحب الفتاة الى
هنا دون موافقته ، ولم أكن لأفعل ذلك لولا أن التحقق من
شخصيتها أمر فى غاية الأهمية * *

— « ولكن » *

— « غير أننى أعتقد أنه فى الامكان أن أقنع الدكتور

بإخراجها من المستشفى ووضعها في رعايتك • ولا شك
أنك في بروفيديانس كنت تشاركين في الأعمال الخيرية
وتساعدين الكنيسة في رعاية الفقراء والمشردين»، وسارعت
البارونة إلى الإجابة :

— « طبعاً طبعاً • • لقد كنت نشطة في الأعمال من هذا
النوع » •

— « هذا ما ظننته • وتأكدى يا سيدتى أننى سأنقل
هذه المعلومات إلى الدكتور فرويد ولا شك أنه سيضع ذلك في
الاعتبار عند إخراج المريضة من المستشفى » • وكانت على
وشك الاستمرار في المناقشة ولكن هولمز رد بلطف وألقينا
التحية وانصرفنا مصطحبين معنا الخادمة التعسة •

وكانت العربدة التى أقلتنا مازالت فى انتظارنا ، وما
أن استقر بنا المقام بداخلها حتى اندفع هولمز فى نوبة من
الضحك المكتوم :

— « لقد شاهدنا عرضاً ممتازاً يا واطسون ، جمع بين
تماسك الأعصاب والابتكار إلى جانب البراعة الفنية لمن
تدعى « ألين تيرى » • لقد كانوا بالطبع مستعدين لمثل تلك
الواقعة لقد تم تدريب المرأة بمهارة فائقة » •

— « أهى مدعية اذن ؟ » لقد كان من المستحيل أن أصدق
أن تلك المخلوقة الرائعة مزيفة • الا أن هولمز هز رأسه
بالإيجاب وهو ينفخ بعض التبغ المحترق من غليونه • وقال
وهو يومئ برأسه إلى عميلتنا : « هذه المرأة المسكينة هى
بلا جدال البارونة فون لينسدورف — سواء أكان ذلك فى
مصلحتنا أم لا » ، ثم أضاف : « ومع ذلك ، أرجو عندما ننتهى
من هذا الأمر أن تكون قد أعدنا إليها بعض حقوقها ،
بالإضافة إلى عقلها طبعاً » • •

— « وكيف عرفت ان المرأة الأخرى كاذبة ؟ » •

— « تقصد ما الذى وشى بها — بالاضافة طبعاً الى تلك القصة المختلقة عن الخادمة التى هربت من المنزل دون انذار ، لأن سيد المنزل أصيب بنوبة قلبية » وهززت رأسى قائلاً : « اننى أجد القصة محتملة الحدوث » وتابعت حديثى وقد تشكلت فى رأسى نظرية :

— « وربما كانت هناك صلة ما بين الأحداث التى لم ندركها بعد ، تساعدنا على فهم تصرفاتها • • » •

— فقال هولمز وهو يبتسم : « ربما ، الا أن هناك عوامل معينة تؤيد بشدة النتائج التى توصلت اليها » •

لقد كانت البارونة بالنسبة لى مقنعة تماماً ، كانت شخصيتها الرائعة لا تقارن بتلك المرأة المتخلفة العقل التى نرشحها لذلك الدور ، كما كان هناك شئ يغيظ فى سلوك صديقى الواصل من نفسه ، (وهو الذى كان منذ أقل من أسبوع مجرد مجنون يهذى — ولم يستعد كيانه الا من جراء تدخل) بحيث حز حديثه المتعالى فى نفسى ، أكثر من أى وقت مضى •

— وسألته بلهجة المتشائم : « وما هى تلك الحقائق يا ترى ؟ » •

— فأجابنى وهو يناولنى البرقية التى سبق أن تسلمها فى الصباح ومتجاهلاً لهجتى العدائية : « قد يهمك أن تعرف أن آل سلاتر من رود أيلاند ينتمون منذ ما يزيد على مائتى عام الى تلك الفئة الدينية المعروفة باسم « الكويكرز » وهذه الفئة لا تذهب الى الكنائس وانما تعقد اجتماعات خاصة بها • وهم بالتأكيد لا يعتبرون أعمال الخير من الأعمال الكنسية • • » • وتحول الى النافذة يطل منها على الطريق •

لم أعد أستطيع اخفاء دهشتي ، ولكن قبل أن أنطق
بحرف ، قال لي وهو مازال ينظر من النافذة في تراج :
« وبالمناسبة لقد تذكرت أين سبقت لنا رؤية الكونت فون
شليفن » *

— « الكونت من ؟ » *

— « فون شليفن ، السيد الذي قابلناه خارجا من القصر .
لقد ظهرت صورته في التايمز (١) منذ عدة شهور . ألم
ترها ؟ وإذا لم تخني الذاكرة فقد كان قد عين لتوه رئيسا
لهيئة أركان حرب الجيش الألماني » *

(١) طبعا لم تنشر صورته العتوغرافية إذ لم تكن طباعة الصحف قد تقدمت الى
ذلك الحد ، وإنما نشرت صورة تخطيطية للكونت فون شليفن عام ١٨٩١ في التايمز
(٤٠ م) *

الفصل الثالث عشر

نظريات شرلوك هولمز

وقف شرلوك هولمز فوق السجادة الحمراء أمام الموقد في مكتب فرويد وهو يستند بمرفقيه على رف المدعاة خلفه وقال :

— « تمنح الوصية اذن كل شيء الى البارونة الجديدة » *

رفع فرويد عينيه عن الكراسة التي كان يكتب فيها ونظر بعتاب الى هولمز قائلاً : « لو كنت فرات بعينييت شروط وصية البارون مثلما فعلت لكنت عرفت ذلك » • • ولقد أضع ذلك على ميعادا مع مريض كما سبق أن قلت لك ، الا أنك أصررت قائلاً ان ذهابي الى دار السجلات له اهمية عظيمة » •

ضحك هولمز بطريقته المكتومة المعتادة ورفع يده معترضاً :

— « سوف تغفر لي بالتأكيد يا دكتور ، لقد كنت أتكلم عن اعتقاد لا عن معرفة • ان فترتك الصباحية لم تذهب سدى ، فان الحقائق التي أتيت بها أكدت شكوكي • الا أنني أقسم لك أنه لو كانت لغتي الألمانية كافية لم أكن لأضيع عليك ميعاد مريض • وها هو الدكتور واطسون يشهد أنني لم أكن أبعده عن مرضاه الا « للشديد القوى » فاعف عني يا سيدي ؟ » •

وأخذ هولمز يحكي لفرويد نتائج زيارتنا • وعبس وجهه قليلاً عندما عرف أين ذهبنا بمريضته • • ولكن عاد

اليه ارتياحه عندما أكدنا أنه لا المنزل ولا سكانه كان لهم أى
تأثير على المريضة •

وتابع هولمز حديثه قائلاً : « لقد حان الوقت الآن » -
وأخذ يبحث عن غليونه الشهير ولو أنه ظل واقفا مستندا الى
رف المدفأة - « أقول حان الوقت لنجمع أطراف معارفنا
ونرى ان كانت تتفق مع نظرياتنا » ، وتوقف قليلا وانحنى
ليمسك جمره فحم متوهجة بالملقط ويشعل بها غليونه :
« ودعنى أسألك ياهر فرويد سؤالا أخيرا قبل أن أعرض
الحالة • ما هو رأيك فى شخص قيصر ألمانيا الجديد ؟ » •

- وتدخلت قائلاً : « انه يحكم ألمانيا منذ ١٨٨٨ » وأزما
هولمز برأسه ولكنه ظل مركزا عينيه فى فرويد ، الذى كان
يتدبر السؤال • ثم قال بعد فترة :

- « اذا كان لى أن أدلى برأى فى كلمة واحدة فهى أنه
غير واضح » •

- « وما رأيك فى سياسته ؟ » •

- « انها تدور فى معظمها حول التشريعات الاجتماعية •
انه يخشى الاشتراكية خشية الموت • وتميل سياسته الخارجية
الى العدوان - على قدر ما أستشفه من قراءة الصحف • خاصة
تجاه روسيا فى مسائل مثل حقوقه فى البلقان » •

- « وما رأيك فى طبيعه ؟ » •

- « آه هذا سؤال أصعب • انه ذكى كما يبدو • ولكنه
سهل الاستثارة تنتابه نوبات من نفاد الصبر ممن حوله •
وأعتقد أنه نتيجة تلك الصراعات تمت تنحية الأمير فون
بسمارك • فالقيصر مغرم بالمظاهر العسكرية - كالسترات
والاستعراضات وعلائم القوة الشخصية » وتوقف فرويد

لحظة ثم ضحك وقال مترددا : « الواقع أننى كونت نظرية بشأن القيصر منذ مدة » *

— وسارع هولز الى القول بأدب : « اننى جد مشتاق لسماعها » *

— « انها ليست صعبة الفهم » ونهض فرويد فجأة كما لو كان غير راض عن نفسه لأنه ذكر تلك النظرية *

— فقال له هولز مصرا وهو يضم أطراف أصابعه مستندا الى رف المدفأة وقد ضغط بأسنانه على غليونه وأخذ الدخان يتصاعد فى حلقات : « اسمح لى يا سيدى أن أحكم بنفسى على مدى أهميتها بالنسبة لقضيتى » *

وهز فرويد كتفيه :

— « لعلك علمت — سواء من رؤيتك صور القيصر أو من القراءة عن الموضوع أن له ذراعا ضامرة بعض الشيء ، لم تنم نموا طبيعيا نتيجة المرض فى الطفولة » *

— يحتمل أنه شلل الأطفال * * لست متأكدا — وعلى أية حال فهو من الناحية الجسدية لا يعتبر رجلا مكتمل النمو ، وتوقف فرويد لحظة ونظر اليينا متسائلا : « انكما أول من يسمع نظريتى الغريبة هذه » *

ونظر اليه هولز من خلف دخان غليونه ورجاه أن يستمر *

« حسنا — باختصار — لقد بدا لى أن اصرار القيصر والحاحه على مظاهر القوة وغرامة بالبزات العسكرية الزاهية — خاصة تلك العباءات التى تحجب عن الأنظار عاهته — بدا لى أن حبه لهذه المظاهر الحربية العدوانية هى

كلها بشكل أو بآخر مظاهر لشعوره بعدم كفاءته الشخصية .
ويمكن النظر إليها كلها كوسائل تعويضية عن الذراع .
وليس من الضروري أن يكون المعوق العادى حساسا بهذا
الشكل ولكن حساسيته بالذات ترجع الى انه الملك وسليل
نسب طويل من الأجداد النبلاء والأبطال » .

اندمجت فيما كان فرويد يقصه حتى اننى نسيت وجود
هولمز فى الغرفة . وعندما انتهى فرويد نقلت ناظرى فرايت
هولمز يحملق فى الطبيب بانتباه واعجاب شديدين . وغاص
هولمز شيئا فشيئا ببطء فى المقعد المقابل لمقعدى .

ثم قال أخيرا : « هذه فكرة رائعة » . أتعلم ماذا فعلت ؟
لقد نجحت فى تطبيق أساليبى - الملاحظة والاستنتاج - على
ما يوجد بداخل رأس الشخص » .

وابتسم فرويد : « لا تستطيع اعتباره شخصا بالمعنى
المفهوم - وعلى اية حال أرجو ألا تكون أساليبك - كما قلت
خاضعة لحقوق براءات الاختراع ؟ » وكانت لهجته رقيقة
ألا أن الرضى كان يشیع فيها . لقد كان ، شأنه شأن هولمز
لديه شىء من الغرور . « ومع ذلك قد يتضح أن ما وصلت
إليه خاطئ تماما . فلقد لاحظت أنت بنفسك مخاطر
الاستدلال دون وجود معلومات كافية فى حوزة المرء » .

- وصاح هولمز : « هذا شىء بديع ! انه لا يحمل فقط رنة
الصدق - أو المصادقية كما يقولون - ولكنه يؤكد بعض
الحقائق والنظريات التى سوف أعرضها عليكم الآن » . ونهض
مرة أخرى وتوقف سارح البصر والذهن قبل أن يبدأ حديثه :

« أتعلم يا دكتور اننى لن أصاب بالدهشة اذا ما ثبت
فى المدى البعيد أن تطبيقاتك لأساليبى ستكون ذات أهمية
أعظم بكثير من التطبيق الميكانيكى الذى استخدمه » .

ولكن تذكر دائما التفاصيل الملموسة - فمهما بلغ
توغلنا في العقل فان التفاصيل ذات أهمية قصوى *

هز فرويد رأسه وانحنى أمام هولز وقد أخذ ، على
ما أظن ، بذلك المديح المفاجيء من جانب المخبر السرى
الشهير *

واستطرد هولز : « والآن دعونى أقص عليكم قصتى »
وأعاد اشعال غليونيه بينما اتخذ الدكتور وضع الانتباه فى
مقعده * وكان فرويد شأنه شأن هولز مستمعا عظيما ولو أن
كل واحد منهما كان ينظر الى ما يقوله العميل بطريقة جد
مختلفة * لم يكن فرويد ينصت وقد أغلق عينيه وضغط
أطراف أنامله ببعضها البعض * بل على العكس استند بخده
الى راحته المفتوحة وثبت مرفقه على مسند المقعد ووضع
ساقا على الأخرى وراح يراقب من يتحدث اليه بعينين ثابتتين
واسعتين * بل ولم يكن دخان السيجار الذى كان يمسكه بيده
الأخرى ، رغم رائحته النفاذة ، بقادر على أن يجعل عينيه
تضيقان وفى تلك اللحظات كان يبدو عليه أنه ينظر مباشرة
الى روح الشخص وهو انطباع لم يفت نظر هولز الثاقب *
وهكذا بدأ هولز قصته :

« لدينا رجل أرملة ثرى ، له ولد واحد ليس محل اهتمام
خاص منه - كما أن الابن لا يهتم بأبيه أيضا - يسافر هذا
الرجل فى رحلة الى الولايات المتحدة * وهناك يقابل امرأة
شابة - فى نصف عمره تقريبا - ولكن رغم ذلك - أو ربما
بسببه - يقمان فى الحب ، ولما كان الرجل يدرك أن ما بقى
من عمره محدود فانهما يتزوجان فورا * وتنحدر المرأة من
أسرة ثرية تعتنق مبادئ الكويكرز « وتتم مراسم الزواج فى
كنيسة تابعة للكويكرز وهى ليست كنيسة ، بالمعنى المألوف
انما يطلقون عليها « مقر الاجتماعات » ولقد فهمنا تلك
العبارة عندما هممت بها عميلتنا فيما بعد على أنها المجزر

وبالتالى أخطأنا اذ ربطنا بين ما افترضناه من حبسها فى مستودع بجوار مجزر مما أبعدنا عن جادة الصواب لفترة .

• ويعود الزوجان للاقامة فى ضيعة الزوج المنعزلة فى بافاريا .
• وكان أول ما فعله الزوج هو تغيير وصيته لمصلحة الزوجة .
• وكانت معتقداتها الدينية فى هذا الشأن وكذلك معتقداته هو والتي تطورت بفعل الزمن قد جعلت من المستحيل عليه أن يحتفظ بامبراطورية كاملة خصصها لصنع أسلحة الدمار والحرب . ولما لم تكن لديه القوة الكافية أو الميل لكى يخصص سنواته الأخيرة لتفكيك مصانعه فانه تخلى عن الأمر ووضع كفه فى يدها فى حالة وفاته لتفعل به ما تشاء .

الا أن الرجل العجوز لم يضع فى اعتباره - أو أساء التقدير - غضب ابنه السفيف المتلاف . فعندما وجد أن أماله قد انهارت وضاعت منه كل تلك الملايين اتخذ اجراءات شيطانية لاستعادتها . ولما كانت آرائه السياسية من النوع المحافظ ، كما انه نشأ فى المانيا الجديدة ، وكانت له صلاته التى استخدمها ببراعة . فأثار أمامهم مسألة أن تقوم امرأة غريبة من العامة بتفكيك آلة الحرب الأساسية التى يعتمد عليها القيصر . وبالطبع لم يكن هؤلاء الناس على استعدادهم بأية حال لقبول ذلك الأمر . وهكذا أعطى الفتى « كارت بلانش » ليتصرف فى الأمر ولا شك انه منح أيضا بعض المساعدات . وعلمنا أن نكتشف كيف تم تدبير الأمر ولكنه استطاع بشكل أو بآخر أن يدبر مقتل والده .

ثم عمل على تهريب زوجة أبيه من ألمانيا وسجنها فى مستودع قرب قناة الدانوب هنا فى فيينا . وتوجد وصية الوالد طبعاً فى سجلات ألمانيا والنمسا حيث ان أملاكه موزعة بين الدولتين . وبدأ الضغط على العروس لتتنازل عن الوصية لصالح الابن . ولكنها رفضت ذلك بشجاعة . ومنحها حبساً وكذلك معتقداتها الدينية قوة قاومت الجوع وكافة أنواع

التهديدات الأخرى • وخلال حبسها الانفرادى بدأ عقلها يتهاوى • ولكنها ببراعة شديدة تمكنت من الهرب • وعندئذ فقط ، أى عندما نالت حريتها اتضح لها مدى العجز واليأس اللذين يحيطان بها فهي لا تتكلم الالمانية ، ولا تعرف أحدا ، وبلغ بها الضعف والهزال مبلغا لا تقدر معه على اتخاذ أية خطوة • وكان القفز من الجسر هو أقرب وأبسط الحلول ، الا أن رجل الشرطة المار أفسد هذه المحاولة ، فعادت الى حالة العجز واليأس التى وجدتتها عليها يا سيدى الدكتور » •

— واضطجع فرويد فى مقعده وهو ينفث دخان السيجار ويحملك متأملا ثم قال : « وماذا بشأن السيدة التى رأيناها فى الأوبرا ؟ » •

— « ان الرجل الذى نواجهه مكر مثلما هو جرىء • فعندما علم أن زوجة أبيه قد هربت من سجنها اتخذ قرارا سريعا • فقد أدرك — مثلما أدركت هى — أن موقفها يائس وعاجز ، ومن ثم تعمد أن يتجاهلها • فلتقل قصتها لمن يمكنه أن يفهم كلامها — ولا ريب أنه ابتسم لهذه الفكرة — أما هو فلن يجذب الأنظار اليه بأن يبحث عنها أو يستأجر من يبحث له • لقد لجأ الى استئجار من يحل محلها ويخدعه بسيطة وتزوير التوقيع يمكنه نقل الوصية كما يشتهى • فمن سيجرؤ على مناقضة قرار الأرملة ؟ والحق أننى لا أعرف كيف حصل على هذه التلميذة النابهة ، يحتمل أنها هى نفسها الخادمة التى ادعت أنها السيدة أو ربما كانت ممثلة أمريكية مغمورة قذفت بها الرياح بعيدا عن وطنها ، ولكن أيا كان الأمر فقد دربت بمهارة ولا ريب أنها تكلفت غاليا أيضا » •

« وقد توقع بذكائه أن هناك فرصة ولو ضئيلة لاكتشاف أمر زوجة أبيه ، ولذلك زود بديلتها بحكاية مقنعة • لقد كان يعلم بالطبع أن زوجة أبيه فقدت عقلها قبل هروبها • وكان واثقا من أن عقلها لن يسترد تكامله بسرعة بحيث

يحملها لفت نظر اى شخص جاد * ولعلك تتذكر يا واطسون ان المرأة التى تحدثنا اليها اليوم ذهبت ان خادمتها تدعى نورا سيمونز ، وهذه حرفة بارعة من جانب البارون الشاب ولو انها ابارت ريبتي لعرايتها فاسم الخادمة يحمل نفس الحروف الاولى من اسم سيدتها ن * س ، هذه مصادفة لا معنى لها ، الا اذا كانت الخادمة عندما هربت قد ارتدت بعض ملابس سيدتها والتى تحمل الحروف الاولى من اسمها * وكان الاولى به ان يدعى ان الخادمة قد سرقت بعض ملابس سيدتها - واستطرد يخلق فى آفاق استنتاجاته - واعتقد بناء على ذلك أنه لم يبلغ البوليس البافارى بتلك القصة » *

- وسألته : « معنى ذلك أن هروب الخادمة تم تبليغه الى البوليس ليلة وفاة البارون ؟ » *

- « ربما فى الصباح الذى يليه ، ولن أدهش اذا علمت ذلك ، فالشاب الذى نتعامل معه قد تعلم أصول لعب الورق على يد الأمريكان » *

- « ماذا تعنى ؟ » *

- « أعنى انه يحتفظ دائما بورقة مخبأة لا يظهرها الا فى الوقت المناسب والمسألة الآن .. » *

وقطع حديثه صوت طرق على الباب *

وفتحت باولا الباب لتعلن أن ممرضا من مستشفى كراكنهاوس قد حضر يحمل رسالة الى الدكتور فرويد *

وما أن فاهت بتلك العبارة حتى قفز شرلوك هولمز من مقعده صائحا وهو يخط بكفه على جبهته : « لقد أخذوها .. »
لقد تصورت لغفلتي .. أنهم قد يترددون .. وهما هم يسارعون بينما أنا واقف هنا أثّرثر معكم

واندفع خارجا من الغرفة ولحق بالمرض المشدود في
الصالة وأمسك بأطراف سترته بكتلتا يديه وساله : « هل
خرجت المريضة ؟ » هل خرجت مريضة دكتور فرويد ؟ »

وأشار الرجل برأسه في غباء ، لقد بلغ به الفزع حدا
لم يمكنه من الكلام . فلم يذن الا ممرضا عاديا ارسل في
مهمة لا يقدر مدى خطورتها . وكانت معه مذكرة من الدكتور
شولتز يتساءل فيها عما حل بالمريضة منذ أن تركها في عهدة
فرويد ويحتج على اخراجها من المستشفى قبل أن تتاح له
فرصة أن يراها ويقدر مدى تحسنها . وألح بشكل خفى الى
أنه سيذكر هذا الأمر للدكتور ماينرت .

وسأل هولمز المرض : « هل كنت هناك عندما خرج بها
هؤلاء القوم ؟ » ودون أن ينتظر جوابه دس نفسه في السترة
وألقي بالمعطف على كتفيه ، بينما هز المرض رأسه بالنفي .

— « اذن فلتأخذنا الى من كان يوجد في تلك النوبة »
وجذب ياقة معطفه ليغطي بها رأسه صاح بنا : « أسرعوا أيها
السادة . » ليست لدينا دقيقة لنضيعها . فرغم أن لدينا
امراة تائهة العقل من ناحية الا أنه تكمن حرب أوروبية من
الناحية الأخرى » .

الفصل الرابع عشر

الجنّازة

انطلقت بنا العربة فى طريق العودة الى المستشفى عصر ذلك اليوم ، ولم يتكلم أحد ، سوى أن هولمز كان يستحث الحوذى بين الفينة والفينة أن يسرع . كان كل منا غارقا فى أفكاره . وكان الممرض ينقل أبصاره بيننا متعجبيا يتساءل بينه وبين نفسه - كما قدرت - ماذا جرى بحق الشيطان ، وعيناه ترمشان كلما اندفعت العربة أمام الترام وأجبرت باعة الطرق على القفز ذات اليمين والشمال فارين من أمام العربة . وكان جبين فرويد العريض مجمدا من كثرة التفكير بينما جلس هولمز منحنيا الى الأمام فى صمت كئيب، يصيح كل عدة ثوان بالسائق أن يسرع .

واضطرت العربة الى التوقف تماما عند أحد المفارق حيث كان الطريق مسدودا باحدى كتائب الحرس الهنغارى فى طريقها الى مواقعها فى قصر هوفبورج . وراح هولمز يتأمل تلك العقبة وهو مغموم ، ثم استند الى الخلف وهو مبتعد ثم قال : « لا فائدة . . لقد فقدناها وانهزمنا » وأخذ يصر على أسنانه من الغضب وعيناه الرماديتان تلمعان من الألم .

فسأله فرويد : « ولماذا ؟ » .

- « لأنه سيقتلها فى أول فرصة تتاح له » واستخرج ساعته وراح ينظر اليها محزونا بينما لاحظت بطرف عيني

وجه الممرض وقد امتنع لسماع الكلام ، والتفت الى قائلا :
« ولعد واتهم الممرض الان يا واطسون » *

« كان الأفضل أن تتركنى للكوكايين ، لقد أصبحت غير
ذى نفع » *

— وتدخل فرويد قبل أن أهم بالحديث : « اسمح لى أن
أختلف معك فى المسالتين * * أولا لا اضن ان حياة السيده تى
خطر » واستدار الى الحوذى يأمره بالاسراع بعد ان انتهى
مرور الحرس الذى كان يسد الطريق * ونظر اليه هولمز
ولذنه لم يقل شيئا بينما انطلقت العربّة بسرعة *

— واستطرد فرويد مصرا على الحديث رغم عدم التشجيع:
« اسمح لى أن اقدم بعض الاستنتاجات من عندى * فباستخدام
نفس الأساليب التى استخدمتها فى حالة شخصية القيصر ،
فانى أرجح أن حياة البارونة قد تكون فى خطر شديد *
ولكنى لا أعتقد أن ابن زوجها ينوى قتلها اذا وقعت فى يده
مرة أخرى » *

— وسأله هولمز وقد بان الاهتمام فى عينيه : « ولماذا لا ؟
هذا هو الاجراء العملى الوحيد الذى يستطيعه » *

— « كلا لقد كان الأمر الأكثر عملية هو أن يتخلص
منها فى نفس الوقت الذى تخلص فيه من أبيه أليس كذلك ؟ »

واسترعى السؤال انتباه هولمز واستدار ليواجه
الدكتور * وانتهز فرويد هذه الفرصة واستمر فى حديثه :
« كان هذا بالتأكيد سيكون حلا سهلا * تدبير الأمر بحيث
يبدو أن الاثنين قتلا فى حادث ومن ثم يرث الضيعة بكاملها *
هذا هو مضمون الوصية * وكان يعرفها بلا ريب » *

وعبس وجه هولمز * وسأل : « ولماذا لم يفعل ذلك ؟ » *

— هل لك أن تتنازل وتسمع نظريتي ؟ *

وأوماً هولز برأسه ودبت الحياة فى عينيه اهتماماً بتلك
الفرصة الضئيلة من الأمل التى لاحت من كلام الدكتور *

— « قد يستغرق الأمر منى وقتاً طويلاً إذا سردت عليكم
كافة البحوث التى قمت بها * ولكنى أرى أن الشاب موضوع
حديثنا يكره زوجة أبيه يعنف يزيد بكثير عن مجرد كونها
عقبة أمام مشاريعه السياسية أو المالية » *

— وسألته رغماً عنى : « ولماذا ؟ انه لا يكاد يعرفها فديفا
نمت لديه تلك الكراهية التى تقول عنها » *

— « لكنك تقر أن سلوكه تجاهها سلوك ينم عن الكراهية
الشديدة » *

— « تماماً » *

— « ولقد بلغ حقه وكراهيته لها مبلغاً » ومالت بئس
العربة ميلاً حادة جعلت فرويد يتوقف عن حديثه ثم تابع :
« مبلغاً جعله يفضل أن يبقيا حية — حين كان من السهل
عليه قتلها مع ما فى ذلك من خطورة عليه * وأن يعبسها
ويعذبها عذاباً فوق كل تصور » *

هز هولز رأسه وقد ضم شفثيه وهو يتدبر الموقف الذى
عرضه فرويد *

واستمر فرويد والعربة تدنو من المستشفى : « ولذلك ،
وباستخدام أساليبك ، لابد لنا من استنباط دافع آخر *
فما قولك إذا أخبرتك أن تلك الكراهية المميتة كانت موجودة
لديه قبل أن يرى تلك المرأة التى تزوجها أبوه ، بل انها
توجد بصرف النظر عن أية امرأة يتزوجها أبوه » *

— « ماذا ؟ » *

— انظر يا صديقي ، ان سلوك الشاب غير العادي تجاه زوجته ابية التي لا يعربها لا يمكن تفسيره الا بطريقه واحدة * وهي انه مخلص ومتعلق بذكري امه الحقيقية بحيث ان ما فعله ابوه وموافقة المرأة على زواجه قد آيقت اعماق نوازع التدمير في شخصيته * فبالنسبة للأب الموت العاجل جزاء خيائته للزوجة الأولى * أما الأم المزيفة فلتحيا ولكن بين الحياة والموت ولو أن ذلك غير عملي من زوايا أخرى * هذه هي النظرية الوحيدة التي تغطي كافة الوقائع وكما لاحظت أنت نفسك يا هر هولز فانه عندما تستبعد كافة الاحتمالات الممكنة فان الباقي مهما بلغت غرابته يجب أن يكون الحقيقة * هأنا طبقت منهجك تطبيقا صحيحا ؟ أليس كذلك * وبالتالي يمكننا الاعتماد عليه * * المرأة ستظل حية مهما كانت الأخطار التي تتعرض لها * * ها قد وصلنا » *

حمق هولز في فرويد لعدة ثوان قبل أن يقفز خارجا من العربة ومندفعا نحو بوابة المستشفى وهو يجبر الممرض وراءه * وتبعناه أنا وفرويد بينما طلبنا من الحوذي أن ينتظرنا *

وفي الداخل اتجهنا مباشرة الى البوابة حيث كان الحارس الذي سلمنا مريضة فرويد في الصباح * وحدثنا بحلق شديد مبديا اعتراضه على عدم اتباع القواعد بشأن خروج تلك المريضة * تصور يا سيدى لو أن لك مريضا يمكن اخراجه بمجرد ورقة دون أى توقيعات رسمية * * وقاطعه هولز دون احتفال : « صف لنا هؤلاء الناس الذين اصطحبوها » * استدار الحارس الى هولز ببطء وهو يتفحصه * واستشففت من سلوك الحارس ومن هيئة صديقى خاصة ملبسه الغريب أن الحارس قد يظنه من المرشحين لدخول جناح الطب النفسى * فسارعت بالتدخل قائلا : « أسرع أرجوك * * ان الأمر فى

غاية الأهمية « وكرر الحارس الغبى الجملة ببطم : « أصف من ؟ لم تتح لى الفرصة . . » واستدار الى الدكتور فرويد قائلا : « ولماذا أصفهم . . أنت تعرفهم أفضل منى » .

فرد عليه فرويد مندهشا : « انا ؟ ! اذا كنت أعرفهم فلماذا اسالك عنهم ؟ » .

— وأجاب الحارس مختاظا : « لقد قالوا انهم من طرفك » ، ونظر الى فرويد كما لو كان هو الآخر مرشحا لدخول المستشفى .

وأخذنا ننظر الى بعضنا فى ذهول . وقطع هولمز لحظة الصمت بالضحك وصباح وهو يهز راسه : « يا لهم من ماكربين . . اقوياء الاعصاب . لقد استمادوا بما قتلته للسيدة صبايح اليوم فى شارع فالنشتاين . بل وعرفوا أين توجد المبرة . . والان أيها الحارس صف لنا هؤلاء القوم ؟ » .

ووصف لنا الحارس من ذاكرته الضعيفة شخصين أحدهما قصير زائغ البصر حاد الطبع والآخر طويل ورزين ذو هيبة . — فقال هولمز : « هذا هو الساقى غالبا » والتفت الى فرويد قائلا : « من الأفضل تحرير مذكرة لطلب الشرطة فلسوف نحتاجها فى نهاية الأمر » أخبرهم أنه تم اختطاف امرأة من المستشفى واترك لهم عنوان شارع فالنشتاين فلسوف نتجه الى هناك الآن » .

— وهز فرويد رأسه وكان على وشك أن يخبر الحارس بالرسالة عندما تدخل القدر لصالحنا — مرة — وذلك فى شخص الدكتور شولتز الذى أقبل مسرعا الينا : « آه هذا أنت يا دكتور فرويد » قالها بلهجة متقعرة .

« كنت أود أن أتبادل معك » . وقاطعه فرويد : « وأنا أيضا كنت أود الحديث معك » .

وأخبره فرويد بما حدث مغفلا - كما اقترح هولز -
بعض التفاصيل المهمة والتي لم يكن هناك داع بدورها *
وأن البارونة هي نفسها الخادمة التي اختطفتم حديثه
للطبيب المنزعج قائلا :

« أسرع فى طلب الشرطة » ودون عنوان شارع
فالنشتاين فى هامش دفتر الأحوال *

ودون انتظار لأى جواب هرعنا نحن الثلاثة الى العربية
وقفزنا بداخلها وصاح هولز بالسائق : « طر بنا الى رقم ٧٦
شارع فالنشتاين فحياتك متوقفة على سرعتك » *

وهمهم السائق بقول يفهم منه أن فى التانى السلامة
وجذب العنان وانطلق بنا مرة أخرى * وأعتقد أنه لو كان
بداخل العربية مساحة كفاية فان هولز لم يكن ليتردد فى
ذرعها ، ولكنه لضيق المساحة ، اكتفى بقضم أطراف أصابعه
بأسنانه وسألنى : « هل أحضرت معك مسدسك يا واطسون؟ »
وأخبرته اننى دسست المسدس فى جيب معطفى عند خروجنا *
فهز رأسه موافقا *

- « أعتقد أن البارون قد حسب حساباته دون أن يدخل
فى اعتباره استنتاجات دكتور فرويد مما يعنى انه يحس الان
بالامان * وهو يظن أننا نعتقد أنه سيقتل المرأة فى أول
فرصة ويتخلص من الجثة ، بل أعتقد أنه يشك أننا نقسفى
أثره » * ولكنه - أى هولز - لم يبد مقتنعا وسرح قليلا بينما
عادت أطراف أصابعه تنقر على أسنانه *

والتقطت أنا خيط أفكاره فتساءلت : « هل ستصل به
الحماقة الى هذه الدرجة بالتأكيد لن نجدها فى الفيلا » *

ووافق هولز على مضض : « أخشى أننا لن نجدها * *
ولكن أين * * سيذهب بها ؟ » واندمج مرة أخرى فى التفكير

انه يعلم الآن أننا قد أذعنا أمره ، وأعتقد أنه متأكد أننا سنقتفى أثره بشكل مباشر أو غير مباشر « وغرق فى التفكير مرة أخرى ، وأنا أعلم من خبرتى السابقة معه انه يحاول الآن أن يضع نفسه فى موقف البارون الماكر ، وأنه باستخدام الصورة التى رسمها له فرويد باقتدار يحاول أن يحدد الحركة التالية للبارون وأن يتوقع ماذا يفعل لو وضعته الأقدار فى موضع هذا البارون المجنون .

ووصلنا الى مدخل الفيلا رقم ٧٦ شارع فالنشتاين وخیولنا يتصاعد الزبد والعرق منها ، ووجدنا شرطة فيينا تذرع المكان فقد حذرتهم مكالمة دكتور شولتز ووصلوا فى لنش بحرى ، تحت قيادة سیرجنت طويل القامة معتدل القوام ذى شعر فاتح وعينين زرقاوين متنبهتين . وتحرك نحونا بخطوة سريعة بينما نحن ننزل من العربة واتجه الى صديقى وحياه تحية عسكرية .

« هر هولمز ، لقد وصلنا لتونا . ولكن المنزل مغلق ولا يبدو أن به حدا » وكانت انجليزيتها فيها جهد ولكنها تفى بالغرض .

وأجابه هولمز وهو يتنهد وينظر حوله بامعان : « أعتقد أننا وصلنا بعد فوات الأوان » .

— « أرجو ألا تظن بنا سوءا ، فقد أسرعنا الى هنا حالما وصلنا الانذار » .

— « كلا . كلا لم تخطئوا فى شىء ، ولو أن رجالك قد أفسدوا الحديقة وجعلوا الأرض كما لو أن فصيلة من الخيالة قد دهستها ، ومع ذلك فلنلق عليها نظرة » .

وبدأ فى التحرك صاعدا الى أعلى التل فى اتجاه المنزل يتبعه السیرجنت فى لهفة وهو يقول له : « ان صيتك معروف

لنا جيداً يا هر هولمز ، وقد أمرني رئيس الشرطة أن أضغ
رجالي تحت تصرفك » .

وتوقف هولمز مسروراً وقال له : « صحيح ، من المؤسف
أن سكدوتلانديارد لا تشاطر رئيسك رايه » واستمر في
الصعود وعيناه مركزتان على الحشائش والارض الزلقة
وسمعتة يهمهم بالقول المأثور « لا كرامة لنبي في وطنه » .

وبدا فرويد يتحرك متابعاً خطى هولمز ولسكني جذبت
ذراعه برفق وشرحت له هامساً أن وجودنا مع هولمز قد يسبب
له عائقاً فادرك على الفور وثبت في مكانه .

استعرض هولمز أرجاء المنزل بسرعة مقتصرًا على منطقة
المدخل ذات المظلة واخذ يدور ويلف فيها جيئته وذهاها
وأحياناً بشكل دائري مصدراً بين الحين والآخر همهمات تنم
عن الرضى أو السخط أو التسوق . وكان مظهره في تلك
الملحظات أقرب ما يكون الى منظر كلاب الصيد ، فكانت
ملامحه العادة وخاصة أنفه المستقيم وميل جسمه الى الأمام
وخطواته المتحفزة كلها توحى بمنظر كلب مصمم على التقاط
رائحة فريسته . ولولا أنه أخرج عدسته المكبرة وأخذ يفحص
بها الأرض لكان أشبه بالكلب توبى وهو يتشمم الأرض بحثاً
عن أثر .

وقف دكتور فرويد والسيرجنت ورجال الشرطة يراقبون
ذلك المنظر وقد علت تعبيرات الدهشة وعدم التصديق
وجوههم . وبالنسبة لفرويد فقد كان مشغولاً بالجوانب
المختلفة لهولمز والتي كانت تتبدى له الواحدة تلو الأخرى .
وبالنسبة للسيرجنت فكان اهتمامه مهنيًا ، كمن يريد أن
يتعلم من أستاذ ولكنه لا يستطيع اقناع نفسه بأن مثل هذا
السلوك الغريب يرمى الى أى شئ سوى ابهار المشاهدين ،
أما بقية أفراد الشرطة فكانوا يبتسمون وكلهم شك وارتياب .

ولو كانت لديهم فكرة عن هولمز فقد استتقوها من القليل والقال ، وعلى أية حال فإن ما كانوا يشاهدونه لم يذن يعنى شيئاً لهم . وربما ظنوا أنه مجرد تكلف أو افتعال . وكان بوسعى أن أقول لهم أن هولمز قادر على التصنع بغير حدود إذا لزم الأمر ، ولكن ما كنا نشاهده فى تلك اللحظة كان أبعد ما يكون عن ذلك .

وتوقف هولمز فجأة ومال بجسمه وهو يرتجف ويفحص شيئاً على الأرض ثم انبطح أرضاً على وجهه وظل كذلك لمدة لحظات ، ثم رفع قامته وسار متجهاً إلينا .

— « كل الدلائل تشير الى أنهم وضعوا المرأة داخل صندوق كبير مما يستخدم فى السفن وسيحملونها معهم خارج البلاد » .

صعق السيرجنت بحيث لم يقو على الكلام ، وأصابه الدهول مما قاله هولمز . أما أنا ، الذى تعودت على ذلك ، فلم أناقش وإنما سألته : « لكن يا هولمز الى أين سيأخذونها؟ »

— « الى أين ؟ » .

وفكر لحظة ثم فرقع بأصابعه وصاح : « أجل الى بافاريا بالطبع . فإنه متى ما عبر الحدود فسيكون آمناً تماماً . اللعنة ! » وكان يشير بهذه اللفظة الأخيرة الى حالة الخيل المنهكة فى العربة التى استأجرها . وصاح بى وهو يهرول هابطاً المدخل : « هيا يا واطسون يجب أن نجد وسيلة نقل أخرى الى أقرب محطة » .

وتبعناه ، فرويد والسيرجنت وأنا — وفى أعقابنا بقية رجال الشرطة فى حالة من الاضطراب — ومرقنا بسرعة من البوابة الأمامية فى اثر هولمز الى الشارع الساكن .

وخذنا نصطدم به عند زاوية حيث توقف فجأة ومعطفه يصير في الهواء من حوله ، ونظرنا الى نهاية الطريق فاذا بموئيد يهبط نحونا بغطى جنازية وكان النعش محمولا على عربة يتلوها صف من العربات والخيول وعدد كبير من المستمعين على الاقدام ، يرتدون كلهم الملابس السوداء . وكان من الواضح أن شخصية مهمة قد توفاه الله وأدت الى وجود ذلك الموئيد المهييب ، ولمحت عينا هولمز تلمعان عند رؤيته لذلك المنظر الحزين ، وفجأة قفز الى الأمام * * وصحت به « يا هولمز » ولكنه لم يعرنى التفاتا وانطلق ، ونحن في أثره ، متجهين الى العربة السوداء الضخمة التي تتلو النعش مباشرة ، والتي كانت بلا ريب تقل أقرب أقارب المتوفى ولا يد أنهم كانوا من الدوقات والأمراء ، ولكن هولمز لم يتردد فقد القى بنفسه على العربة واختطف اللجام من أيدي السائق المذعور وحول العربة عن مكانها في الموكب وفرق بالسيوط في الهواء وصاح بى « يا واطسون » وأقبل علينا بسرعة بينما العربة تطلق أصواتا هادرة مشيرا اليها بالصعود وتعلقنا فرويد والسيرجنت وأنا بالعربة وهى مندفعة فى طريقها كل منا يمسك بأحد النتوءات وتمكنا فى النهاية من دخولها .

من المستحيل أن أصف تعبيرات الدهشة والذعر التي تجلت على وجوه ركاب العربة . كان هناك أربعة أشخاص كلهم يرتدون ملابس أنيقة ، منهم سيد ضخم الجثة ذو بشرة حمراء وسوالف بيضاء ينم حجمها الكبير عن أنها تنتمى الى « موضة » قديمة ، وهو يتنفس بصعوبة وفى حالة عجز ، وفتاة شابة فى السادسة عشرة أو حولها ملامحها مختلفة نوعا وراء الحجاب بينما تنظر عيناها اليها فى تعجب ، وسيدة متقدمة العمر نوعا بدينة ترتدى ملابس مشابهة ولكنها كانت غارقة فى أحزانها بحيث انها لم تلاحظنا على الاطلاق ، وانما استمرت فى البكاء تمسح دموعها بمنديل حريرى أسود ، والى جانبها يجلس شاب أعتقد أنه ابنها أو ابن أختها

يحاول أن يسرى عنها وفى نفس الوقت يحاول أن يفهم شيئاً مما يدور حوله ، وأعتقد انه كان موزع الخاطر بين مواسة المرأة ومواجهتنا *

رأيت كل ذلك فى لمح البصر ، وكنت مشغولاً بالتعلق بالباب الذى فتحته واعطاء هولمز مسدسى اذ ربما يحتاجه لمنع السائق من القيام بأى عمل متهور *

وكان السيرجينت قد تعلق بالباب الآخر وأخرج مسدسه فى حالة الاستعداد، رغم ما بدا من الركاب من أنهم لا ينوون التدخل ، بل ولم يستجيبوا عندما حاول - مستخدماً لهجة غاية فى الرسمية - أن يطمئنهم مخبراً اياهم أنها حالة طوارئ وأنه لا يوجد سبب يدعوهم للانزعاج * ولا شك عندى أنهم رأوا كلامه متناقضاً *

ولم يكن هناك مكان فى العربى ، واضطر الدكتور فرويد أن يقف على درج العربى وأن يتعلق باطار النافذة لتثبيت موقفه بينما شعره يتطاير فى الهواء *

أما بقية المعزين ورجال الشرطة فقد تركناهم وراءنا *
وسأل هولمز السيرجنت من خلال فتحة سقف العربى :
« ما هو أقصر طريق الى أقرب محطة للسكك الحديدية ؟ » *

— « ان قطار ميونيخ لا يخرج الا من محطة » * *

— « اللعنة على قطار ميونيخ، أين أقرب محطة يارجل؟ » *

وأخذ السيرجنت يوجه حركة العربى بحيث نصل الى أقرب محطة بينما هولمز يفرقع بسوطه والعربى تجرى بسرعة البرق بحثاً عن تلك المحطة *

وفيما عدا سهيل الخيل وصوت العجلات والاجزاء
المعدنية في العربية وبهاء السيدة لم ينبس احدنا ببنت شفه .
وجال السيرجنت ببصره في داخل العربية تم لحزنى واوماً
برأسه الى بطانة بابها فالتفت ورايتها مزينة بشعار النبالة ،
وهمس في أذنى « أرجو أن يكون الهر هولمز مدركا لما يفعله » ،
وعلق فرويد : « هذا هو ما أرجوه أيضا » وكان يجلس بجانب
الشباك ورأى الشعار هو أيضا . فقلت لهما « لا تقلقا »
ولكنى بعد أن فكرت وجدت أن ذلك التعليق في تلك الظروف
كان غيبيا وندمت على قوله *

بعد أن عبرنا القناة ، دارت العربية بزاوية حادة الى
اليمين جعلت العجلات مع السرعة تصدر صريحا قويا بينما
ارتفعت العجلتان على يسارها عن سطح الأرض ، ثم عادت
فاعتدلت عندما درنا بزاوية أخرى الى اليسار ، ورأيت
أمامى ساحة المحطة وأفنيته واندفعت العربية الى نهاية
الساحة حيث يوجد مدخل المحطة . وتوقفت العربية بفرملة
قوية ، وقبل أن نترجل كان هولمز قد سبقنا وهو يجرى الى
المبنى . وتدفقنا وراه ، بينما اعتذر السيرجنت لأصحاب
المركبة المذهولين عن تدخلنا المشين خلال حزنهم ، وأدى تحية
عسكرية اعتبارا لمقامهم النبيل *

ولحقنا بهولمز الذى كان قد دخل فى مناقشة محتدة مع
ناظر المحطة الذى أخبره أن البارون فون لينسدورف قد أمر
بتجهيز قطار خاص غادر المحطة منذ ثلاث ساعات . وطالبه
هولمز باستئجار قطار خاص أيضا . ولكن الناظر أخبره بأن
ذلك الأمر يقتضى عدة ساعات بحيث يمكن اخلاء الطريق .
وكان من الواضح أن البارون قد استأجر القطار منذ اللحظة
التي غادرنا فيها منزله فى منتصف النهار *

كان هولمز يصغى لحديث ناظر المحطة بنصف أذن والرجل
يحكى تفاصيل الصعوبات التي تعترض هذا الأمر ، بينما

عيناه تجوسان خلال الأرصفة وحطت أخيرا على قاطرة خلفها
مقطورة الفحم ويتصاعد البخار من مدخنتها وقد ألحقت بها
عربة واحدة *

— أخشى أنه لا يوجد لدى وقت لأضيعة في الحديث
وامتدت يده لتخرج المسدس من جيبه ملوحا به في وجهه
الناظر : « سناخذ تلك القاطرة الواقفة هناك » *

ذهل الرجل لدرجة أنه لم يمكنه الاستجابة ، ولكن
السيرجنت وجد أن الموقف قد زاد عن حده فاستنشق نفسا
عميقا والتفت الى هولمز قائلا : «رويدك يا سيدى *» ولكن
صديقى لم يكن على استعداد للمناقشة *

— « أرسل برقية الى الحدود على الفور أخبرهم أن
يوقفوا ذلك القطار بأى ثمن * وليستخدموا أية حجة ويقوموا
بتفتيش عربة الفحم سمعت * * أسرع يا رجل فلكل دقيقة
ثمنا الغالى ، ان حياة امرأة ومجرى التاريخ قد يتوقف على
سرعتك » *

لم يكن تدريب السيرجنت وتعليمه يسمحان له بمقاومة
أوامر تلقى بهذا الشكل فاستدار بأقصى سرعة ومضى الى
التنفيذ دون أية مراجعة *

وتحول هولمز الى ناظر المحطة قائلا : «والآن ياسيدى هل
تسمح بمرافقتنا » وهز الرجل التعيس كتفيه وسار معنا *
كان المهندس يضبط بخار القاطرة عندما اقتربنا منه ،
وأوضحنا له الموقف * فرفع حاجبيه عندما أخبره ناظر المحطة
أن قطاره الصغير قد أصبح قطارا خاصا وأن عليه أن يستعد
للرحيل * وسأل المهندس عندما رأى أن الناظر لا يبدو عليه
أنه سيغادر القطار « ولكن الى أين يا سيدى ؟ » فأجابه هولمز
وهو يلوح بمسدسه : «الى ميونيخ» * والتفت هولمز الى فرويد

دون أن يعطى المهندس فرصة للرد وقال : « يا دكتور لا توجد بك حاجة للقدوم معنا ، فهلا غادرت ؟ » •

وابتسم سيجموند فرويد بلهفة وهز رأسه بالنفى : « لقد شاهدت الجزء الأكبر من هذه المسألة بحيث أصبح لا يمكننى التخلي عنها الآن •• كما أن لدى حسابا أريد تصفيته مع البارون ، ولا ننس أن المرأة هى مريضتى » •

— حسنا حسنا ! •

وتدخل المهندس بعد أن تلكأ طويلا قائلا : « ليس لدينا من الوقود ما يكفى لتوصيلنا الى ميونيخ • كما أن هناك نقاط التحويل •• ستكون كلها خاطئة » •

فقلت له : « دعنا نتخطى العقبة الأولى عندما تواجهنا ، أما العقبة الثانية فسنعدل التحويلات كلما مررنا بها » •

والتفت الى هولز وعلى فمه شبه ابتسامة : « لن أصل قط الى سبر غورك يا واطسون •• فلننطلق •• وبأقصى سرعة » •

نظر المهندس وناظر المحطة الى بعضهما البعض فى عجز وهز الناظر رأسه فى استسلام وأطلق المهندس تنهيدة يأس وأدار عجلة القطار وانطلقنا •

الفصل الخامس عشر

المطاردة

كان من المستحيل بالطبع أن ننطلق بأقصى سرعة ، ليس أثناء الخروج من فيينا على أية حال . كانت هناك العديد من التحويلات التي يجب تعديلها ، كما أن الشريط الحديدي الذي يمر بأطراف المدينة في اتجاه الشمال الغربي لم يكن معدا لتحمل القطارات السريعة . وكان نصف الساعة الأول ، يبعث على الجنون ، اذ كان علينا - أنا والدكتور فرويد - أن نقفز بشكل مستمر من عربة القطار ونهرع لتحويل الخط حسب تعليمات المهندس في سلسلة لا نهاية لها من النقاط ، بينما كان هولمز يصوب مسدسى في اتجاههما حتى لا يفكر المهندس أو ناظر المحطة في ارتكاب فعل يعوق خططنا .

كان الليل يسدل أستاره بسرعة ، مما زاد من صعوبة مهمتنا ، وأصبح تمييز نقاط التحويل أكثر صعوبة ، فضلا عن ذلك فقد كان علينا ، حفاظا على الأمان ، أن نعيد خط السكك الحديدية الى ما كان عليه بعد أن يمر قطارنا بحيث لا تقع حوادث من جرم ما نفعله . اذ يكون من سخرية الأقدار أن ينشأ عن جهودنا لانقاذ امرأة واحدة وفاة المئات ، كما قال هولمز فيما بعد .

وكانت نقاط التحويل جافة يحتاج بعضها الى قوة رجلين حتى يمكن تحريكها ، وكان من حسن الحظ أن انضم اليينا فرويد فبدونه كان من المستحيل تحمل هذا العبء .

وانطلقنا فى طريقنا مارين بمننتزه « هرمالسر » وادى
لم أتمكن من رويته طبعاً فى هذا الظلام ، واتجهنا جنوباً
حتى التقينا بالخط الرئيسى المتجه الى الغرب بدءاً من المحطة
الكبيرة ، التى نزلنا بها أنا وهولز عند وصولنا اول مرة
لتلك المدينة ، والتى بدا لى أنها حدثت منذ دهر * وخلال
ذلك مررنا بنقاط تحويل لا حصر لها كنا فى كل مرة نحولها
الى الأمام ثم نعيدها الى ما كانت عليه * وكنا - انا
وفرويد - نتصيب عرقاً عندما انتهينا من آخر تحويلة ،
واندفعنا بالقطار ، الذى أخذت سرعته تزداد ، فى جوف
الليل *

خلال ذلك الوقت كان هولز قد شرح الموقف للمهندس
وناظر المحطة ، فتغيرت اتجاهاتهما تماماً ، وبدلاً من أن يعملوا
تحت تهديد المسدس - الذى احتفظ به هولز فى جيبيه خشية
تغير أفكارهما - استجابا للتعاون معنا فى حدود امكاناتهما *

كان الليل بارداً ونحن ننطلق بسرعة * ولكن وجود
الأعمال التى ينبغى القيام بها ساعدنا على تدفئة أجسامنا *
ولن يعرف من لم يمارس دفع الفحم بواسطة الجاروف مدى
الاجهاد الذى يعترى الانسان فى تلك العملية * لقد كان
علينا لى نلحق بقطار البارون أن نزيد من سرعتنا وأن
نستمر فى تغذية فرن القاطرة بالفحم *

وهذا ما فعلناه ، ظللنا نحشو هذا الفرن بالفحم ، بينما
المدن والحقول تنساب حولنا فى الظلام * وكنا - انا
وفرويد - ندفع الفحم بالجاروف كما لو كانت حياتنا
متوقفة على ذلك * وكنت أول من أعلن افلاسه ، فقد زاد
الألم فى ساقى نتيجة تلك القفزات التى كان علينا أن نقوم
بها عند التحويلات * ولقد أحسست بالألم عندئذ ولكن لم
أبال به فى خضم الحماس ، ولكن بدأت ساقى الآن تنبض
بالألم بشكل منتظم * أصبحت واعياً تماماً بمسار تلك

الرصاصية التي اخترقت ساقي منذ سنوات طويلة عندما أصبت في معركة « مايواند » خلال خدمتي العسكرية في أفغانستان .

ظللت أعمل حتى مررنا بمدينة نيولنجباخ ، حيث اضطررت للتوقف وحل هولز محلي . واعطاني المسدس وتهيأيت على الأرض واستندت ظهري الى جدار العربة المعدني ومددت ساقي مع ابقاء المسدس في متناول يدي واحسست ببرودة الريح وبدأت أرتجف ، ولكنني كتبت ما بي وصممت على الا أظهر شيئاً فقد كان صديقي في حالة انشغال - فضيحة .

ولاحظ هولز ما بي ، فتوقف لحظة عندما كان يستدير أمام الغلاية بعد افراع الجاروف ودون كلمة خلع معطفه والفاء فوقى . لم يكن هناك وقت للكلام . وبرقت في عيني نظرة شكر وعرفان بينما هز رأسه ورث على كتفي بلمسة ود قبل أن يعود الى عمله .

لقد كان منظرا لن أنساه بسرعة - أعظم مخبر في العالم ، ومؤسس ذلك الفرع من الطب الذي عرف فيما بعد باسم التحليل النفسي - يعملان جنباً الى جنب مشمرى الأكمام يغذيان الفرن بالفحم بواسطة الجاروف كما لو كان ذلك العمل هو الذي ربيا عليه منذ الصغر .

وكانت قوة فرويد تتهادى بسرعة ، لقد فعل كل ما في وسعه مثلما فعلت ، ومع أنه لم يكن لديه جرح قديم يعوقه مثلي ، فقد أصبح من الواضح أنه لم يكن يألف يذل مثل هذا الجهد . وقد لاحظ هولز حالته وأمره بالتوقف ، ورجا ناظر المحطة - ان تفضل - أن يحل محل دكتور فرويد . وقد أجاب الرجل بأنه يسعده ذلك وتناول الجاروف . (ولو لم تكن المسافة بين القاطرة ومقطورة الفحم ضيقة لربما

كان قد ساعدنا قبل ذلك لكن المسافة لم تدن نسع سوى
شخصين بالحداد *

ورفض فرويد التخلي عن الجاروف ، قائلا انه لم يتعب
بعد ، ولكن هولز أصر مبينا له انه اذا لم ياخذ قسطا من
الراحة الآن فلن يستطيع أن يعمل محل أحد العاملين فيما بعد .
واستمرت المناقشة ونحن نعبر مدينة « بوهيمكرشن » التي
لمحت لافتتها للحظة ، ولان الدكتور فى النهاية وسلم جاروفه
الى ناظر المحطة الذى أقبل على عمله بحماس *

وتناول فرويد سترته وأطلق تنهيدة من صدره وجلس
قبالتى على أرضية العربة . وسألنى « اتريد سيجارا ؟ »
فتقبلته منه شاكرا . كان فرويد يدخن بلا انقطاع سيجارا
من النوع الفاخر ، مثلما يدخن هولز الغليون ، ولو ان هولز
لم يكن يدقق فى نوع التبغ مما أدى الى نتائج معروفة
بالنسبة لحاسة الشم *

جلسنا ، أنا وفرويد ، ندخن فى صمت بينما اسمر
هولز وناظر المحطة يمدفان بالمصم فى قرن العديه *
والمهندس يراقب مقاييس ضغط البخار وصمامات التحكم
والطريق الحديدى ، وارتسمت على وجهه علامات السى
النى دلت على عدم ارتياحه لما يحدث لقاطرته والتفت مرة
بعد ان فحص الصمامات ونادى على « الوقادين » ان يهدنوا
من النيران قائلا : « ستنفجر القاطرة اذا لم تقل النار » *

ورد عليه ناظر المحطة : « كلا لن تنفجر * * لا تلتفت
اليه ياهر هولز ، لقد كنت أقود تلك القاطرات عندما كان
هو لا يزال بالشورت * * تنفجر ؟ ها ! » واستمر فى تغذية
النار وهو يقول : « لقد صنع هذه القاطرة فون لينسدورف ،
فهل سمع أحد قط عن انفجار غلاية لينسدورف ؟ لا تعره
اهتماما ياهر هولز * * انه من الجيل الجديد لا اقدام

ولا شجاعة ولا احترام لمن هم أكبر سنا « وأشاح بيده فى اتجاه المهندس •

وقاطعه هولمز : « دقيقة واحدة هل تعنى أن هذه القاطرة قد صنعتها شركة فون لينسدورف ؟ » •

— طبعاً يا سيدى بكل تأكيد « انظر الى اللوحة » وألقى بملء جاروفه الى الفرن الذى كانت ناره ييضام متوهجة وتقذف اليها بلفحة محببة من الدفء ، وتحول الى لوحة معدنية صغيرة طمسها اللون الأسود وأخذ يحكمها بمنديل المبلل بالعرق والغبار ثم صاح :

— « هل ترى الآن » وتطلع هولمز الى اللوحة بفضول ورجع عنها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة :

— « ماذا رأيت يا هر هولمز ؟ » •

— « سخرية الأقدار يا صديقى •• سخرية الأقدار •• استمر فى عملك » •

وهكذا انطلق القطار كالرعد خلال الليل • وأخبرنا ناظر المحطة أن قطار البارون يتكون من ثلاث عربات بينما قطارنا به عربة واحدة ، وأن قاطرته التى تم تجهيزها على عجل فى ساعة واحدة فقط كانت أقل حجماً وقوة من قاطرتنا • وأذكت هذه المعلومات حماسنا ورفعت من روحنا المعنوية ونحن نمر كالسهم خلال مدينة سانت بولان الكبيرة ، حيث كانت هناك عدة تحويلات يجب تغييرها ، ثم مررنا بمدينة ميلك بسرعة خاطفة لا أجسر على التفكير فيها •

— وصاح ناظر المحطة بصوت يغطى على ضجيج القاطرة

بعد أن عبرنا مدينة ميلك : « هل ترغب فى المرور بمدينة لينز أم لا ؟ يجب أن تتخذ قرارك » .

— واستفسر هولمز : « ما هى البدائل ؟ » .

— « حسنا اذا مررنا خلال لينز فسنأخذ الطريق الاقصر الى سالزبورج » صاح وهو يضع يديه فيه جوق حوض فيه حتى نستطيع سماعه : « ولدى لينز نفسها ستجعلنا نبطىء اذ توجد تحويلات كثيرة يجب تعديلها . ولكن اذا اتجهنا جنوبا فسنمر خلال امستيتين وستير ولكنهما اسهل ونقاط التحويل فيهما اقل ورجال السبائك الحديدية الذين قد يلاحظونك اقل . المهم أن تحزم أمرك قبل الوصول الى بوكالرن » ثم أضاف بعد تفكير : « كما أن الخط الحديدى قد لا يكون بجودة خط الجنوب » .

— وسأله هولمز « ولكن هل هو مستعمل ؟ » .

— والتفت ناظر المحطة الى المهندس الذى هن كتفيه ثم أحنى رأسه . ونظر هولمز الى فرويد وعلى وجهه علامة استفهام .

فسأله فرويد : « كيف نعلم أن البارون سيمر بسالزبورج ؟ » . ربما يتجه الى براناو » .

فرد ناظر المحطة : « كلا . . وهذا أمر أعرفه بالتأكيد ، فعندما نرتب المسار لقطار خاص يتم اختيار الطريق ويرسل الأمر بالتلغراف لكى يعدلوا التحويلات المطلوبة وذلك قبل قيام القطار . ولقد جهزت مسار قطار البارون بنفسى وأعلم الطريق الذى سيتخذه » .

— وتدخل هولمز : « يا للصدفة ! . . فيماذا تنصحننا إذن ؟ » .

— وفكر ناظر المحطة قليلا وهو يعبث بشاربه ملوثا اياه بغبار الفحم : « فلنتجه جنوبا » .

— « حسنا » •

وهذا أنا من سرعتنا عند مدينة بوكلارن الصغيرة ونزل هولمز ننسسه وعدل التحويلات • كنا — الدكتور فرويد وأنا — قد استرحنا وأصبحنا ، فى حالة تسمح لنا بمعاودة عملنا وبدأنا فيه بينما القطار يندفع الى مدينه أمستيرين • ولاحظت عندئذ أن مخزوننا من الفحم يقل بسرعة • وأخبرت هولمز بذلك بينما كان فرويد يكحت أرضية مقطورة الفحم ويدفع بما تبقى من الوقود الى مقدمة المقطورة •

— وسأل هولمز ناظر المحطة : «كم تبقى لدينا من الوقود؟» ، وعاد الرجل الى المقطورة ثم تفقد الصمامات وقال : « سيكون من حسن حظنا اذا استطعنا أن نصل الى ستير » • وهز هولمز رأسه ثم نهض وتعلق بالقضيب الحديدى على حافة المقطورة وقفز الى العربدة الوحيدة التى يجرها القطار • وتوقفت عن تجريف الفحم وحبست أنفاسى رغما عنى وأنا أدعو الله ألا تفلت قبضته وتحمله القفزة خارج القطار • وكان معطفه ، الذى عاد فارتداه ، يطير فى الهواء يلفه كالشرع وأدت الرياح القوية الى أن طارت قبعته من فوق رأسه •

واختفى عن نواظرنا لفترة ، وانصرفت أنا وفرويد الى تغذية القاطرة بما تبقى لدينا من الفحم ، ولكن استمرار غيابه أقلقنى • وكنت على وشك التعبير عن ذلك للدكتور عندما هبط علينا هولمز فى المقطورة وهو يرمى أمامنا كومة من الستائر وغيرها من المواد القابلة للاشتعال حملها من العربدة •

وقال لنا : «استعملوا هذه ، وسأعود بالمزيد منها» وعاد من حيث أتى •

قد يكون من المفيد — بل ومن المسلى — أن أحكى لكم

بالتفصيل كيف مزقنا تلك العربية المسكينة اربا اربا وأحرقناها قطعة قطعة ، كل مقعد وكل شباك وكل باب الواحد تلو الآخر . . ولكن كما ترون ليس الوقت مناسباً لذكر كل التفاصيل . ويكفى أن أقول اننا جميعاً تناوبنا هذا العمل - ما عدا المهندس الذي رفض أن تكون له يد في ذلك وأخبرنا بكل صراحة أننا نتلف ممتلكات السكك الحديدية . وخصه ناظر المحطة بلعنة باللغة الألمانية لم أستطع اكتشاف معناها ، ولكنى خمنت أنها ذات صلة بالام وبدأت لى شديدة الوقع ، ثم تناول بلطة معلقة فوق اللافتة وانتقل الى العربية ليتبث بنفسه ما قد قاله .

وأخذ القطار ينهب الطريق مخترقاً أستار الليل فى هذه المطاردة المجنونة ، واختفت العربية بفضل جهودنا التى استمرت حتى أتينا على آخر قطعة فيها دون أن تقل سرعتنا ولم نتوقف الا عند التحويلات حتى نستمر فى طريقنا الدائرى ، وتوقفنا مرة فى ايبنسى فى حوالى الخامسة صباحاً تحت العجاج المهندس لنملاً خزان المياه ولم تستغرق العملية سوى بضع دقائق تسرب خلالها بعض البخار الى ضباب الفجر مع صفير القطار العالى وتساقط شرارات الفحم ، ولكن المهندس ارتاح باله لاتمام العملية . ثم تزايدت سرعتنا مرة أخرى ، وهدأت نفوسنا بعدما أكد لنا ناظر المحطة أن البارون لابد أنه قد قابل فى محطة لينز صعباً أكثر مما قابلناه .

كان ضوء الصباح الباكر يخترق حجب السماء بأشعة برتقالية وحمراء يضىء لنا الطريق ونحن نقوم بتحويل آخر نقطة فى باديش ، وأخذ عمال السكك الحديدية ينظرون اليئنا فى دهشة ثم أخذوا يصيحون بنا ونحن نندفع بالقطار خلال المحطة ، ورأيتهم من العربية يهرعون فى اتجاهات مختلفة مثل النمل .

— وقلت : « أتوقع أنهم سيبرقون الى المحطة التالية » وأوماً
ناظر المحطة برأسه موافقاً وهو يلوح بيديه فى استسلام .
— وقرر هولمز أن يخوض المخاطرة قائلاً : « لا مفر من
ذلك . . أطلق لها العنان أيها المهندس » .

وطار القطار ، بينما الشمس ترتفع من خلفنا ، وعلى
يميننا لمعت مياه البحيرات تحت ضوء الأشعة المبكرة . ومع
أننا لم يكن لدينا الوقت لنستمتع بهذا المنظر ، فانه ذكرنى
بالفخامة التى لاحظتها وأنا أمر بتلك المناظر فى طريقى
الى فيينا .

أما الآن فبدلاً من الجلوس المريح فى ديوان العربية
والاستمتاع برؤية المناظر الخلابة من النافذة وقمم الجبال
المغطاة بالثلوج والتفلسف بشأن الحياة والجمال ، كنت
أكسر نافذة مشابهة ، بينما كان هولمز يقف على سطح العربية
مستخدماً أدوات أخرى وهو ينزع عوارضها الخشبية قطعة
قطعة ويدفعها من خلال ثقب فى فتحة السقف لتنزل فى الممر
تحتة حيث يجمعها الدكتور فرويد وينقلها الى المقطورة
فيجرفها ناظر المحطة الى الفرن المشتعل .

وتراعت أمامنا مدينة سالزبورج ، وبينما كنت أكوم
ما جمعته من أنقاض فى ممر العربية سمعت صياحاً من ناظر
المحطة والمهندس فهرعت الى المقدمة .

وأثلج صدرى ما رأيته ، فعلى بعد ثلاثة أميال — كما
قدرت — كان هناك قطار يسرع أمامنا فى اتجاه الجنوب
الغربى مكون من قاطرة ومقطورة وثلاث عربات .

وصاح هولمز فى ارتياح وعيناه تبرقان : « ها هم هناك
 أنت عبقرى يا برجر » واحتضن ناظر المحطة المذهول
 بحماس ، ثم توقف ليشاهد القطار المتقدم علينا بميل أو
 اثنين وهو يميل بسلاسة ليتخذ المسار المتجه الى سالزبورج .
 ولم ينم عن البارون وصحبه ما يشير الى أنهم رأونا . واستمر
 قطارنا فى مساره واضطررنا للتوقف لتغيير آخر تحويلة قبل
 أن نضع قطارنا مباشرة فى اثر القطار الخاص للبارون .

الفصل السادس عشر

ما حدث بعد ذلك

صاح هولمز وهو يضع كفيه كالقوق حول فمه حتى نستطيع سماعه : «علينا أن نقتصد الآن كل أوقية من البخار قدر الامكان * ولا تهتموا بعد ذلك بالتحويلات فلقد حولت كلها لصالح قطار البارون * ولكن علينا أن نلحق بهم قبل وصولهم الى الحدود عند سالزك » *

كنا قبل دقائق قد بلغ بنا الارهاق مداه وكان كل واحد منا على وشك الانهيار ، ولكن الآن بعد رؤيتنا للفريسة اشتعل حماسنا * واندفعنا ننفذ ما قال به هولمز * نفذى « الغلاية » بالوقود بحيث ارتفعت ألسنة النيران بيضاء عالية أكثر من أى وقت مضى ، ولم نترك شظية خشب فى تلك العربات التى فقدت تماما صفتها كعربة قطار * وتفرعت أمامنا ، عند دخولنا الى سالزبورج ، خطوط السكك الحديدية فى متاهة من الطرق أكثر تعقيدا من تفرعات الاوردة فى الجسم * وكان المهندس قد فقد أعصابه تماما ، فلو كانت أية تحويلة قد أعيدت الى سابق وضعها لأصبحنا فى عداد الأموات * وسارع برجر - ناظر المحطة - الى احتلال مكانه ، بينما انزوى المهندس المذعور الى جوارنا يقذف بقطع الخشب الى « الفرن » وهو لا يجسر على رفع بصره ليراقب الطريق *

واقتربنا مرة أخرى من قطار البارون * وأطلق هولمز عيارات نارية من مسدسه فى الهواء ليلفت نظرهم * ولم يكن

هناك داع لذلك فقد رأونا * ولمحت رأسين تتزاحمان في شباك العرببة تنظران إلينا ، وبعد لحظات شرع قطار البارون في زيادة السرعة *

مرت بنا مدينة سالزبورج مرور البرق ، ووجدت - مثلما وجد المهندس المتعفن - انه لا ضرورة لمتابعه خط سير القطار * ومع ذلك فقد كان من المستحيل الا لاحظ المحطة وهي تندفع إلينا بينما نمر بها كالرعد ، وكذلك نظرات الدهشة البالعة على وجوه الناس * كان قطار البارون يجرى بسرعة أكبر بكثير مما هو مسموح به في المحطات ، ولكن ان يتبعه قطار آخر بنفس السرعة * * أمر يثير الدهشة بل ومحفوف بالخطر ، وسمعت أصوات الصفاير ورأيت الناس تجرى وهي تصيح مذعورة بينما كان بيرجر هو الآخر يطلق صفارة قطارنا *

وبعد المرور بمحطة سالزبورج، لم يتبق أمام قطار البارون الا لحظات قبل أن يصل الى نهر سالزاك ويعبره الى بافاريا * ونسينا كل شيء وأخذنا نلقى في « الفرن » بكل ما يصل الى أيدينا من بقايا عرببة القطار بسرعة لم أكن أتصور أنها ممكنة قط *

وصاح فرويد : « لقد سدوا الطريق » وهو يشير الى الحدود أمامنا بعد أن عبرها قطار البارون * وصاح هولمز : « فلنقتحم الحاجز » وأطلعنا أمره بينما تحطمت البوابة الى آلاف الشظايا التي تناثرت في كل مكان *

ودخلنا بافاريا * وأثبتت قاطرتنا جدارتها ، وبدأنا في الاقتراب من القطار الهارب وخلال لحظات التقاط الانفاس رأينا شخصا يلوح لنا بقبضتيه مهددا ، وفي اللحظة التالية سمعنا صوت طلقات نارية *

وصاح بنا هولمز « انبطحوا » وسقطنا جميعا على أرضية

العربة ، كلنا ما عدا المهندس المدعور الذى اختار تلك اللحظة لينهض من مكانه حتى يلقي نظرة على الطريق ، فأصابته رصاصة فى كتفه * فدار حول نفسه كدمية معلقة فى خيط وأمسك بجانب المقطورة * وأشار الى هولمز أن أعتنى به بينما ذهب هو وفرويد لجلب مزيد من الوقود * وزحفت الى جانب الرجل المسكين وتأكدت من أن الجرح ليس خطيرا * ولو أنه مؤلم * وتمكنت من تثبيت وضعى وضمدت الجرح بما وجدت فى حقيبتي من ضمادات ، ولكن كان من المستحيل فى ذلك الوضع أن استخرج الرصاصة * وكانت القاطرة تهتز بنا كما لو كان قد أصابها الشلل الرعاش كما كانت مشارطى قد ثلمت حدودها نتيجة استخدامها فى تقطيع أغطية المقاعد *

وعاد فرويد وهولمز بأخر كمية من الوقود وألقياها فى النار ، وأخبرانى بأنه لم يتبق شئ فى العربة يصلح كوقود * وكانت لحظة حاسمة ، فاذا قلت النيران ، كما يبدو أنه محتم ، فسنخسر كل شئ *

واقترح ناظر المحطة أن نفصل العربة (التى كانت) عن القطار قائلا : « سيخفف ذلك من الحمل ويعطينا مزيدا من السرعة » ووافق هولمز وأخذنى معه بينما ترك فرويد ليعتنى بالمهندس ، واعتلينا المقطورة الفارغة ووصلنا الى الوصلة الحديدية التى تربطها ببقايا العربة ، وكانت الأرض تحتنا تجرى بسرعة رهيبه * وأخذ هولمز يحاول نزع الكلابات الحديدية بينما رقدت أنا على بطنى وأمسكته بقوة من خصرته *

وبدأ هولمز يفك الوصلات ثم أخذ يفك الصواميل الكبيرة التى تربط العربة بالمقطورة * وكان عملا شاقا بسبب السرعة والضجيج الذى يصم الأذان * ومن الموقع الذى

كنت فيه لم أكن أرى شيئا من الجهود التي يبذلها وبدأت ذراعاى تؤلماننى بسبب الجهد المبذول لحفظه فى مكانه وفجأة انفصلت العربى واندفعت القاطرة بسرعة هائلة ، ولو لم أكن ممسكا به بثبات وقوة لكان قد طار مرتطما بالأرض ملاقيا حتفه فى الحال •

وظللت ممسكا به وأنا أشده ببطء الى حافة المقطورة وهى عملية بدت وكأن لا نهاية لها وعندما استطاع فى النهاية أن يمسك بالمقطورة ندت عنه أهة عميقة هو يستنشق الهواء بشدة وقال لى : « لا تدع أحدا يقل عنك بعد ذلك يا واطسون انك مجرد مؤرخ لى » •

وابتسمت وأنا أتبعه ونحن نعبر المقطورة لأخر مرة أخذين حذرنا عند سيرنا فوقها ، فقد كان هناك من لا يزال يطلق النار فى اتجاهنا ، لقد كانت اصابة المهندس ونحن نسير بهذه السرعة أمرا من قبيل الصدفة البحتة •

ونجحنا فى الوصول الى القاطرة ونظرنا أمانا • وأصبح واضحا لنا أننا فى طريقنا الى التفوق على قطار البارون • واقترحت أن نفصل المقطورة أيضا ، حيث لم يعد بداخلها اى وقود ، ولكن برجر حذرنا من ذلك ، اذ أنها تعمل كثقل لتثبيت القطار وأنه يمثل هذه السرعة قد يكون من الخطر التخلص منها •

وكنا قد أجهزنا على كل ما يمكن أن يصير وقودا ، وتخلصنا من الهيكل والعجلات الحديدية للعربة الوحيدة ، ولم يتبقى شئ يمكن عمله • فاذا لم نلحق الآن بقطار البارون ، فسوف تكون كل جهودنا قد ذهبت هباء • وجزعت عندما تخيلت ردود الفعل العالمية الناشئة عن اقتحامنا للبوابة عند الحدود وحدث ولا حرج عن الطريقة التى خرقنا

بها كل قواعد السكك الحديدية ، بالإضافة الى تدمير
ممتلكاتها !!

وخلال ذلك هبط مؤشر عداد ضغط البخار من موقعه
الذى كان ثابتا فيه (عدة درجات قبل منطقة الخطر الحمراء) *
وأطلق هولز تنهيدة كان صوتها أعلى من ضجيج القطار ،
وصاح : « لقد خسرنا » *

وكنا فعلا على وشك الخسارة * لولا أن البارون فى
لهفته على الفرار ، ارتكب خطأ قاتلا * كنت على وشك ان
أجيب هولز ببضع عبارات تشجيع زائف ، عندما استرعى
انتباهى أن العربى الاخيرة من قطار البارون تتجه نحونا
بسرعة مخيفة *

وصحت وأنا أشير اليها : « هولز لقد تخلص من احدى
عرباته » وكان برجر قد رآها فى اللحظة نفسها وضغط على
« الفرامل » بأسرع وأقوى ما يمكنه * ونحن نحاول تفادى
الاصطدام * ومرت عشرون ثانية من العذاب ونحن نندفع
الى الأمام دون أية بادرة تدل على انخفاض السرعة فى
طريقنا الى الاصطدام بالعربى المفلوطة * واستعد كل واحد
منا للصدمة ، وأمسك فرويد بالمهندس المجروح ، ولكن فى
اللحظة الأخيرة أدركت أننا لن نصطدم * لقد اطلق البارون
العربى على قمة منحدر ووفقا لقوانين القصور الذاتى فانها
ما أن وصلت الى القاع وصعدت قليلا ، عادت الى النزول مرة
أخرى وأصبحت تجرى أمامنا بسرعة حثيثة ، ولكنها كافية
لتدميرنا ما لم يبادر برجر الى فعلته الحاسمة *

لما أدرك هولز الموقف ، ألقى معطفه عنه وبدأ فى
تسلىق القاطرة متجها الى مقدمتها وصاح : « هدىء السرعة *
سنحاول ضم تلك العربى » *

وثردد برجر لحظة أمام جرأة الفكرة ثم هز رأسه موافقا وخفف من قوة الدفع * وكان السياج المحيط بالقاطرة (الغلاية) شديد الحرارة لدرجة أن هولز اضطر لاستخدام قبعته ليمسك بها السياج وهو يتحرك بجوار القاطرة *

وكنا ، ' فرويد وبرجر وأنا والمهندس (الذى استطاع النهوض على قدميه) نشاهده وقت حبسنا أنفاسنا في انتظار اللحظة الحاسمة وهو يتقدم خطوة خطوه نحو مقدمة القاطرة بينما لاحظت عربة قطار البارون على مرمى البصر *

كان برجر ماهرا ، واستطاع الارتطام بالعربة برفق قدر الامكان ، بالنظر الى سرعة الطرفين * وحدثت صدمة خفيفة لم ينشأ عنها لحسن الحظ خروج احدى العربتين عن الخط ، ومع تحول المنحدر الى الصعود استندت العربة الى مقدمة قطارنا فى يسر *

واستطاع هولز أن يقفز من مقدمة القطار الى العربة ، وأشار اليها أن نتبعه ، وبدأت فى الحركة ولكن فرويد أمسك بذراعى وصاح فى أذنى : « لن تساعدك ساقك على هذه القفزة » ثم خلع سترته وتبع خطى هولز واحتياطاته حتى وصل اليه *

وعاد فرويد بعد فترة وهو يحمل حملا من سئاتر العربة ألقاها فى النار ، واقترح هولز ، الذى كان يجمع من يدها من البوقود ، أنه قد يكون فى وسعنا الآن أن نتخلص من المقطورة * وقال برجر انه من الممكن حدوث ذلك الآن ولكنه لا ينصح به ، ولكننا قمنا بذلك وتخلصنا منها * وعاد هولز بالمزيد من البوقود وبدأ مؤشر ضغط البخار يرتفع * وبفضل هذا المدد الجديد من البوقود والتخلص من المقطورة بدأنا مرة أخرى فى اللحاق بقطار البارون * واقترب هولز من برجر ، الذى كان مشغولا بأدوات التحكم

وأخذ يحدثه فى أذنه بشكل جاد • وانزعج الرجل فى البداية ونظر اليه بشدة ، ثم هز كتفيه وربت على كتف هولمز • وعاد هولمز الى حيث كنت أقف وطالبنى بالمسدس •

فسألته وأنا أناولله السلاح : « ماذا ستفعل به ؟ » •

— فأجابنى : « ما أقدر عليه » مكررا عبارة فرويد المماثلة التى قالها فى موقف مشابه • « واطسون ايها الصديق القديم ، اذا لم نلتق مرة أخرى ، فاعتقداى انك ستذكرنى بكل خير » •

— « ولكن يا هولمز • • • » فأمسك بيدي وضغط عليها بحيث أوقف كل كلام • واستدار الى فرويد الذى سأل : « هل هذا ضرورى ؟ » وكان فرويد — متلى — لا يبدو أن لديه أية فكرة عما ينتويه هولمز ، ولكن كلماته كان لها وقع ينذر بالشر •

— أجاب هولمز : « أخشى أنه لا مفر من ذلك • • • وعلى أية حال ، ليس امامى مخرج آخر • الوداع يا سيجموند فرويد وليباركك الله جزاء ما قمت وستقوم به من خدمات للجنس البشرى ، ولانقاذك لحياتى التعيسة على الأقل » •

— واحتج فرويد قائلا : « أنا لم أنقذها لكى تفقدها أنت » وبدأ لى أن عينيه قد امتلأتا بالدموع ، الا ان ذلك قد يكون راجعا للحرارة والغبار والرياح •

وعلى كل ، فان هولمز لم يسمعه لأنه اتجه مرة أخرى الى العرببة التى كان قطارنا يدفعها أمامه ، بينما كنا ندنو شيئا فشيئا من قطار البارون ، ولشدة انشغالنا بمراقبته لم نلاحظ الا فجأة ظهور قطار آخر قادم من الجهة المقابلة على الخط الحديدى الموازى ، وكان هولمز منهمكا فى مراقبة خطواته بحيث لم نلاحظه ، بل لم يسمع صرخاتنا ونحن

نحذره ان يلتصق بجسم القاطرة * وهكذا فاجأه القطار ومر بجانبه كالرعد القاصف يكاد يمس جسده حتى انه افلت احدى يديه وكاد الفراغ الهوائي ان يبتلعه * الا انه ببت فى موقفه وما هى الا لحظة حتى شاهدناه يهز براسه بما يعنى انه لم يصبه سوء ثم اختفى داخل العربيه * ومن الصعب ان اصف ماذا حدث داخل العربيه بالضبط * لقد ظلمت ارى المنظر فى أحلامى بل وقارنت ذكرياتى عنه بما يتذكره فرويد ، ولكن الواقع انه حدث بسرعة خاطفة وفى وسط خلط واضطراب حتى ان الواقعة لم تتخذ معالم واضحة فى أذهاننا *

كان برجر قد لحق بقطار البارون بحيث تساوت سرعتاهما وأخذ يدفع العربيه بحيث تلامس قطار البارون * وخلال الطريق الملتوى بين الجبال الشاهقة عمل برجر على تقليد سرعة قطار البارون فيسرع ويبطىء وفقا لحركة قاطرته * وبهذا الشكل دخلنا الى النفق وفى أعماق ظلامه سمعنا صوت طلقات نارية تدوى مغطية على ضجيج القطار * وفى اللحظة التالية خرجنا مرة اخرى الى الهواء الطلق * ولم أعد استطيع تحمل هذا الموقف الغامض ، وصممت أن اتبع صديقى * ونظر الى فرويد وأدرك أنه من العبث أن يثني عن عزمى فانضم الى وبدأنا نخطو الى الأمام عندما صاح بنا المهندس وهو يلوح بيديه :

كان هناك شخص يتسلق العربيه الأقرب إلينا ، رجل يرتدى ملابس سوداء وحذاء لامعا ذا رقبة طويلة يحمل فى احدى يديه مسدسا وفى الأخرى سيفاً *

— وصاح فرويد : « انه البارون » *

وآه لو طالت يدى مسدسا أو أى سلاح ، فاذا كان هذا الشخص قد قتل هولمز ويرمى الى اطلاق النار علينا الآن ، فقد أصبحنا فى خبر كان * ولم تعد المقطورة توجد خلفنا ،

أى لا يوجد مكان يمكن أن نلجأ اليه لنحتوى به • وفى تلك اللحظة أعتقد أن الموت لم يكن يهمنى بقدر ما أهمنى الموت دون أن أثار لهولمز •

الا انه لم يمت • فبينما أنا أنظر ظهر شخص ثان على سقف نفس العربة من الطرف الآخر • كان شرلوك هولمز • وكان يحمل مسدسا وسيفا مثل البارون ، ولم أدر كيف يمكن أن توجد كل تلك الأسلحة فى قطار الا فيما بعد •

وبينما كنا نشق طريقنا بين أرجاء الريف البائس ، وقف الرجلان يواجهان بعضهما البعض على طرفى عربة القطار •

وبدا الرجلان كأنهما تمثالان لا حراك بهما اللهم الا محاولة تثبيت أقدامهما على سقف العربة المهتز • وفى احدى تلك المحاولات فقد هولمز توازنه فأسرع البارون وأطلق مسدسه الا انه لم يضع فى اعتباره أن نفس الهزة التى جعلت هولمز يفقد توازنه تؤدي الى اختلال توازنه هو الآخر فطاشت طلقته • وحاول مرة أخرى بينما كان هولمز يحاول النهوض ، الا أن المسدس لم ينطلق • اما لأن رصاصه قد فرغ أو حدث خلل فى ميكانيزم الاطلاق • ولاح على وجهه غضب عظيم وهو يلقي بالمسدس جانبا • وبشكل تلقائى رفع هولمز مسدسه وصوبه ولكنه لم يطلق النار •

— وصحنا به : « أطلق يا هولمز • • أطلق يا هولمز » ولم يبد عليه انه سمعنا كما لم يبد عليه أى اهتمام عندما حاولنا أن نحذره من فوهة النفق الذى كنا مقيلين عليه • وثبت البارون أقدامه وهو يرقب الموت يقترب سريعا من هولمز •

ولكن من سخرية الأقدار أن كان البارون نفسه هو

الذى أنقذ هولمز * اذ أنه انبطح بحركة لا شعورية فوق سطح العربة ليتحاشى الاصطدام بالنفق وأدرك هولمز على الفور السبب فى ذلك فانبطح هو الآخر وطار المسدس من يده أثناء تلك الحركة *

وبدا أن النفق الجديد لا نهاية له * ترى ماذا يحدث الآن ؟ هل تغلب ذلك الشيطان منتهزا فرصة الظلام وتسلسل عبر العربة ليطعن صديقى ؟ أطار ذلك الخاطر ما تبقى من عقلى *

وعندما خرجنا الى ضوء النهار مرة أخرى كان العدوان المتنافسان يتحركان صوب بعضهما البعض وقد شهر كل منهما سيفه وهما يحاولان بصعوبة الاحتفاظ بتوازنهما *

والتقى السيفان ونصلاهما يلمعان فى ضوء الشمس وتبادلا الطعنات وهما يحاولان الاحتفاظ بتوازنهما خلال المباراة * ولم يكن أى منهما هاويا * فقد تدرب البارون فى هايدلبرج - ولعل الندبة على وجهه خير دليل على ذلك - أما هولمز فكان بطلا فى لعبة الشيش وخبيرا فى اللعب بالعصا * ولكننى لم أشاهده من قبل يلعب بسيف المباراة ، كما لم أر قط مبارزة على أرض لا تثبت على حال مثل سقف تلك العربة *

على أن البارون ، والعق يقال ، كان أبرع من هولمز فى المباراة بالسيف فأخذ يضغط عليه ببطء مجبرا إياه على التراجع المنتظم الى نهاية العربة * وكانت ملامحه الشيطانية تطفح بالسرور فى انتظار النهاية المتوقعة عندما أدرك مدى تفوقه على خصمه *

وصحت فى برجر : « الصق القاطرة بقطار البارون » فأعطاهما دفعة جاءت فى الوقت المناسب اذ اصطدمنا بقطار

البارون فى اللحظة التى اضطر فيها هولمز الى التراجع للخلف منتقلا الى سطح عربة قطار البارون ، ولولا أن الصدمة كانت خفيفة لذهب هولمز فى عالم النسيان .

وتابعه البارون برشاقة ومهارة كنمر متوحش . واستطاع برجر بعد فترة أن يتحكم فى القاطرة ويهدئ من سرعتها حتى يفصلها عن قطار البارون . وتعثر هولمز مرة أخرى ولم يضيع البارون الفرصة فدفع بسيفه نحو هولمز . واستدار هذا الأخير ليجنب الضربة ولكن سيف البارون أصاب ذراعه ورأيت الدم يندفع من الجرح .

ثم انتهى الأمر فجأة . أما ماذا حدث وكيف حدث بدقة فلم أستطع قط الوصول الى كنهه . بل ان هولمز نفسه لم يستطع التذكر . ويبدو أن البارون سحب سيفه الى الخلف واستعد لطعنة ثانية الا أن قدمه انزلقت فاندفع الى الأمام ملقيا بجسده على سيف هولمز الذى كان مشرعا وهو فى حالة النهوض من سقطته . وكان اندفاع البارون قويا لدرجة أن سيف هولمز اخترق جسده حتى المقبض ولم يستطع الشقى أن ينتزعه من جسده . ووقف للحظة فوق سطح العربة يتمايل ووجهه الشرير متجه من هول الألم ثم صاح صيحة هائلة — مازلت أسمعها تتردد فى أحلامى — وسقط من فوق العربة . وظل هولمز راكعا على ركبتيه لعدة لحظات ممسكا بذراعه المصابة محاولا أن يحتفظ بتوازنه حتى لا يسقط هو الآخر . ثم تلفت حوله باحثا عنا .

وهرعنا ، فرويد وأنا ، من القاطرة بأسرع ما نستطيع وتسلقنا سقف العربة حيث أمسكنا به وأنزلناه بحرص على السلم فى نهاية العربة . وكان فرويد متلهفا على فحص الجرح الا أن هولمز هز رأسه بعناد مصرا على أنه ليس سوى خدش بسيط . وقادنا خلال العربتين اللتين كانتا لا تزالان

متصلتين بقاطرة البارون • وشاهدنا فى العربى الأولى الجثة
الضخمة للساقى مصابا برصاصة فى الصدغ أطلقها هولمز
عندما دخل العربى أول مرة • وفى زاوية أخرى من العربى
انكشفت المرأة التى قامت بكفءة بدور البارونة فون
لينسدورف وهى تصيح صيحة هستيرية أفسدت ملامح
جمالها الباهر • ولم تتحرك من مكانها أثناء مرورنا وانما
جلست تبكى كطفل صغير وهى تهتز الى الأمام والى الخلف •

الفصل السابع عشر

المشكلة الأخيرة

قال شرلوك هولمز وهو يضع كأس البراندي جانبا :
« نحن لم نمنع الحرب حقيقة .. كل ما يمكن قوله أننا
أجلناها فحسب » .

— « ولكن » ..

— « ليس سرا أن الأساطيل تتجمع في سكايا فلو » قالها
وهو نافذ الصبر ولكن بعطف « فإذا أراد القيصر أن يحارب
روسيا بشأن البلقان » فسيجد وسيلة لذلك ولما كان البارون
قد مات والبارونة عاجزة فلن يدهشني أن أعلم أن الحكومة
الألمانية قد أعلنت أن الوصية لاغية وأن الضيعة مصادرة »
واستدار في مقعده ليواجه فرويد وهو حريص على ألا يغير
وضع الرباط الذي تستند إليه ذراعه اليسرى : « وهكذا
سنجد يا عزيزي الدكتور أنفسنا في جانبيين متحاربين » .

كنا جالسين مرة أخرى في المكتب المؤلف في شارع
برجاس رقم ١٩ . ورغم أن هذه الجلسة كانت آخر زيارة
لنا لهذه القاعة المريحة الا أن كثافة الدخان فيها أصبحت
تذكرني أكثر فأكثر بمأوى شرلوك هولمز في شارع بيكر .

وهز سيجموند رأسه في أسي موافقا على ما قاله هولمز
وأشعل سيجارا آخر وتنهد وهو يقول : « لقد كان أخذ أسباب

مساعدتى لك هو منع حدوث تلك الحرب الا أنه لا شك لدى
فى صدق نبوءتك لقد انتهت كل جهودنا الى لا شيء » •

— وابتسم هولز قائلاً : « أما أنا فلن أذهب الى مثل
ما ذهبت اليه » وعدل من وضعه على المقعد ، فلم يكن جرحه
بسيطاً لأن سيف البارون قد قطع طرفاً من عصب ، وكانت
كل حركة تحدث ألماً شديداً •

وبصعوبة بالغة أمسك غليونه بيده اليسرى ورفعها
ببطء الى شفتيه حيث أشعلها وثبت وضعها بين أسنانه وترك
يده تهبط ببطء الى أسفل •

— « لقد كسبنا بعض الوقت رغم كل شيء وهذه هي
الفائدة الرئيسية التى جنيناها من جهودنا • ألا تتذكر
يا عزيزى واطسون عبارة مارفل المفضلة « أه لو كان لدينا
متسع من العالم ومن الوقت ؟ » ان ما يحتاجه العالم الآن
أشد الاحتياج هو الوقت • فربما اذا أتيح للبشرية الوقت
الكافى لجاهدت ذلك النصف المرعب من نفسها والذى يبدو
دائماً معنياً بأفعال العبث والفساد والتدمير • فلو كان عملنا
هذا قد كسب ولو ساعة واحدة تفهم البشرية فيها مسئوليتها
فان ما فعلناه لن يكون عبثاً » فتدخلت قائلاً :

— « هناك فائدة أخرى ذات طبيعة عاجلة نشأت عن
عملنا • فقد أنقذنا تلك المرأة التعمسة من مصير
أسوأ من الموت وهناك أيضاً • • » وترددت ثم توقفت
بينما ضحك هولز وتابع مسيرة أفكارى وأكمل لى
جملتى قائلاً : « والشئ الآخر أن فرويد قد أنقذ حياتى
فلو لم أحضر الى فيينا ولو لم ينجح دواؤك لكانت هذه
الفرصة قد فاتتني بلا شك ، وغيرها من الفرص التى
ستمر بى » وأضاف ملتفتاً الى وهو يتناول كأسه مرة أخرى :
« ولو لم تتحایل أنت يا واطسون لتأتى بى الى هنا رغماً عني
فلم تكن الفرصة لتتاح للدكتور فرويد لينقذ مدمناً حالك
المصير ، اننى أدين بحياتى لكما • وبالنسبة لواطسون

فلا تزال أمامنا فرصة من الحياة لأرد له صنيعه • أما بالنسبة لك أنت يا دكتور فرويد فأعترف اننى فى حيرة من أمرى • وإذا صحت توقعاتى فقد تكون هذه المرة الأخيرة التى نشاهد فيها بعضنا بعضا فكيف أرد لك صنيعك ؟ » •

ولم يجب فرويد مباشرة وانما كان يبتسم بطريقته التى انفرد بها حينما كان هولمز يتحدث • أما الآن فقد نفض رماد سيجاره ونظر بثبات الى صديقى • ثم قال : « أعطنى فرصة لأفكر » •

كانت حقائقنا جاهزة والقضية قد انتهت والبارون قد توفى وبعد فترة قصيرة سأكون فى لندن مع زوجتى • واتضح أن التى انتحلت شخصيته البارونة فون لينسدورف - كما توقع هولمز - هى ممثلة أمريكية بقيت فى أوروبا بعد عودة فرقته الى أمريكا وكان اسمها الحقيقى ديانا مارلسو وخلال اقامة الفرقة فى برلين التقت بالبارون الشاب ونشأت بينهما علاقة • وقد أطلق سراحها بعد توقيعها اقرارا اعترفت فيه بدورها كما وقعت على تعهد بأنها لن تكشف عن الأحداث التى شاركت فيها ولا أسماء من شاركوا فى تلك الأحداث بما فى ذلك اسم شرلوك هولمز وانها لن تحاول الدخول مرة أخرى الى النمسا أو المانيا •

وكانت سلطات الأمن فى كلتا الدولتين حريصة على أن تسدل الستار على تلك الفضيحة ذات الأبعاد الواسعة والتى قاربت أن تكون فضيحة عالمية • وتكشفت كل الحقائق • وشهد كل من برجر والمهندس بما شاهداه وتلقيا ، مثلنا ، تعليمات بآلا يفشيا السر الى الأبد • كذلك تلقى السيرجنت ورجاله من شرطة فيينا تعليمات بكتمان السر • ولو أنه كان من الواضح أنه لا مفر أمام الجميع الا أن يظلوا صامتين • ولاقى مدبرو تلك المؤامرة الدنيئة جزاءهم العادل • أما البارونة المسكينة فريما مر وقت طويل قبل أن تستطيع

الكلام (هذا اذا تمكنت منه على الاطلاق) • ولا شك أن حكومتنا القيصر والامبراطور رأتا من الفطنة الا تكشفنا تعالساتهما ومؤامراتهما السياسية للرأى العام فى الوقت الحالى وفى ظل تلك الظروف المريبة وحقيقة الامر كما علمت فيما بعد ان الضالع فى تلك الدسياسة لم يكن الامبراطور العجوز وانما ابن أخيه المتآمر الأرشيدوق فرانز فرديناند الذى دبر تلك المؤامرة مع الكونت فون شيلفن والبارون فون لينسدورف ودار المستشارية فى برلين •

وقد حصل الأرشيدوق - ولكن بطريقة غريبة - على أسلحته الفظيعة ، فقد قدمتها ألمانيا الى النمسا بعد مصرعه فى سراييفو بعد ذلك بعدة سنوات ، بينما أدت الحرب التى نشبت بعد ذلك الى أن يفقد القيصر عرشه • وكثيرا ما تذكرت ، خلال السنوات السوداء التى بدأ بها هذا القرن وصف سيجموند فرويد المختصر لذلك الرجل والذى بناه على ملاحظته لذراعه العاجزة • ولو أننى لم أستطع الجزم بصحة تفسيره • وكما سبق لى القول كانت لى نقاط خلاف عديدة مع سيجموند فرويد •

وخلال حزمنا لأممتعتنا • ناقشت مع شرلوك هولمز فكرة خرق الاتفاق مع هاتين القوتين (ألمانيا والنمسا) وأن نعلن للعالم سلوكهما المشين • فمتى عدنا الى انجلترا لن يكون هناك ما يمنع قيامنا بذلك ، ولن يعوقنا - سرقة القطار أو الساقى الذى قتله هولمز أو اختراقنا للحدود - فهذه كلها أشياء حدثت عندما كنا فى النمسا ولا يمكن استخدامها لارغامنا على التعاون • ولربما كان من الأصلح أن يعرف العالم مهاوى السوء التى يديرها له قاداته العظماء •

الا أننى قررت السكوت ، فلم نكن متأكدين من النتائج التى سيؤدى اليها هذا الكشف - اذ لم يكن أى منا بارعا فى السياسة لدرجة تسمح بثقدين نتائج ذلك العمل - والأسوأ

من ذلك لم نكن نستطيع كشف الأمر دون فضح دور الدكتور فرويد ، وهو أمر لم نكن نجسر عليه طالما بقي الدكتور في فيينا •

وقال فرويد في النهاية : « سأخبرك بما أرغب فيه » ووضع سيجاره وهو ينظر نظرة ثاقبة الى عين هولمز : « أود أن أنومك مرة أخرى » •

ولم تكن لدى أية فكرة عما يود أن يطلبه (كنت أظن أنه سيقض أى شيء من هذا القبيل) ولكنى لم أتوقع ذلك قط • كذلك هولمز ، الذى جحظت عيناه من الدهشة وأخذ يكبح قبل أن يجيب :

— « تريد أن تنومنى • • لأى سبب ؟ » •

هز فرويد كتفيه دون اجابة وعلى فمه نفس الابتسامة الهادئة ثم قال : « لقد تكلمت لتؤكد عن ورطة الانسانية • • • ويجب أن أعترف أن هذه هى مناط اهتمامى البالغ ولما كنا قد لاحظنا أن الوسيلة الوحيدة الملائمة لدراسة البشرية هى دراسة الانسان الفرد لذلك فكرت انك ربما تسمح لى بأن ألقى نظرة أخرى الى أعماق عقلك » •

وفكر هولمز فى الأمر مليا

— « حسنا أنا خادمك المطيع » •

وتدخلت قائلا : « هل تسمحون لى بالانصراف » هممت بالقيام اذ ظننت أن فرويد ربما يرى فى وجودى عرقلة لما سيقوم به •

— فأجاب : « كلا بل انى أفضل أن تبقى » وقام ليسدل الستائر ويحضر ساعته ذات السلسلة مرة أخرى •

كان تنويم هولمز هذه المرة أسهل بكثير مما كان عليه الأمر قبل ذلك ، عندما كنا معتمدين على أسلوب فرويد لايقاف هولمز عن تعاطي الكوكايين . أما الآن فكان التجاوب سهلا ولم يكن هناك ما يعكر صفو تفكيرهما . ولدينا وقت كاف . وأغلق هولمز عينيه خلال ثلاث دقائق وجلس ساكنا منتظرا تعليمات الدكتور .

— وبدأ فرويد حديثه بصوت خافت هادىء : « سأوجه اليك بعض الأسئلة . وسوف تجيبني عليها . وعندما تنتهى سأطرق بأصبعى وسوف تستيقظ عندئذ . ولن تتذكر شيئا مما حدث خلال نومك . . اتفقنا » .

— « اتفقنا » .

— « حسنا — وأخذ نفسا عميقا — متى بدأت تعاطي الكوكايين ؟ » .

— « فى سن العشرين » .

— « لماذا ؟ » .

لم يحجر هولمز جوابا .

— كرر فرويد السؤال « لماذا ؟ » .

— « لأننى كنت تعيسا » .

— « لماذا اخترت مهنة المخبر السرى ؟ » .

— « لأعاقب الأشرار وأرى العدالة تأخذ مجراها » .

— « هل سبق لك أن خبرت ظلما ؟ » .

توقف . . .

— وسأله فرويد مرة أخرى وهو يمسح شفثيه بلسانه

ناظرا الى : « هل خبرت ؟ » .

— « نعم » .

كنت جالسا فى مقعدى أستمع الى هذا الحوار بكل انتباه واعجاب وقد أسندت كوعى الى ركبتي وملت بجسمى الى الأمام متحفزا حريصا على ألا تفوتنى كلمة من هذا الحديث الخافت .

— « هل مررت أنت نفسك بخبرة أفعال اللؤم والاثم؟ » .

— « نعم » .

— « وماذا كانت تلك الخبرة ؟ » .

وتردد هولمز مرة أخرى ، وحشه فرويد ثانية على الكلام
« ماذا كانت تلك الخبرة ؟ » .

— « كانت أُمى تخون أبى » .

— « هل كان لها عشيق ؟ » .

— « نعم » .

— « وماذا كان الظلم أو الاثم الذى وقع ؟ » .

— « قتلها أبى » .

وأحسست بجسم فرويد ينتصب فى مقعده وأخذ ينظر متعيرا فى أرجاء الغرفة وهو فاقد لسيطرته على نفسه — مثلى تماما — فقد نهضت فجأة من مقعدى فى استجابة آلية ثم تجمدت فى مكانى . . دون أن أفقد حاستى السمع والابصار .
وتمالك فرويد نفسه بسرعة عنى . . والتفت مرة أخرى الى مفحوصه :

— « اذا لقد قتل أباك أمك ؟ » (١) .

— « نعم » وغص حلقه بشهقة مزقت نياط قلبى .

(١) لقد استطاع تريفور هوارد ببراعة استنتاج هذه الواقعة وذكرها فى مقالة بعنوان « السنوات المبكرة فى حياة شرلوك هولمز » — (نيكولاس ماير) .

— « وماذا عن عشيقها ؟ » تابع فرويد استجوابه فى
مثابرة وعينه ترمشان بسرعة •

— « لقد هرب » •

وتوقف فرويد ليتمالك نفسه قبل أن يتابع :

— « وماذا بشأن والدك ؟ » •

— « لقد انتحر » •

ظل هولمز بلا حراك طيلة هذا الاستجواب • وكان
ظهور قنلرات العرق على جبهته فجأة مؤشرا على المذاب
الداخلى الذى يعانيه • وتأمله فرويد بعناية ، كما لو كان
يقدر الى أى مدى يمكن الاستمرار فى هذا الاستجواب • •
ثم قرر الاستمرار •

— « هل كنت تعرف شخصية عشيق أمك ؟ » •

— « نعم » •

— « من هو ؟ » •

ولم أستطع أن أمنع نفسى من التدخل • • « يا ذكتور » •
لم يكن الاسم يعنى شيئا بعد هذه السنوات الطويلة • ولكن
السؤال كان قد ألقى • وكان هولمز بحكم طبيعته المنتظمة -
داخل التنويم وخارجه - على وشك الاجابة •

— « لقد كان مدرسا ! » •

— « مدرسك أنت وأخيك مايكروفت ؟ الأستاذ
موريارتى ؟ »

— « نعم » جاء الجواب مصحوبا بأنة مكتومة •

— « هكذا اذن » .

ونظر فرويد الى ساعته فى سلسلتها وحملق فيها مكتئبا
برهة ثم وضعها فى جيبه وقال : « حسنا فلتنم الآن يا هر هولز
» . وابق نائما ساوقظك بعد لحظة ولن تتذكر شيئا مما دار
فى هذه المقابلة . . مفهوم ؟

— « قلت اننى فاهم » .

— « حسنا فلتنم الآن » .

ولاحظه فرويد لفترة وتأكد من أنه لا يتحرك . ثم
نهض وعبر الغرفة وجذب مقعدا وضعه بجانبى . وكانت
عيناه أكثر حزنا من أى وقت مضى . ولم يقل شيئا بل أخذ
سيجارا وقص طرفه وأسفله . وكنت قد غرقت فى مقعدى
وعقلى فى دوامة وأذناى تدويان من هول الصدمة .

— قال فرويد بعد فترة وهو يحدق فى من خلال الدخان :
« لا ينتج المربء الى المخدرات بسبب أنها « الموضوعة » أو لأنه
يجب ذلك . هل تتذكر اننى سألتك فى البداية كيف عرف
طريقه الى المخدر . ولم تستطع أن تجيب على سؤالى ، بل ولم
تدرك أهميته . الا أننى أدركت منذ البداية أن شيئا قد
دفعه الى هذا الطريق المهلك . .

— « ولكن » — وألقيت نظرة على هولز — « هل خطرس
ببالك ؟ » .

— « كلا بالطبع لم أتوقع قط أن أسمع ذلك الذى سمعته
الآن . ولكن انظر الى الكم الهائل الذى شرحته لنا تلك
الوقائع . فنحن نفهم الآن مصدر ادمانه والسبب الذى جعله
يختار تلك المهنة بل وفهمنا أيضا سر تجنبه للنساء والصعوبات

التي يعانيتها في التعامل معهن * وقضلا عن ذلك فقد اتضحت أسباب عداوته لموريارتى وكذلك النفوذ الغامض الذي يمتلحه مايكروفت على هذا الشخص * كما نفهم ايضا لماذا ضخم صديقك من شأن هذا الاستاذ الصغير وسماه « نابليون الجريمة » * فتحت تأثير التشبع بالكوكايين تتخذ العلاقة غير المشروعة بين موريارتى ووالدة هولمز أبعادها الانفعالية الحقيقية - وهى أبعاد لا نهاية لها * ومال فرويد بجسمه الى الأمام وهو يمسك بالسيجار يهزه لتأكيد كلامه ثم عاد الى جلسته تاركاً الى فرصة من الوقت لأفهم تسلسل أفكاره * ولما رأى اننى اتابعه استأنف حديثه قائلاً : « ويجب ان ندرك بالطبع أن كل هذه الاستنتاجات مدفونة فى أعماق نفسه - فى منطقة أطلقت عليها تعبير « اللاشعور » - ولا يسمع لها قط بالظهور فى ادراكه ، وانما تظهر أعراض هذه الافكار رغما عنه - كما يتضح فى اختياره لمهنته ولا مبالاته بالنساء (وهو أمر قد سجلته يا دكتور واطسون) وأخيراً فى تفضيله للمخدر الذى تتكشف تحت تأثيره مشاعره الحقيقية الدفينة حول الموضوع » *

لقد استوعبت الحقيقة المهولة فى قول سيجموند فرويد فى لمحة * لقد فسرت لى أيضاً ذلك الانسحاب الغريب لمايكروفت هولمز من العالم الى مكان يحظر فيه الكلام، وكذلك حالة العزوبية الدائمة للأخوين * أما بالنسبة للبروفسور موريارتى ودوره فى المسألة فقد أدركت مفزوعاً كيف أن شرلوك هولمز كان مصيباً بالنسبة له على أية حال وألقت الى سيجموند فرويد : « انك أعظم المخبرين السريين على الإطلاق » ولم يكن هناك وصف يمكن أن أطلقه عليه غير ذلك *

- وهز فرويد رأسه وهو يبتسم ابتسامته الحزينة الحكيمة : « لست مخبراً سرياً ، ما أنا الا طبيب مجالته هو العقول المضطربة » ولاح لى أن الفرق لم يكن كبيراً *

— وما الذى ستستطيع فعله بالنسبة لصديقنا ؟ *

وتنهد فرويد وهز رأسه مرة أخرى :

— « لا شيء » *

— وذهبت « لا شيء » هل قطعنا كل هذا الشوط لكى

نقف عند هذا الحد *

— « أجل لا شيء — لا أعلم كيف أصل الى تلك المشاعر

الا من خلال تلك الطريقة الفجة العاجزة ألا وهى التنويم » *

— فقلت : « عاجزة ؟ » وجذبت كم سترته وأنا أقول :

« بالتأكيد يا دكتور فرويد » **

— « أجل عاجزة لأن المريض فى هذه الحالة لن يرغب

— بل لن يستطيع — أن يتقبل شهادته هو نفسه عندما يعود

الى وعيه * لن يصدقنى ولن يصدقك بل سيتهمنا بالكذب

والافتراء » *

— « ولكن .. » *

— « يا دكتور واطسون لو لم تكن أنت هنا وشاهدت

بنفسك ، هل كنت تصدق ؟ » *

— واعترفت بأننى بالفعل ما كنت لأصدق *

— « حسنا ها هنا توجد مشكلتنا * وعلى أية حال فمخ

المشكوك فيه أن يظل هولمز هنا لمدة كافية تسمح لنا بالتوغل

فى أعماق ذاته بأية وسيلة أخرى * انه يتعجل الرحيل » *

وتجادلنا في الموضوع عدة دقائق ، ولكنى أدركت منذ البداية انه على صواب . ان أى أساليب قد تساعد شرلوك هولمز لم تكتشف بعد .

وقال لي فرويد : « تسلم بالشجاعة يا أخى ان صديقك ، فى نهاية الأمر ، هو انسان يقوم بواجباته . انه يؤدى عمله نبيلاً بل ويؤديه «بحرارة» ورغم تعاسته فانه ناجح فى عمله بل ويحبه الناس . وسيأتى الوقت الذى يبيكتشف فيه العلم مغاليق اسرار العقل البشرى . وعندما ياتى ذلك الوقت لا شك عندى فى ان شرلوك هولمز سيكون مسئولاً عن الوصوف اليه شأنه شأن كل الآخرين . سواء تخفف عقله من اجماله المخيفة أم لم يتخفف » .

وجلسنا صامتين لفترة من الوقت ، وبعد هذا اية ظل فرويد المخبر السرى من غفوته . ولم يتذكر شيئاً كما امر .

واستفسر هولمز وهو يشعل غليونه : « هل قلت شيئاً ذا أهمية ؟ » .

ـ وأجابه فرويد مبتسماً : « أخشى ان ما قلته لم يثر اهتمامى » وتشاغلنا أنا بالنظر فى اتجاه آخر متفحصاً ، لآخر مرة ، صفوف الكتب المتراسة : ثم توجه بالسؤال الى فرويد : « وما الذى ستفعله بالنسبة للبارونة ؟ » .

ـ « سأفعل ما أستطيع » .

وابتسما وسرعان ما تبادلنا تحيات الوداع مسع بقيقة أفراد المنزل ، بولا ، وفراو فرويد ، والصغيرة آنا التى بكت بحرقه وهى تلوح بتحيات الوداع ونحن نستقل العربة بمنديلها الصغير الذى بللته الدموع . ووعدنا هولمز بأنه سيعود يوماً ما ويعزف على الكمان من أجلها .

وخلال رحلتنا الى محطة القطار غرق في صمت. وبدأت عليه علائم التفكير العميق . وظل كما هو بحيث اننى لم أرغب فى ازعاجه ولو أن تغير مزاجه أدهشنى وأقلقنى .
الا أننى عندما رأيته بعد أن وصلنا يتجه الى رصيف القطار المؤدى الى ميلانو اضطرت للتدخل ولكنه ابتسم وهز رأسه :

— « كلا يا واطسون لا يوجد أى خطأ » .

— « ولكن قطار دوفر لا يقوم من هذا الرصيف » .

— « لست عائدا الى انجلترا » .

— « ليس بعد ، أعتقد اننى أحتاج لبعض الوقت أخلو الى نفسى ، أحتاج الى وقت للتفكير . أما أنت يا صديقى فاستجمع شجاعتك . ستذهب الى انجلترا بدونى » .

وقلت مرتبكا وقد أذهلنى تقلب الأحداث : « ولكن متى ستعود ؟ » .

وأجاب بغموض : « سأعود يوما ما » ، وأضاف بحيوية :
« أخبر أخى بقرارى واسأله أن يطلب من مسز هدسون الابقاء على مسكنى كالمعتاد وألا تلمس شيئا . هل هذا واضح ؟ » .

— « ولكن يا هولمز . . » .

لم تكن هناك جدوى من المناقشة . كانت خطاه أسرع منى بكثير . ونظرت حولى فى المحطة المزدحمة عاجزا وغاضبا من نفسى لعدم قدرتى على التعامل معه ووددت لو كان فرويد معى .

— وقال لى بحنان فهو يمسكنى من ذراعى : « يا صديقى

العزیز لا تقس على نفسك • أؤكد لك أنني سأتعافى تماما ولكنى أحتاج الى وقت ، وقد يطول هذا الوقت » وسكت برهة ثم استطرد : « ولكنى سأعود الى شارع بيبكر وهذا وعد منى • أرجو أن تبلغ تحياتى الى مسز واطسون » •
وضغط على يدى وهو يركب قطار ميلانو الذى بدأ فى الحركة •

— « ولكن يا هولز كيف ستعيش هل لديك أى مال ؟ » •
كنت أمشى بجانب القطار بخطوات تتسع مع ازدياد حركته •

واعترف مبتسما : « ليس لدى الكثير ، لكن معى كمان واعتقد اننى سأستطيع اعادة نفسى بأكثر من وسيلة عندما تشفى ذراعى » واستطرد ضاحكا : « واذا أردت أن تتابع حركتى عليك بمتابعة المسار الفنى لموسيقى عازف على الكمان يدعى سيجرسون » ثم هز كتفيه وقال : « واذا فشلت فى ذلك فسأبرق الى ميكروفت طالبا الدعم

— فقلت : « ولكن ماذا عن قرائك — قرائى • • ماذا سأقول لهم ؟ »

كنت أجرى بجانب القطار الآن •

وأجاب : « أخبرهم بما شئت ، قل لهم ان مدرس الرياضيات قد قتلنى ، وعلى أى الأحوال فهم لن يصدقوك أبدا » •

وزادت سرعة القطار بحيث لم تستطع ساقاى متابعته •

كانت رحلة عودتى خالية من الأحداث • فقد غفوت معظم الطريق ، وعندما نزلت من القطار فى محطة فيكتوريا كانت زوجتى العزیزة تنتظرنى بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحتين •

النهاية

المؤلف

نيكولاس ماير مؤلف هذه الرواية كاتب انجليزي يعيش في أمريكا • ولم تعرف له مؤلفات شهيرة مثل هذه الرواية التي لاقت رواجا وأخرجتها السينما في هوليوود • وقد بذل المؤلف جهدا كبيرا في كتابتها اضطره للرجوع الى عشرات المؤلفات التي كتبت عن فرويد وعن شرلوك هولمز •

المترجم

أستاذ علم النفس بآداب سوهاج وزميل الجمعية النفسية البريطانية - ترجم الى العربية من الانجليزية والفرنسية عددا من أمهات الكتب في علم النفس مثل أزمة علم النفس المعاصر لجورج بوليتزير ونظريات الشخصية لهول وليندزى وفن العلاج النفسى لأنتونى ستور وله عدد من المؤلفات بالعربية مثل العلاج النفسى الجمعى ، ونظريات التعلم ، والارشاد النفسى •

اقراً فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص أخرى
ى • رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ب • و • فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رابموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر • ج • فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المشهد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د • قدرى حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكدوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د • محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س • بى • كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د • عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
سل شول وأدبنيث	القوة النفسية الأهرام
د • صفاء خلوصى	فن الترجمة
الف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	سستندال

- رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات في مضمار
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائي عند تولستوى
ادب الأطفال
أحمد حسن الزيات
اعلام العرب في الكيمياء
فكرة المسرح
الجسيم
صنع القرار السياسى
التطور الحضارى للإنسان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
النحل والطب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
التنشئة الأبرية والإبناء الصغار
- فيكتور هوجو
فيرنز هيزنبرج
سدنى هوك
ف ٠ ع أدنيكرف
هادى نعمان الهيتى
د ٠ نعمة رحيم العزاوى
د ٠ فاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
هنرى باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د ٠ روجر ستروجان
كاتي ثير
٠ ١ سبنسر
د ٠ ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داهموس
د ٠ اينوار تشامبرز رايت
د ٠ جون شندلر
بيير البيير
د ٠ غبريال وهبة
د ٠ رمسيس عوض
د ٠ محمد نعمان جلال
فرانكين ل ٠ باومر
شوكت الربيعي
د ٠ محيى الدين أحمد جيبين

- نظريات الفيلم الكبرى
مختارات من الأدب القصصى
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الادب اليابانى
الفكر الاوروبى الحديث ٢ ج
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
أجهزة تكييف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
العلم والطلاب والمدارس
الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية
دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايدز
نجيب محفوظ على الشاشة
صور افريقية
- ح . دادلى أندرو
جوزيف كونراد
د . جوهان دورشز
طائفة من العلماء الأمريكيين
د . السيد عليوة
د . مصطفى عنانى
صبرى الفضل
فرائكلين ل . باومر
جابريل باير
ايطونى دى كرسبى
دوايت سوين
زافيلسكى ف . س
ابراهيم القرضاوى
بيتر رداى
جوزيف داهموس
س . م بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
ونورمان د . اندرسون
د . أنور عبد الملك
والث وثمان روسو
فريد س هيس
جون يوركهارت
آلان كاسسبيار
سامى عيد المعطى
فريد هويل
شاندرا ويكراما ماسينج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
هانم النحاس
دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعه : جون ر . بورر وميلتون جولد ينجر ارنولد توينبي
الفكر التاريخى عند الاغريق	د . صالح رضا
قضايا وملامح الفن التشكيلي	م . هـ . كنج وآخرون
التغذية فى البلدان النامية	جورج جاموف
بداية بلا نهائية	د . السيد طه أبو سديرة
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين	اريك موريس وآلان هو
اللكون	سيريل الدريد
الارهاب	آرثر كيستلر
اختاتون	توماس ا . هاريس
القبيلة الثالثة عشرة	مجموعة من الباحثين
التوافق النفسى	روى أرمز
الدليل الببليوجرافى	ناجى متشيو
لغة الصورة	بول هاريسون
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
العالم الثالث غدا	فيكتور مورجان
الانقراض الكبير	اعداد محمد كمال اسماعيل
تاريخ النقود	الفردوسى الطوسى
التحليل والتوزيع الأوركستراالى	بيسرتون بوتر
الشاهنامه (٢ ج)	جاك كرابس جريور
الحياة الكريمة (٢ ج)	
كتابة التاريخ فى مصر	

ادوارد ميرى	عن النقد السينمائى الأمريكى
اختيار / د. فيليب عطية	ترانيم زرادشت
اعداد / موني براخ وآخرون	السينما العربية
آدامز فيليب	دليل تنظيم المتاحف
سادين جورديمر وآخرون	سقوط المطر وقصص اخرى
زيجمونت هبزر	جماليات فن الاخراج
سستيفن اوزمنت	التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
جوناثان ريلى سميث	الحملة الصليبية الاولى
تونى بار	التمثيل للسينما والتلفزيون
بول كرلنر	العثمانيون فى اوربا
موريس بير براير	صناع الخلود
الغريد ج. بتيار	الكنايس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)
رودريجو فارتيجا	رحلات فارتيما
فانس بكارد	انهم يصنعون البشري (٢ ج)
اختيار / د. رفيق الصبان	فى النقد السينمائى الفرنسى
بيتر نيكوللز	السينما الخيالية
برتداند ناصل	السلطة والفرد
بيارد دودج	الازهر فى الف عام
ريتشارد شاخت	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر قامة
نفتالى لويس	مصر الرومانية
هربرت شبيلر	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / جيسى الفضل	مختارات من الاداب الاسيوية
أحمد محمد الشنوانى	كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريتو تود	مدخل الى علم اللغة
اعداد / سوريال عيبد الملك	حديث النهر
د. أبرار كريم الله	من هم القطار
اعداد / نجابر محمد الجزار	مستقرىخت
ه. ج. ٠ ولز	معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)

سـتيفـن رانـسيـمان	الحمـلات الصـليبيـة
جـوسـتاف جـرونيـسـاورم	حـضـارة الاسلام
ريـتشـارد فـ بـيرتون	رحـلة بـيرتون (٣ جـ)
أدمـن مـتز	الحـضـارة الاسلاميـة
ازنـولد جـزل	الطفـل (٢-جـ)
بادى-اونيمود	افريقيـا الطريـق الآخر
فيليب عطية	السـحر والعـلم والدين
جلال عبد الفتاح	الـكون ذلـك المـجهـول
محمـد زينهم	تـكنـولوجيا فـن الزجـاج
مارتن فان كريفلد	حـرب المـستـقبل
سـونـدارى	الفلسـفة الجـوهريـة
فرانـسيس جـ بـرجين	الاعـلام التـطبيـقى
جـ كارـسيل	تبـسيط المـفاهيم الهندسيـة
توماس ليبهارت	فـن المـايم والـبيانـتومايم
الفين توفلر	تـحول السـلطة
ادوارد وبونو	التفـكير المـتجدد
كريستيان سالين	السـينـما فى السـينـما-الفرنسيـة
جوزيف مـ بـوجز	فـن الفرـجة على الأفـلام
بول وارن	خـفـايا نـظـام النـجم الامريـكى
جورج ستايز	بين تولستوى ودستوفسكى (٢ جـ)
ويليام هـ مـاثيوز	ما هـى الجيـولوجيا
جارى بـ ناش	الـحـمر والبيـض والسـود
ستالين جين سولومون	انواع الفـيلم الاميركى
عبد الرحمن الشيخ	رحـلة الامير رودلف ٢-جـ
عبد العزيز جويد	رحلات ماركو بولو ٣ جـ
محمود سامى عطا الله	الفـيلم التـسـجيلي
يانكو لافرين	الرومانتيكية والواقعية
ليوناردو دافنشى	نظريـة التـصـوير
جوزيف بندهام	تاريخ العـلم والحـضـارة فى الصين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٠٦٣

ISBN — 977 — 01 — 4708 — 7

هذا الكتاب رواية تصور لقاء حدث بين العالم
النفسانك الشهير سيجموند فرويد وبين البوليس السرك
المعروف شرلوك هولمز.

ولقد تعاصر ظهور الروايات التـ كان شرلوك هولمز
بطلها مع ظهور الدكتور سيجموند فرويد ونظرياته
التـ بدأت ثورة فـ علم النفس الحديث.

ولا شك أن شرلوك هولمز كان شخصية روائية، لم توجد
إلا فـ الروايات التـ أبدعها الكاتب الانجليزى سير
آرثر كونان دويل ومع ذلك فإن الملاحظات التـ أحاطت
بـ عمل الرجلين [هولمز وفرويد] جعلت خيال الكتاب يصل
إلى فكرة الجمع بينهما فـ عمل شيق مثير تتصدر
قائمة الكتب الأكثر بيعا لفترة طويلة.

مؤلف الكتاب، نيكولاس ماير روائى أمريكى
معاصر تعتبر هذه الرواية أشهر أعماله وقد أخرجتها
هوليوود فـ فيلم سينمائى فـ السبعينيات.

مترجم الكتاب الأستاذ الدكتور لطف محمد
فطيم أستاذ علم النفس بكلية الآداب بسوهاج وزميل
الجمعية النفسية البريطانية.